

عزيم في كيسوزبون

رسلي المالكي

الطبعة الأولى

يشكر الكاتب رسلي المالكى كل من ساعد وساهم في جعل روايته (غريب في السوربون) تظهر بالشكل والمضمون الذي هي عليه الآن، ويقف ممتنا لأصغر محاولة مساعدة قدمت له أثناء مسيرته لإنجاز هذا العمل.

شكر وتقدير إلى :

مؤيد نزار × الدكتور طه جزاع × ندى المندلاوي × لُبَّان الجبوري × نزار الوزان × شيماء السامرائي × أحمد وحيد × داني ميشو × أية روابدة × الدكتور هوشيار مظفر علي أمين × الدكتور علي مراد × زينب نجم × علي حجازي × خانزاد قرداغي × الدكتور عامر الجميلي × الأستاذ حيدر عكاب × جنيد عامر حميد × وجدان الدليمي × فواز فلاح

وإلى..

سارة..

استندت هذه الرواية على قصة حقيقية حدثت بين العراق ودولة مجاورة في العام 2003 وأضيف إليها من خيال الكاتب، ويتحفظ المؤلف على الشخص الحقيقي الذي قام بعملية بابل المذكورة فيها كجزء من الالتزام الأخلاقي معه، كما استندت الرواية على مصادر ومراجع علمية و تاريخية رصينة، وإن جميع ما ذكر فيها من أماكن ومواقع وأوصاف علمية وتاريخية هو حقيقي.

كافة الأحداث التي وقعت في مدينة باريس حدثت في العام
2022.

الإهداء..

إلى الخالدين بما خطته أيديهم..

العابرين على خط الزمن..

كانما أثمرهم سمرمدِّي إلى نهاية الخليقة..

رسلي المالكي

الويل لمن يلمس أجسادنا، ويسرق حليتنا،
يموت مريضاً ولا يدخل الجنة.

«كَانَ فِي سَنَةِ الثَّلَاثِينَ، فِي الشَّهْرِ الرَّابِعِ، فِي الْخَامِسِ مِنَ الشَّهْرِ، وَأَنَا بَيْنَ الْمُسَبِّينِ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ، أَنَّ السَّمَاوَاتِ انْفُتَحَتْ، فَرَأَيْتُ رُؤَى اللَّهِ.

فِي الْخَامِسِ مِنَ الشَّهْرِ، وَهِيَ السَّنَةُ الْخَامِسَةُ مِنْ سَنِي يُوْيَاكِينَ الْمَلِكِ، صَارَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَى حَزَقِيَّالَ الْكَاهِنِ ابْنِ بُوزِي فِي أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ. وَكَانَتْ عَلَيْهِ هُنَاكَ يَدُ الرَّبِّ.

فَنظَرْتُ وَإِذَا بِرِيحٍ عَاصِفَةٍ جَاءَتْ مِنَ الشَّمَالِ. سَحَابَةٌ عَظِيمَةٌ وَنَارٌ مُتَوَاصِلَةٌ وَحَوْلُهَا لَمَعَانٌ، وَمِنْ وَسْطِهَا كَمَنْظَرِ النَّحَاسِ اللَّامِعِ مِنْ وَسْطِ النَّارِ..

وَمِنْ وَسْطِهَا شِبْهُ أَرْبَعَةِ حَيَوَانَاتٍ. وَهَذَا مَنْظَرُهَا: لَهَا شِبْهُ إِنْسَانٍ.

وَلِكُلِّ وَاحِدٍ أَرْبَعَةٌ أَوْجُهُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ أَرْبَعَةٌ أَجْنِحَةٌ.

وَأَرْجُلُهَا أَرْجُلٌ قَانِمَةٌ، وَأَقْدَامُ أَرْجُلِهَا كَقَدَمِ رَجُلِ الْعَجَلِ، وَبَارِقَةٌ كَمَنْظَرِ النَّحَاسِ الْمُصْقُولِ.

وَأَيْدِي إِنْسَانٍ تَحْتَ أَجْنِحَتِهَا عَلَى جَوَانِبِهَا الْأَرْبَعَةِ. وَوُجُوهُهَا وَأَجْنِحَتُهَا لِجَوَانِبِهَا الْأَرْبَعَةِ.

وَأَجْنِحَتُهَا مُتَّصِلَةٌ الْوَاحِدِ بِأَخِيهِ. لَمْ تَدُرْ عِنْدَ سَيْرِهَا. كُلُّ وَاحِدٍ يَسِيرُ إِلَى جِهَةٍ وَجِهَةٍ.

أَمَّا شِبْهُ وَجُوهِهَا فَوَجْهُ إِنْسَانٍ وَوَجْهُ أَسَدٍ لِلْيَمِينِ لِأَرْبَعَتِهَا، وَوَجْهُ ثُورٍ مِنَ الشَّمَالِ لِأَرْبَعَتِهَا، وَوَجْهُ نَسْرٍ لِأَرْبَعَتِهَا.

فَهَذِهِ أَوْجُوهُهَا. أَمَّا أَجْنِحَتُهَا فَمَبْسُوطَةٌ مِنْ فَوْقٍ. لِكُلِّ وَاحِدٍ اثْنَانِ مُتَّصِلَانِ أَحَدُهُمَا بِأَخِيهِ، وَاثْنَانِ يُغْطِيَانِ أَجْسَامَهَا.

وَكُلُّ وَاحِدٍ كَانَ يَسِيرُ إِلَى جِهَةٍ وَجِهَةٍ. إِلَى حَيْثُ تَكُونُ الرُّوحُ لِتَسِيرَ تَسِيرًا. لَمْ تَدُرْ عِنْدَ سَيْرِهَا.

أَمَّا شِبْهُ الْحَيَوَانَاتِ فَمَنْظَرُهَا كَجَمْرٍ نَارٍ مُتَّقِدَةٍ، كَمَنْظَرِ مَصَابِيحٍ هِيَ سَالِكَةٌ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ. وَلِلنَّارِ لَمَعَانٌ، وَمِنْ النَّارِ كَانَ يَخْرُجُ بَرْقٌ.

الْحَيَوَانَاتُ رَاكِضَةٌ وَرَاجِعَةٌ كَمَنْظَرِ الْبُرْقِ.

فَنظَرْتُ الْحَيَوَانَاتِ وَإِذَا بِكُرَّةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْأَرْضِ بِجَانِبِ الْحَيَوَانَاتِ بِأَوْجُوهِهَا الْأَرْبَعَةِ.

مَنْظَرُ الْبُكْرَاتِ وَصَنَعَتُهَا كَمَنْظَرِ الزَّبْرِجِدِ. وَلِلْأَرْبَعِ شَكْلٌ وَاحِدٌ، وَمَنْظَرُهَا وَصَنَعَتُهَا كَأَنَّهَا كَانَتْ بُكْرَةً وَسَطِ بُكْرَةٍ.

لَمَّا سَارَتْ، سَارَتْ عَلَى جَوَانِبِهَا الْأَرْبَعَةِ. لَمْ تَدُرْ عِنْدَ سَيْرِهَا.

أَمَّا أَطْرُهَا فَعَالِيَةٌ وَمُحَيِّقَةٌ. وَأَطْرُهَا مَلَانَةٌ عَيْنُونَا حَوَالِيهَا لِلْأَرْبَعِ.

فَإِذَا سَارَتْ الْحَيَوَانَاتُ، سَارَتْ الْبِكْرَاتُ بِجَانِبِهَا، وَإِذَا ارْتَفَعَتِ الْحَيَوَانَاتُ عَنِ الْأَرْضِ ارْتَفَعَتِ الْبِكْرَاتُ.
إِلَى حَيْثُ تَكُونُ الرُّوحُ لِتَسِيرَ يَسِيرُونَ، إِلَى حَيْثُ الرُّوحُ لِتَسِيرَ وَالْبِكْرَاتُ تَرْتَفِعُ مَعَهَا، لِأَنَّ رُوحَ
الْحَيَوَانَاتِ كَانَتْ فِي الْبِكْرَاتِ.

فَإِذَا سَارَتْ تِلْكَ سَارَتْ هَذِهِ، وَإِذَا وَقَفَتْ تِلْكَ وَقَفَتْ. وَإِذَا ارْتَفَعَتْ تِلْكَ عَنِ الْأَرْضِ ارْتَفَعَتِ الْبِكْرَاتُ
مَعَهَا، لِأَنَّ رُوحَ الْحَيَوَانَاتِ كَانَتْ فِي الْبِكْرَاتِ.

وَعَلَى رُؤُوسِ الْحَيَوَانَاتِ شِبْهُ مَقْبَبٍ كَمَنْظَرِ الْبُلُورِ الْهَائِلِ مُنْتَشِرًا عَلَى رُؤُوسِهَا مِنْ فَوْقِ.

وَتَحْتَ الْمَقْبَبِ أَجْنِحَتُهَا مُسْتَقِيمَةٌ الْوَاحِدَ نَحْوَ أُخِيهِ. لِكُلِّ وَاحِدٍ اثْنَانِ يَغْطِيَانِ مِنْ هُنَا، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ
اثْنَانِ يَغْطِيَانِ مِنْ هُنَاكَ أَجْسَامَهَا.

فَلَمَّا سَارَتْ سَمِعَتْ صَوْتَ أَجْنِحَتِهَا كَخَرِيرِ مِيَاهِ كَثِيرَةٍ، كَصَوْتِ الْقَدِيرِ. صَوْتُ ضَجَّةٍ، كَصَوْتِ جَيْشٍ.
وَلَمَّا وَقَفَتْ أَرَخَتْ أَجْنِحَتَهَا.

فَكَانَ صَوْتُ مِنْ فَوْقِ الْمَقْبَبِ الَّذِي عَلَى رُؤُوسِهَا. إِذَا وَقَفَتْ أَرَخَتْ أَجْنِحَتَهَا.

وَفَوْقَ الْمَقْبَبِ الَّذِي عَلَى رُؤُوسِهَا شِبْهُ عَرْشٍ كَمَنْظَرِ حَجَرِ الْعَقِيقِ الْأَزْرَقِ، وَعَلَى شِبْهِ الْعَرْشِ شِبْهُ
كَمَنْظَرِ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ مِنْ فَوْقِ.

وَرَأَيْتُ مِثْلَ مَنْظَرِ النُّحَاسِ الْأَمْعِ كَمَنْظَرِ نَارٍ دَاخِلَهُ مِنْ حَوْلِهِ، مِنْ مَنْظَرِ حَقْوِيهِ إِلَى فَوْقِ، وَمِنْ مَنْظَرِ
حَقْوِيهِ إِلَى تَحْتِ، رَأَيْتُ مِثْلَ مَنْظَرِ نَارٍ وَلَهَا لَمَعَانٌ مِنْ حَوْلِهَا.

كَمَنْظَرِ الْقَوْسِ الَّتِي فِي السَّحَابِ يَوْمَ مَطَرٍ، هَكَذَا مَنْظَرُ اللَّمَعَانِ مِنْ حَوْلِهِ. هَذَا مَنْظَرُ شِبْهِ مَجْدِ
الرَّبِّ. وَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَرَزْتُ عَلَى وَجْهِي، وَسَمِعْتُ صَوْتَ مُتَكَلِّمٍ...»

سفر حزقيال

الإصحاح 1.

ع غریب سے فی کسوز ہوں

الفصل 1

في مكان ما من العالم. يجلس الفتى المراهق نحيل البنية عارياً على كرسي حديد. وقد ربط جسمه بحبالٍ تكفي لربط ضحيتين بحجمه. أثار التعذيب بادية على جلده الخنطي الرقيق. وعيونه تحكي استسلاماً عميقاً تحت ظل جلاده الفارع الطول الواقف إلى جانبه.

الغرفة التي يجلس فيها تبدو الأقدّر على وجه الأرض. إحدى أنابيب النيون السقفية تقطع نورها بين الفينة والأخرى. السيراميك المربع الأبيض يغطي الجدران بقذارته. وأنابيب المياه الحديدية تتسلق على الحوائط كأفاعي اللبلاب.. متشحة بالصدأ.

شفتاه ترتجفان برداً وخوفاً. وملامحه الشرق آسيوية يعصف بها الترقب. عيناه لا تبرحان النظر إلى شاشة حاسوب وضع على الأرض أمامه.

الرجل الطويل بجانبه يطق أصابعه. ووجهه يبدو كخرسانة رصيف قاس. ينتظر إشعاراً ما. وينظر إلى الشاشة ذاتها التي ينظر إليها الفتى. الطاولة الحديدية بجانبه وضعت عليها سكاكين وإبر كبيرة وأدوات تعذيب تبرق لمعانا.

الفتى يرتجف. والرجل ذو الوجه الصارم والعينين الآسيويتين ينتظر شيئاً ما من الشاشة. لا يريد الفتى أن يجرب التوسل مجدداً. لقد أصبح واضحاً له أن ذلك لن ينفعه أبداً. بعد أن فقد صوته لكثرة الصراخ متعذباً. والآن تم تقديمه للعرض الكبير.

على بعد الآف الأميال. يجلس الرجل ذو العيون الزرقاء وحيداً أمام شاشة حاسوبه. منذ زمن وهو يتابع تلك المواقع الغريبة. كان في غرفة مظلمة إلا من نور الشاشة أمامه. وإلى جانب حاسوبه. هناك زجاجة براندي يسكب محتواها بجوفه بين الحين والآخر. عيناه تنظران إلى الشاشة بإثارة وتشوق..

أخيراً قرر أن يبدأ العرض.

أصابه تترك زجاجة البراندي و تتجه صوب فأرة الحاسوب أمامه. حرك مؤشرها على الشاشة وهو ينظر إلى ذلك الفتى المربوط والرجل الذي بجانبه. تلمس بمؤشر الفأرة الأدوات المرسومة أسفل الشاشة. سكاكين وإبر كبيرة وأدوات تعذيب لامعة. وفيما كان يمر عليها بالمؤشر. كان الفتى يرى ذلك السهم وما يمر عليه من أدوات القتل عن طريق حاسوب وضع أمامه هو الآخر.

ترقب الفتى سهم المؤشر. ماذا سيختار الزبون لينهي حياته به!

الرجل ذو العينين الزرقاوين يختار السكين الأكبر بين الأدوات أسفل الشاشة. بعد أن دفع مبلغ الـ1999 يورو من بطاقة ائتمانه. رأى الفتى ما اختاره الزبون. ولأول مرة بعد أن ينس من جدوى صراخه. عاد ليصرخ أمام نهايته. لقد تعذب طويلا حتى لم يعد ينفذ مالكة. والآن حانت ساعته. استجاب الرجل الطويل بجانبه إلى طلب الزبون الإلكتروني. وتوجه إلى الطاولة.

اختار السكين الأكبر من بين الأدوات عليها. السكين التي اختارها زبونه بالضبط. عاد نحو الفتى الذي صرخ واهتز وبكى وشهق في آن واحد. رفع الرجل الطويل السكين عالياً في الهواء. ثم اغمدها بترقوة سجينه الصغير...

اتكأ الرجل ذو العينين الزرقاوين إلى الوراء ناظرا إلى دم الفتى ورفساته الأخيرة بادية على الشاشة. أمسك زجاجة البراندي. وأفرغ باقيها في معدته.

الفصل 2

مرسيليا - فرنسا

خريف العام 2022 .

أطلقت الباخرة العملاقة (Octopus) صافرتها المدوية لتعلن وصولها المهيب إلى ميناء المدينة بعد أن مخرت عباب البحر المتوسط قادمةً من موانئ الاسكندرية. توقفت على الرصيف البحري كملكة من القرون الوسطى. لتندفع نحوها جموع العمال والآلات لإفراغ حمولتها الكبيرة. لقد تطور العالم و أصبح إفراغ باخرة بحجم أوكتوبوس لا يأخذ من الوقت سوى ساعات قليلة.

ترفع هذه الباخرة علم جمهورية بنما رغم كونها فرنسية. فذلك العلم يمنح البواخر الحق بالإبحار تحت أسهل شروط الإبحار العالمية. ويجنبها العديد من الصعوبات في نقل الحمولات التجارية.

في مرسيليا ذاتها. وعلى مسافة كيلومترين فقط ومنذ مدة قصيرة. جلست ليليان الشقراء في إحدى المقاهي الهادئة و البعيدة عن صخب البحارة وسفن الشحن. كانت تمسك جهازاً ذكياً متطوراً وتتابع ما يخص عملها باندماج. بدت فرنسيةً جدا وهي ترتدي قبعة صوفية مائلة انسدل من تحتها شعرها الأشقر على بلوزتها الغامقة. كانت بجسم مشوق ومتناسق كما أظهرها بنطالها الجينز الذي امتد من خصرها متلاشياً تحت بوتها الجلدي الطويل.

بساق على ساق عبرتا عن انتظارها لأمر ما من اهتزاز إحداهما. نظرت بعينيها اللامعتين نحو ساعتها. لم يبق إلا ربع ساعة على موعد استلام ما جاءت من أجله.

يجب أن تكون أوكتوبوس قد أفرغت حمولتها الآن.

نهضت مغادرةً المقهى. وبعد أن دفعت ثمن قهوتها. غادرت مستقلةً سيارة أجرة. متجهةً إلى مكتب تسليم الطرود الرئيس في مرسيليا.

بعد دقائق. كانت قد أَلقت ابتسامتها الساحرة على موظف تسليم الطرود ممتنةً على خدمته. غادرت المكتب واستقلت سيارة أجرة أخرى.

إلى محطة (Marseille-Saint-Charles station) للقطارات.

لقد عادت من حيث أتت هذا اليوم. فمحطة القطارات تلك توصل إحدى خطوطها إلى العاصمة باريس التي غادرتها صباح اليوم إلى هنا. وهاهي تعود إليها الآن كما جاءت. لكن بطردٍ أمسكت به بإحكام..

حتى داخل سيارة الأجرة.

سيكون عليها الجلوس في إحدى قطارات ال-TGV المؤدية إلى محطة (Gare de Lyon) الواقعة في العاصمة لنحو ثلاث ساعات و نصف . فالمسافة بين المدينتين تبلغ نحو 660 كيلومترا. ورغم أن القدوم والعودة في اليوم نفسه أمر متعب. إلا أن ليليان لم تنشأ المكوث للراحة طويلا في مرسيليا. فإيصال هذا الطرد إلى وجهتها هو أمر لا تطيق انتظاره.

الفصل 3

بمزاج سيء وأعصاب مشدودة كحبال المراسي. كان البروفيسور ميشيل ليون ذو الـ 38 عاماً وصاحب القوام النحيل يقود سيارته الرينو ذات الدفع الرباعي نحو مكان عمله في جامعة السوربون. لقد قضى الليلة الماضية باحثاً في مواقع الإنترنت عن مفاجأة جديدة تعيد فيه ضحك هرمون المعرفة. مضى وقت طويل منذ وجد ما يلفت انتباهه. وحين الوقت لإيجاد شيء جديد. شيء يظهر من باطن الأرض كظهور حطام سفينة بُحِث عنها طويلاً في البحار.

مسح شعره غاضباً وهو يقود. فهو يعلم أن تكريكات السوربون المتكررة له لا تلبى طموحه بقدر ما يريد العثور عليه.

قبل وصول الرينو إلى السوربون بخمس دقائق. لم يجد ميشيل بدأً من الاتصال بملاذه الأخير. الرجل الأكثر براعة في صيد الأهداف الثمينة.

ضغط في شاشة سيارته على اسم (فرونسوا فانسو) وبدأ بإجراء الاتصال.

توان طالت قليلاً. وأجاب الصوت..

”نعم؟“

”فرونسوا كيف حالك يا صديقي؟“ قال ميشيل مضمياً بعض البهجة على صوته الرتيب.

”أهلاً بك بروفيسور. مضى وقت طويل منذ سمعت صوتك“. رد فانسو متثائباً.

”صحيح. مم. يبدو صوتك متعباً!“.

”أهاه. كنت نائماً. سهرت البارحة طويلاً.“

أجاب ميشيل بصوتٍ جدّي: ”الديب ويب. صحيح؟“.

أطلق فرونسوا ضحكة متكلفة. ”متعتي الكبيرة!“.

شعر ميشيل بالراحة. فرجّله ما زال يتابع تلك المواقع الغريبة.

”طيب. هل لنا بلقاء (مفيد) هذا المساء؟“.

تأخر فرونسوا بالرد قليلا مستجمعا أفكاره عن التزامات هذا اليوم. أجاب: ”لا مشكلة. أين سنلتقي؟“.

رد ليون: ”مطعم اللوفر. السادسة مساءً“.

”اتفقنا“.

أغلق ميشيل الخط داخلا بسيارته إلى السوربون. فيما شعر فرونسوا بأهمية مردود هذا اللقاء.

ترجلت ليليان من الـTGV في محطة ليون بباريس مزهوةً بطردها المهم الذي وصل بسلام. توجهت بخطوات سريعة لتستقل سيارة أجرة نحو المنطقة التي يقع فيها متحف اللوفر. وبعد دقائق من استقلالها للسيارة صامتةً. نزلت خاطيةً نحو مبنى (Le Louvre des Antiquaires) الخاص ببيع الأنتيكات العريقة في واحدةٍ من أكثر بقع العالم اكتظاظا بالسائحين. حيث يقع المبنى إلى الجانب الأيمن من بوابة متحف اللوفر. ويقابل وجهها لوجه فندق اللوفر على بعد ساحةٍ تشكل مربعا ناقص ضلع مع المتحف و الفندق. إلى جانب عدة متاجر لبيع مساحيق التجميل الفاخرة و بعض المطاعم الصانعة للمزاج الرائق.

دخلت الفتاة إلى مبنى الأنتيكات سائرةً في مر رائع من الإنارة الخافتة المنعكسة على الأرضية الخشبية اللامعة. والتي تصطف على جانبيها محال بيع القطع النادرة والأشياء المصنوعة يدوياً وبعض محال المجوهرات. أصدرت خطواتها صوتاً أشبه بقطرات ماء متتابعة تهوي على خشبةٍ جوفاء.

مرت في بضع أروقة في المبنى. ثم توقفت أمام أحد أبواب المحال المصطفة. ألقت نظرة سريعة على فاترينة المعروضات بإنارتها الأنيقة. كل ما بداخلها لا يبدو على علاقة بما ستسلمه بعد قليل من طردٍ جاء على ظهر أوكتوبوس. فما في الفاترينة ليس سوى قطع نادرة من العملات والأواني المعدنية.

دفعت الباب فأصدرت الأسطوانات الرنانة فوقه صوت أجراس صغيرة سكتت سريعاً. كان المتجر عبارة عن عالم من الصمت المطبق و الهدوء التام. حتى كادت عينا الرجل الخمسيني الجالس خلف الفاترينة تصدران صوتا عندما ارتفعتا نحو الفتاة.

ارتسمت على وجهها ابتسامة مثيرة. فهي مزيج من الابتسام وال-(Duck Face) في آن واحد. نظر الرجل الخمسيني إليها بشغف. بعينين ما تزالان تبرقان عنفوانا رغم التجاعيد على جانبيهما.

”فعلتيها إذن!“ قال الرجل.

خلعت ليليان قبعتها المائلة ونثرت شعرها بحركة من رأسها. استدارت خلف الفاترينة التي كان الرجل يجلس ورائها. ثم سحبت كرسيًا وجلست إلى جانبه.

”كماهو معتادا!“. قالت بنصف ابتسامة.

”لأرى“. رد واضعا نظارته.

مدت الفتاة يدها في الحقيبة التي وضعت الطرد بداخلها أثناء دخولها مبنى الأنتيكات. لا خوفا من أن يراه أحد. بل تشويقا للرجل الخمسيني الذي أمامها.

أخرجت مغلفاً مكعب الشكل تقريبا وسلمته إليه.

وضع الرجل المغلف على طاولة منخفضة بجانبه. ونهض نحو باب المتجر. أمسك القطعة الموجودة على الباب و أدارها: ”مغلق“. وأقفل الباب.

عاد مسرعاً إلى كرسيه، وتناول المغلف باهتمام بالغ وبدأ يزيح الغلاف عنه.

لقد انتظر أشهراً لأجل الحصول عليه بعد سلسلة مفاوضات ومشاكل استمرت على مدى بحر وقارتين. خلع المغلف وتركه يسقط. واتسعت حدقتا عينيه على ما ظهر تحت الغلاف.

اقتربت ليليان تنظر هي الأخرى إلى ذلك الجسم الغريب ذي النتوءات المترصعة كخرابيش قط غاضب، تناول الرجل عدسة مكبرة وبدأ ينظر من عدستها وعدستي نظارته إلى ذلك الصامت الناطق. لم ترمش عيناه أبداً، كما لم ترمش عينا ليليان عندما هوت إحدى خصلات شعرها أمام وجهها. بل نفختها بنصف شفة.

رفع الاثنان عينيهما نحو بعضهما..

قال الرجل: "ألفان وخمسمائة عام يا ليليان!"

الفصل 4

بابل - العراق

2003

تلك هي الليلة الرابعة من شهر يوليو من سنة سقوط نظام صدام حسين في العراق. تحت سماء قاتمة مغبرة، وفي مكانٍ ناءٍ ومظلم، كان محمود يحفر بمعوله الصغير قرب تلول ضمت بقايا أناس عاشوا هنا قبل تلك الليلة بنحو ثلاثة آلاف عام. مستعينا بمصباح صغير يعمل ببطارية.

منهمكا في الحفر مثل أرنبٍ يحاول الهروب من كونه طريدة. كان يحفر غير عابئٍ بذرات الغبار التي أحاطت به كهالة من النور لما مر خلالها من أشعة المصباح. توقف عن الحفر ومسح عرق جبينه. أخذ نفساً عميقاً وعاود الحفر. عاوده بقلبٍ مؤمن بالعثور على شيء جديد يضاف إلى ما وجده من قبل بتلك البقعة السحيقة بزمانها ومكانها. والتي تعبق بأصوات وروائح الماضين لمن ينصت جيدا.. ويشتم بقلبه جيدا.

كان محمود ينتهك صمت تلك الأرض بمجرفته عديمة الذوق، فيحرب بها تلك المساحة الصغيرة ليزيح ترابها المتفكك. كل شيء هناك قادم من الأزل. ومُصّرٌ على البقاء إلى الأبد. كشجرة صنوبر صامدة بوجه قوة السماء والأرض.

لم تكن هناك نباتات عدا بعض شجيرات الأشواك المتفتحة هنا وهناك. مضت نحو ثلاث ساعات وما زال محمود يحفر بتلك المساحة القاسية. والتي لا تزيد عن مترين مربعين.

تهادت من منائر مدينة الحلة البعيدة أصوات المؤذنين. كانوا يرفعون أذان الفجر. كأن السماء تنسجم مع أصواتهم لتشكّل ذلك الفجر العراقي الفريد. ككل فجر.

لم يتبين الخيط الأبيض من الأسود بعد..

أشهد أن لا إله إلا الله..

أشهد أن لا إله إلا الله..

أعياء محمود التعب وهو يغوص إلى كتفيه في ذلك المكان الذي حوّل إلى حفرةٍ جاور
تل أحشائها من التراب. أدخل مصباحه الكهربائي معه إلى العمق. لم يعد الضوء
ليُرى من خارج حفرتة ابدأً. لعمقها ولضعفه. فقد بدأت المدخرة باستنفاد معظم
طاقتها.

بدأ يحفر بركة. لا لشيء. سوى لما جناه من خبرة بحوثه السابقة. ولتعبه الشديد
من ذلك الحفر الشاق.

انطلق يزيح التراب بيديه محاولاً إنهاء عمله هنا وظمر آثار فعلته قبل بزوغ الفجر.
يجب أن لا يبدو المكان مقتحم البكارة من قبل مغتصبٍ مثله. لا خوفاً من جيشٍ
منحل أو قواتٍ أمنٍ هزيلة. بل كي لا يعثر مغتصبٌ آخر على دليل على وجود أمتارٍ
قليلة يُشعرُ محتواها غاصبها بالنشوة إن عثر عليها.

أشهد أن محمداً رسول الله..

أشهد أن محمداً رسول الله..

مثل ابن عرسٍ متمرس. ألقى بمجرفته وهو يلتهم أكبر قدرٍ من الهواء برئتين
متعبتين. بدأ يحفر براحتي يديه. وبأصابعه المتشققة. وكعجوز جنوبية حنينة.
نهضت السماء لترتدي عباءة ليلها السوداء مغادرة. كأنها تقول عبارة العجائز
الراحلات..

(نسلم عليكم)..

أشهد أن علياً ولي الله..

أشهد أن علياً حجة الله..

أذان المذهب الشيعي يتردد في سكون آفاق المنطقة، وسماء بروحية لا توجد إلا في العراق، ذلك هو الفجر في بابل.

فجأة، لمست أصابعه شيء صلب، شيء ناتئ كجلمود أخفته أياد بائدة تحت طمي تلك الأرض. أغمض عينيه فرحاً، تلمس حافات ذلك الشيء وأزاح بأطراف أصابعه التراب من حوله، وجه نور مصباحه الذي خفت حد الاحتضار إلى صيده، كانت راحتاه قد أزاحت الغبار عن وجه ذلك الشيء، وبدأ النور ينعكس على النتوءات الغربية المنحوتة على وجهه كعالم تشرق عليه الشمس.

حي على الصلاة..

حي على الفلاح..

كان الجسم مستطيلاً بشكل عمودي، أمسك محمود مجرفته الصغيرة وغرسها حته، بدا كل شيء فيه ينبض بالإثارة، ركز المجرفة، فارتفع نصف الجسم بسمكه البالغ نحو ثلاثة سنتيمترات كاشفاً حته تراباً خالط غباراً بشرياً يوماً ما، إلا أن نصفه الآخر كان على حاله على التراب، تحسسه محمود، لقد كان الجسم مكسوراً عرضياً من الوسط، كقطعتي دوميونو تكمل إحداها الأخرى.

الله أكبر.. الله أكبر..

مد راحة كل كف تحت أحد النصفين، ورفعهما نحو وجهه بوداعة، كان كمن يرفع توأمًا في أولى لحظات حياتهما، نظر إليهما بحنو، وقربهما من خديه ملامسا إياهما، غارقاً بألف أمل عن جدوى العثور عليهما، جسم واحد.. بنصفين..

بذلك الهدوء، بذلك الأمل.. بتلك السماء، وذلك الأذان.. وببابل تلك..

اخترق كل شيء هناك صوت صارخ..

صوت طلقة نارية..

لا إله إلا الله..

الفصل 5

باريس 2022 .

خارج مطعم اللوفر، وعلى إحدى الطاولات التابعة له، كان البروفيسور ميشيل ليون بانتظار فرونسوا فانسو. لقد حلت الساعة السادسة مساءً الآن.

كان ليون بمعطفه الصحراوي الطويل جالساً وإلى جانبه حقيبته السوداء حيث يحتفظ بأوراق محاضراته وجهازه اللوحي الذكي. دقائق من الانتظار، وتوقفت سيارة أجرة على قرب.

ترجل من السيارة شاب ضخم يبدو في مقتبل الثلاثينات، فارغ الطول وذو عينين زرقاوين لامعتين وبشرة تميل إلى الحمرة. كان شكل فانسو أشبه بأشكال رجال المصارعة، إلا أن وجهه هذا المساء بدا متعباً.

اقترب فانسو من طاولة البروفيسور ميشيل، سحب كرسيًا وجلس أمامه ملقياً التحية بحاجبين ارتفعا لوهلة، وعندما استقر جالسا قال: "المثروب!".

ابتسم ميشيل الذي بدا ضئيلاً أمام ضخامة صديقه القديم، وأشار إلى النادلة طالبا مشروب صاحبه المفضل، غادرت لجلبه، وانحنى البروفيسور نحو فرونسوا.

"كيف هو الديب ويب معك؟"، ابتسم فرونسوا وأجاب: "بدأت أشعر أنني دراكولا. لا أستطيع النوم دون أن أرى دماً حقيقياً طازجاً يهرق على الشاشة".

ضحك ظاهر ميشيل، لكن داخله كان يعج أسفاً لضحايا فرونسوا على الديب ويب.

"صديقي"، قال ميشيل، "هناك ألف موضوع على تلك المواقع اللعينة، تجارة سلاح، أعضاء بشرية، مخدرات، قرصنة، أليست كلها بدائل جيدة عن موضوع القتل المباشر الذي تشاهده؟".

”هل طلبتني لتلقي علي المواظ بروفيسور؟“، رد فرونسوا منزعجا.

شعر ميشيل بأن عليه الدخول في صلب ما يحتاجه، وبعد أن عادت النادلة بقنينة البراندي والأفداح، بدا فرونسوا أكثر راحة.

”فرونسوا“، قال ميشيل.

”مم“، رد وهو يصب المشروب في الكأس.

”أريد منك أن تبحث عن شيء جديد كالذي عثرت لي عليه قبل عام“.

”حجارة ذات خرابيش ققط!“، قال فرونسوا وجرع مشروبه.

”نعم“، رد ميشيل. ”حجارة بخرابيش ققط. أي شيء تعثر عليه أرسل لي صورته أو أية تفاصيل قد جدها عنه، وإن حصلت عليه وبدأت بدراسته لنشر بحوثي. سيكون عليك أن تترقب الصحف لتكتشف حصولي على التكريم والجوائز، عندها سأدفع لك ما نتفق عليه ما سأحصل عليه“.

جثشاً فرونسوا وقال: ”النصف“.

رد ميشيل: ”الربع“.

أجاب فرونسوا: ”الثالث“.

اتكأ ميشيل، وهز رأسه موافقا.

أغلق فرونسوا القنينة لأخذها معه وقال: ”سأرسل لك كل ما أجده على الديب ويب من تلك الأحجار. فأنا لا أجيد قراءة الخرابيش. ستختار، وتقرر، وتفضل ما بوسعك لتربح التكريم والمال، وتبعث لي حصتي منه“.

أوماً البروفيسور ليون موافقا، ليترك صاحبه يغادر مع قنينة شرابه.

كان ميشيل يدرك بأن قدراته الحاسوبية لن تستطيع اختراق مواقع الديب ويب الخطرة ليصل بها إلى مراده. فقراصنة الحسابات على تلك المواقع التي تشكل السواد الأعظم من الشبكة العنكبوتية يتلذذون بالاستيلاء على حسابات المستخدمين الجدد. إلى جانب أنه كان يخشى الأجراف وراء المواقع القذرة تلك. حيث القتل المباشر الذي يشارك المستخدم فيه ومشاهد اغتصاب الأطفال والتعذيب أمام الكاميرات وتجارة البشر والآثار والعقاقير. بل تعرض فيه حتى خدمات القتلة المأجورين حول العالم إضافة إلى العديد من الممنوعات الخطيرة الأخرى. فمجهولية المعلومات على تلك الشبكة تتيح تداول كل ذلك دون إمكانية تعقب من قبل سلطات الجريمة الإلكترونية الدولية.

شعر بأنه أوكل المهمة إلى الشخص الصحيح. ونهض لدفع الحساب و المغادرة. بينما كان فانسو قد استقل سيارة أجرة إلى منزله في إحدى ضواحي باريس.

الفصل 6

مسكا كاميرته عالية التقنية. كان الرجل الخمسيني يلتقط الصور للقطعة التي وصلته بيد ليليان. واضعا إياها على وسادة بقماش أحمر فاخر. وإلى القرب منه. كانت الفتاة جالسة ساقا على ساق وهي تنظر في مرآتها الدائرية الصغيرة وتضع أحمر شفاه جذاب.

”ماذا فهمت مما كتب عليه دومينيك؟“. زمت شفاهها معجبة بهما.

أجاب وهو يحاول التقاط صورة جديدة. ”نص غريب. كأنه يتحدث عن شيء آخر. رحلة إلى مكان.. لا أعرف!“.

نهضت بعد أن وضعت أغراض التجميل في حقيبتها ووقفت إلى جواره. ”باعتبارك قارئاً لهذه النصوص واستاذاً متقاعداً. بكم تقدر قيمته؟“. قالت.

سحب دومينيك نفساً وأطلقه. ”أربعمائة ألف يورو“.

فغرت فاهها مصدومة: ”تمرح!“.

نظر دومينيك إليها بحاجب مرفوع وأكمل: ”فمبلغ المائة ألف الذي قدرته سابقاً لا يعطيه حقه“.

أحنت ليليان رأسها جانباً وتخصرت. قالت له: ”إذن. اقرأ لي ما هو مكتوب (بروفيسور)!“.

جلس دومينيك بعد تردد قصير على كرسي يقابل الطاولة التي وضعت عليه القطعة. وضع نظارته وأمسك عدسته المكبرة. نظر له عن قرب وقرأ النص المسماري المكتوب عليها:

من باب بابل. ملكة ذي الجهات الأربع..

نحو مغيب الشمس..

يكون الرحيل..

كسعفةٍ تقتلعها الريح بعيداً..“

رفع نظارته ومسح عينيه، "إنه متعب للقراءة ليليان. قرأته مع نفسي قبل قليل. سأريح عيني قليلا قبل أن أقرأه من أجلك".

"مم"، قالت، "هل اكتملت جلسة التصوير؟". رد دومينيك: "تقريبا".

"متى سترفعه على الإنترنت؟".

أجاب: "فقط بعد أن أقوم بالتعقيم على باقي النص. سأترك بضعة أسطر فقط واضحة للتشويق للشراء".

ردت وهي تحمل حقيبتها: "حسنا. ستبقينا الأربعمئة ألف يورو على قيد العمل لسنوات. شكرا لخبرتك دومينيك!".

همت بالخروج من المتجر الصغير. إلا أن دومينيك صاح قائلا: "أيتها الطائشة، إلى متى ستبقين تنادينني باسمي؟!".

لوحث بأصابعها الأربعة له وقالت: «Bye papa».

الفصل 7

بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ولم يكن فرونسوا فانسو قد قرر ترك حاسوبه بعد، عليه أن يحاول العثور على ما طلب البروفيسور ميشيل ليون، فإيجاد ما يطلب أسرع. يعني إمكانية الحصول على المال أسرع.

تنقل بين روابط الديب ويب كثيراً. وبالأخص تلك التي تخص القطع النادرة المهرية، سيكون العثور على قطعة على الديب ويب أصعب من العثور عليها بيد أحدهم في شارع بباريس لكثرة ما يعرض على تلك الشبكة المرعبة. أما تنقل القطع المهرية في الشوارع فهو أسهل بكثير. فقوانين الدول لا تمنع تداول تلك القطع بين الأفراد بشكل مكشوف. سوى أنها تطاردهم في حالة وصول وشاية من إحدى البلدان أو معلومة تفيد بأن تلك القطعة مطلوبة من قبل دولة ما.

استفز فرونسوا المرور على الروابط المتعددة، فهو يريد أن يلجم نفسه هذه الليلة عن مشاهدة ما يحب رؤيته على الأنترنت العميق هذا، كي لا يفقد المزيد من الوقت بعيداً عن المهمة التي أوكلها إليه البروفيسور ليون، ورغم أنه يشاهد تلك المواقع بشكل متردد، إلا أن المرور بها الآن هو أمر يجب مقاومة إغرائه.

أغلق صفحة أخرى لم يجد عليها ما يبتغيه، طقطع عظام رقبته التي تحجرت على حالها منذ ساعتين، سوى بعض الحركة إلى الوراء عند تناوله الشراب ليعود بها مقابلاً الحاسوب بعينين متعبتين.

مهما حاول الابتعاد عن تلك الشاشة، وجد نفسه أمامها، إنه مكان يضح قذارة رغم كونه افتراضياً، هو يعلم بأن أحد أسماء هذه الشبكة هو الـ(Dirty Web) أو الإنترنت القذر، لكن ما المانع من استخدامه؟ هو لا يستخدمه لوحده! فهناك ملايين المستخدمين المسجلين على الأنترنت السطحي، فيما ينضم هو إلى الذين يشكلون أضعاف أولئك من يستخدمون الأنترنت العميق، فكر بذلك حين مرر الصفحة على عدد من الروابط، كل ما يعاني منه هو شعوره بالإدمان

على استخدامه. إدمان أشد من جرعة الهيروين أو لفافات الحشيشة. ما الذي يجبر الإنسان على الإقدام على أمر خاطئ يرنو إليه بأقدامه وبإرادته؟!

كيف لذلك الوحش القابع بداخلنا أن يجرّنا من نواصينا لننكب على الخطيئة ونقبل أقدامها. خاضعين متوسلين. منتشين من موقفنا ذلك. ودافعين عن عقولنا مجرد التفكير بأننا نسجد أمام خطيئة!

ماذا يمكن أن يحل بالعالم أكثر ونحن سكانه نذهب هكذا نحو الشر مخيرين. أو مسيرين. نسير إليه كروبوتات أو قطعان ماشية أو فوج من العساكر المندفعين نحو الهاوية بأغانٍ وطنية ذات ألحانٍ مهيبّة.. وجوفٍ فارغٍ!

هذا الكم من التفاعلات الكيميائية التي تتكون في عقولنا. إلى أين سيصل بنا ونحن نسكب عليها كل يوم ألثراً من محاليل الكراهية وحب رؤية الموت والدم. أو حب خرق كل متفقٍ عليه؟..

”فرونسوا!“. نادى به صوت مبحوح ما تبقى من حنجرة ضميره..

(بإمكانك الإقلاع عن المشاهدة.. والاكتفاء بالاستفادة من خبرتك في هذه الصفحات لهدفٍ جنّي منه مالاً)..

إلا أنه كان مخدراً. أو ثملاً.

لم يكن يعي من أين يأتي الصوت. أو ماذا يريد. كل ما يعرفه أن ربعاً فقط من زجاجة البراندي قد تبقت. وأنه ثمل الآن. وأنه نعسٌ جداً ومتعبٌ.. وأنه...

لن يكف عن الديب ويب.. أبداً!

ترأى أمام عينيه التصارعتين مع جفونهما صورة مربع على الشاشة.. ترابي اللون.. وعليه خرابيشٍ قطط.. وقد تم التعطيم على باقي تلك (الخرابيش) من قبل رافع الصور. كان اللوح قد وضع على وسادة من قماشٍ أحمر فاخر..

اتسعت عينا فرونسوا. وعاودت توربينات دماغه العمل مجدداً.

الفصل 8

بابل 2003 .

كان ما يزال الأفق يصدو بصوت تلك الرصاصة التي اخترقت هدوء سماء بابل. كانت واحدة فقط. تبعنها أضواء متحركة. ومقتربة بحذر من المكان الذي كان فيه.

تكور محمود على نفسه داخل الحفرة التي بدت أنها ستصبح قبره عن قريب. بعد أن أطفأ وشل مصباحه الميت أصلاً. حشر نفسه في إحدى زوايا تلك الحفرة. منتظراً اقتراب أولئك المسلحين الغرباء أكثر. لتنتهي تلك اللحظات من الرعب التي يعيشها الآن..

وإن كان بقتله.

سمع أصواتاً تتعالى. يبدو أنهم كثير. لم يفهم أبداً ما يقولون. ارتعب وهو يمسك بما وجده بكلتي ذراعيه. ود لو أصبح جزءاً من جدار تلك الحفرة. اقترب الصوت أكثر. أضواء في الفضاء فوقه تلوح هنا وهناك. أقدام تقترب. وشعاع ليزر أحمر يتحرك جنوباً وغرباً. ذلك ما كان يراه من داخل الحفرة ناظراً إلى أعلى..

كانت التربة تسلم الأمتار الواحد تلو الآخر لأقدام أولئك. وكلما اقتربوا أكثر. كان محمود يحاول أن يوقف حتى أعضاء أحشائه عن العمل كي لا تصدر صوتاً.

فوق التراب. كان رجل بعينين زرقاوين يبدو كروبوت لكثرة ما ارتدى من المعدات. يقترب. رافعاً سلاحه الـ M16 بوجه الأفق. ويسير بخطوات حذرة جداً.. متبوعاً باثنين من رفاقه..

اقترب من تلة التراب المجاورة للحفرة التي كان محمود يستجير بجدرانها. على بعد أمتار فقط. وجه مصباح بندقيته عليها وأشار بقبضة يده لرفاقه ليتوقفوا. فالتلة تعني حفرة قريبة قد يكون الصيد فيها. خطأ خطوة أخرى. ثم وبلا سابق إنذار..

زخت بندقيته وبندقيتا رفيقيه الرصاص كسيل من الموت المتواصل. باتجاه واحد.
كزئير لبوة أصيبت بطلق صياد..

أطلقوا عدة رصاصات لثوانٍ.. ورفعوا بوقت واحد أصابعهم عن الزناد..
ساد صمت قاتل. ثم تعالت أصوات ضحكاتهم وصرخاتهم الشبيهة بأصوات
الكاوبوي وهم يمتطون جيادهم.

صاح أحدهم :

Oh yeah! we have two right now!

استداروا وعادوا جميعاً من حيث أتوا وهم يقهقهون. إلى عجلة الهامفي التي
كانت على مسافة قريبة هناك. ركبوها وخرکوا مبتعدين. وولى معهم صوت
عجلات ذلك الرتل اللعين.

سمح محمود لرئتيه أن تزفرا بعد أن حبس هواءهما طويلاً. لقد زال الخطر. انتظر
دقائق قليلة أخرى ثم نهض مطلاً برأسه من الحفرة. كان الشروق قد بدأ بالحلول الآن.
نظر وراء حفرته. ليجد كلبين على مسافة من بعضهما وقد غديا جثثاً هامدة.
وضع نصفي الرقيم المكسور على حافة الحفرة. وتمتم شاتماً جورج بوش. وعبث
جنوده مع الكلاب.

الفصل 9

شعر ميشيل ليون بأزيز جهازه الذكي على المنضدة المجاورة لسريره. أفاق من نومته وتناوله بكسل ليفتح الخط.

”بروفيسور“، قال صوت ثقيل.

”فرونسوا“، رد ميشيل وهو يسترجع اتفاقه مع صاحبه.

”لقد عثرت على.. أرسلت لك صوراً على بريدك الإلكتروني. تستطيع مشاهدتها“.

نظر ميشيل إلى الساعة الليزرية التي كانت تنعكس على السقف بأشعتها الحمراء. الرابعة وخمس وثلاثون دقيقة صباحاً.

”حسناً سأفعل. وأعاود الاتصال بك“.

أغلق فانسو الخط.

فتح ميشيل بريده الإلكتروني من جهازه وقام بتنزيل المرفقات. ثم انتقل لمشاهدتها.

كانت الصور تظهر رقيماً طينياً كتب عليه نص مسماري مكثف وقد وضع على قماش أحمر فاخر. كبر ميشيل الصورة. وبدأ يقرأ ما كتب على الرقيم. فعمله كأستاذ في الحضارات العراقية القديمة في جامعة السوربون أجن جنونه للبحث عن المزيد من الأسرار عن تلك الحضارات.

من باب بابل، مملكة ذي الجهات الأربع..

نحو مغيب الشمس..

يكون الرحيل..

كسعة تفتلها الريح بعيداً...”

اتسعت عينا ميشيل هو يقرأ تلك الكلمات الأولى من الرقيم. إلا أن باقي النص كان قد تم التعطيم عليه من قبل رافع الصور على الديب ويب. لذا، لن يتمكن من معرفة كل ما عليه من نص.

شعر بضربات القصب البابلي الدقيق على جسمه قبل أن تكون على ذلك المربع الطيني الصغير. حَوَّل فوراً إلى الصورة التالية. كانت الصورة تحمل نصاً فرنسياً يشير إلى عنوان يقع في مبنى (LE LAVRE DES ANTIQUARRES) في العاصمة، على بعد خطوات من المطعم الذي التقى فيه بفرونسوا. لقد قام متجر (DOMINIK DES ANTIQUARRES) بالإعلان عن تلك القطعة كجزء مما بحوزته على موقع الديب ويب ونشر صوراً عنها لبيعها في مزاد للتحف النادرة والقطع الأثرية بعد عشرة أيام. لقد استخدم الديب ويب للإعلان عن قطعه الفريدة تلك. فالزبائن على تلك المواقع أكثر جدية في الشراء مهما كانت الأسعار. أكثر من المواقع العادية التي تحصد نسب مشاهدة عالية ولكن بجيوب أخف.

حَوَّل إلى الصورة الثالثة. كانت لورقة تبدو قديمة جدا من لونها المصفر ولون الخبر الباهت الذي عليها. إلا أنه ما يزال بالمقدور معرفة أنها تمثل عقد حياة تلك القطعة من قبل صاحبها.

نظر إلى ساعته الليزرية. سيفتح المتجر بعد الثامنة صباحاً. بإمكانه الخروج من الجامعة وزيارة المتجر لرؤية ما أحس أنه أعظم ما يمكن العثور عليه. ما زال هناك متسع من الوقت..

غطى رأسه ليعاود النوم. لكنه شعر بدوار بسيط تطور إلى إحساس بعدم الاستقرار. أزاح الغطاء عن رأسه..

لقد كانت مروحة سقف الغرفة تتأرجح يميناً ويساراً. أمسك بالفرش حوله والحركة تزداد..

كأن العالم يتحرك برمته!

سرعان ما توقف كل شيء، وبقيت المروحة تتحرك بتباطؤ..

حتى بدأت تستقر..

كان قلب ميشيل يخفق سريعاً لما حدث، لكن ما جرى كان واضحاً.

فقد حدثت هزة أرضية خفيفة.

* * *

مرت نحو عشر دقائق على حدوث هزة أرضية بسيطة في باريس.

قرب اللوفر، كان دومينيك قد استقل دراجته النارية مرتدياً بجامة نومه، مستعجلاً ومرتبكاً، الظلام ما يزال مخيماً. إلا أن حركة بدأت بالتزايد في شوارع المدينة مكسوة بمسحة من الذعر لما حدث من اهتزاز أرضي غير مسبوق.

حاولت الشرطة طمأنة الناس من أن ما حدث لا يعدو كونه هزة أرضية خفيفة، وأنه لم يكن كزلزال عام 1909 الذي أصاب جنوب فرنسا. كما أن بإمكانهم العودة إلى فراشهم بأمان. إلا أن دومينيك لم يكن مقتنعاً بما قالته الشرطة، أكمل طريقه إلى مبنى الأنتيكات مسرعاً، رصف دراجته وترجل راكضاً إلى متجره، مر بأروقة مبنى الأنتيكات الأنيق بسرعة حتى وصل إلى باب المتجر. فتح الباب ودخل مسرعاً، ثم توجه إلى الخزانة الخشبية القديمة التي وضع بها الرقيم الذي حصل عليه، فتحها وأخرجه من مكانه، نظر إليه، ثم إلى سقف المكان ورفوفه.. كل شيء على ما يرام.

كان قد خشى سقوط الخزانة والرقيم بداخلها، فهو لا يريد أن يراه محطماً بفعل هزة أرضية سخيفة، بدأ أن كل ما تحرك في المتجر بفعل الاهتزاز هو الأجراس المعلقة فوق الباب.

تناول علبة خشبية صغيرة ووضع الرقيم على قطعة من الأسفنج. ثم فتح خزانة حديدية في إحدى زوايا المتجر. وضع العلبة الخشبية فيها. وأقفلها. بإمكانه الآن العودة إلى فراشه في المنزل. رغم أنه يبدو قد خسر إمكانية النوم مجدداً بسبب ما حدث.

الفصل 10

لم يستطع البروفيسور ميشيل ليون أن يعاود النوم بعد مشاهدته للصور التي أرسلها له فرونسوا على بريده. كما أنه لم يستطع ذلك بسبب الهزة الأرضية الخفيفة التي ضربت المدينة قبل قليل. إلا أن جل ما كان يستحوذ على أفكاره هو ما وجده فرونسوا من أثر قديم معروض على الديب ويب. كان ليون يفكر في كيفية الوصول إلى ذلك الأثر والاطلاع عليه لدراسته ونشر بحثه عنه. شعر بأن ما وجده فانسو يستحق العمل من أجل الحصول عليه بشكل حقيقي.

ارتدى ملابس نومه وقام ماشياً في غرفته. ما زال الظلام مخيماً على باريس. إلا أن دوي صفارات إنذار سيارات الشرطة والإسعاف بدأ يتعالى في أعقاب تلك الهزة رغم أنها بدت له خفيفة التأثير. أشعل نورا خافتاً في غرفته وصب لنفسه كأساً من الماء. كان تفكيره يغوص بعيداً نحو المستقبل. وبدأ يحلم في أن يكون ما يحمله ذلك اللوح هاماً لمستقبله إن حمل باقي النص الذي عليه أمراً هاماً عن الحضارة البابلية. تناول الماء شارباً وعيناه على فاترينة غرفته المكتظة بقصاصات من صحف قديمة وصور لآثار عراقية هامة يوجد معظمها في متحف اللوفر. وضع قذح الماء ومر بعينه على تفاصيل ما خلف الفاترينة. قصاصات الصحف التي يعود بعضها إلى العام 1998 صعوداً إلى ما قبل سنوات قليلة. آخر القصاصات كانت لصحيفة من العام 2017 حمل خبراً عن اكتشاف هام في مدينة الموصل شمال العراق. أفصحت عنه العمليات العسكرية ضد ما كان يسمى تنظيم (الدولة الإسلامية). إذ أسفرت أنفاق (الدولة الإسلامية) ونسفها لجامع النبي يونس عن الكشف عن قصر هائل للملك أسرحدون. ملك الأمبراطورية الآشورية.

مسحت عيناه تلك القصاصات سريعاً. قصص مثيرة عن حالات عثور على آثار. ولقطات لأشخاص أخفيت أعينهم تم إلقاء القبض عليهم وبحوزتهم كنوز أثرية عراقية لا تقدر بثمن. وقصص أخرى عن محاولات إلقاء القبض على مهربين آخرين.

كان يستشعر هوسه يتعاضم أمام كنوز الحضارات العراقية. وباهتمامه يتزايد مع كل قصة عثور على كنز عراقي أو تخريب أثر في العراق أو تهريبه. أحس بأن شخصيته أصبحت مزيجاً من شخصية عالم آثار ومحقق كشرلوك هولمز في آن واحد لكثرة ما تابع قصص تهریب آثار العراق. خصوصاً قصص التهریب تلك التي حدثت بعد سقوط نظام صدام حسين في بغداد عام 2003 وامتدت لسنوات. وأهمها ذلك الخبر الذي نشرته صحيفة لُ فيغارو الفرنسية قبل أعوام قليلة، والذي كان ليون يراه من أبرز أحداث الآثار العراقية. حين أثارَت الصحيفة قصة مطولة بتحقيق صحفي عن تداعيات اكتشاف وتهریب أثر عراقي بارز. وكان الخبر تحت عنوان (الأثر العقيم).

تلك الأخبار كانت محط إعجاب واهتمام ليون. فقد وضعها في فاترينته بورقها المصفر. وبالنسبة لذلك الخبر - كأخبار أخرى- فقد اقتطعه ميشيل لوحده من الصحيفة واطعاً إياه خلف الزجاج..

كان حلمه يكبر كلما نظر إلى تلك القطع من الصحف. فهو ما يزال يأمل أن تحتوي إحداها ذات يوم خبراً عن اكتشاف مذهل يعثر هو عليه. لتنتشر صورته على واجهة صحيفة ذات يوم. كمكتشف ومحلل فرنسي لأثر عراقي هام. وليضع الخبر الذي ستنشره عنه تلك الصحيفة إلى جانب أخبار أخرى تقبع الآن في فاترينته وهي تحمل صورته، والتي كانت قد نشرت قبل عام خيراً عنه. حين قام بتحليل أثر عراقي مذهل أصبح حينها مثار اهتمام صحف فرنسية وعالمية..

مرت الدقائق. وهو ما يزال يفكر بما يمكن أن يحمله اللوح الذي عثر عليه فانسو. عاود فتح جهازه المحمول والنظر إلى الصور..

من باب بابل.. ملكة ذي الجهات الأربع..

نحو مغيب الشمس..

يكون الرحيل..

كسعفةٍ تقتلعها الريح بعيداً..

الفصل 11

دخل الرجل المثلث بكوفيته البيضاء والسوداء إلى داره المتواضعة في أطراف المدينة. أغلق الباب فسمع تعالي صوت العجوز في الغرفة وهي جالسةً وسطها على سجادة مزخرفة بزخارف إسلامية. كانت ترتدي السواد من رأسها إلى قدميها. لم تشأ أن تقطع صلاتها. لكنها رفعت صوتها أثناءها مستنكرةً عودة ابنها المتأخرة تلك. لم تلتفت إليه. بل انحنت ساجدة.

جلس محمود على أريكة خشبية صرّت تحت وزنه المتعب. أمارط اللثام عن وجهه وسحب نفساً. كاد يموت هذه الليلة برصاصات أمريكية قاتلة. إلا أن كلبين كانا قد أرديا بدلاً عنه.

أنهت أمه صلاتها والتفتت إليه. كانت المسبحة السوداء بيدها تططق غاضبةً هي الأخرى.

”أين كنت؟“. قالت وشفاهها تعاود التسبيح.

”في العمل مع جبار ابن الحاج محروس“.

”عمل؟ أذن الفجر وبدأت أصلي عندما دخلت! محمود. غياباتك الجديدة تسرق النوم مني يا ولدي! ثم ما قصة الغبار الذي يملأ ملابسك؟ هل تحفر القبور يا محمود؟ أنت تعمل حفار قبور صحيح؟“.

تظاهر محمود بالغضب. وصعد إلى غرفته التي كانت الوحيدة في الطابق العلوي من الدار. فيما كان صوت والدته يتعالى. وأمام باب غرفته. كانت أعواد وأخشاب متناثرة في فسحة صغيرة صنع منها ورشة عمل أقفاص طيور زينة. لقد ترك العمل بتلك الورشة منذ سقط نظام صدام قبل أشهر. وما زال محتفظاً بأخشابه تلك على حالها. فما يجنيه هو مورد الآن يغنيه من جمع الخشب وطرق المسامير.

كان يجمع المال الذي يجنيه من عمله الجديد لينجز استعدادات زواجه التقليدي. فأمه مصرّةٌ على تزويجه. لم يبق لها غيره. بعد أن قتل الأمريكيون والده عندما كان في منطقةٍ زراعيةٍ قريبة أثناء الحرب. حين احتوت تلك المنطقة على معدات عسكرية عراقية أصيبت بقنبلة من الجو وكان الرجل بقربها. فأردته معها.

أغلق الشاب ذو السبعة وعشرين عاماً باب غرفته خلفه. وجلس على سريره الخشبي المتهالك مع بزوغ ضياء الفجر. رفع قميصه وأخرج من تحتها لفافة قماشٍ أبيض متسخ. وضعها على السرير وفتحها. ونظر إلى ما تحتويه..

كان اللوح الأثري المكسور من المنتصف إلى شطرين ملوئاً بالكتابة المسماة الدقيقة. لم يبدُ أن الكسر قد ضيع الكثير مما عليه من كتابات. سيفي بالغرض على أية حال. رغم أن محمود لم يعلم أن كان اللوح قد كسر أثناء الحفر بفعل مجرفته. أم أن السنين قد دفنته هكذا.

ابتسم بدهشة عندما كان يحدق إليه. لفه من جديد ووضعه في صندوق خشبٍ قديمٍ وحشره أسفل السرير الخشبي الذي تمدد عليه. وغاص في حلمٍ إيصاله إلى هدفه واستلام مالٍ سيفتح الدرب له نحو زيجته القادمة..

سيستبدل سرير الفرد الواحد هذا بسريرٍ لشخصين.. قريباً..

باريس

التاسعة صباحاً.

شاقاً طريقه بسيارته الرينو ذات الدفع الرباعي. توجه البروفيسور ميشيل ليون إلى مبنى الأنتيكات بعد أن خرج بعذر مختلق من السوربون. كانت باريس تعج بحركة سيارات الشرطة والإسعاف والدفاع المدني تحسباً لأي طارئ، عقب موجة الرعب التي اجتاحت سكانها بفعل الهزة الأرضية أواخر الليلة الماضية. رصف سيارته قريباً، ومشى نحو مدخل مبنى الأنتيكات. مر بعدة أروقة بعيون تتنقل بين لافتات أسماء المتاجر كمؤشر الزلازل.

”متجر دومينيك للأنتيكات“.

وقف أمام بابه. سحب نفساً عميقاً ثم دفع الباب داخلاً. فأصدرت الأسطوانات أعلى الباب رنينها.

كان رجلٌ خمسيني بعينين زرقاوين جالساً خلف فاترينة عرض. وإلى القرب منه. وقفت فتاة عشرينية على أطراف أصابع قدميها لترتيب أحد الرفوف بأغراض بدت لقدمها كأنها تؤدي كورالاً من القرون الوسطى. التفتت الفتاة إليه حين سمعت رنين الأجراس. فيما رمقه الرجل بنظرة فاحصة.

”مرحباً“، قال ميشيل.

رد دومينيك: ”تفضل“.

تنحى البروفيسور قبل أن يبدأ الحديث. فيما نظرت له ليليان بمصعدين نزلاً على طولها وارتفعاً مجدداً.

”بصراحة أنا البروفيسور ميشيل ليون من جامعة السوربون. متخصص في آثار حضارات ما بين النهرين القديمة“.

احتدت نظرة دومينيك. فيما تركت ليليان ما بيدها وهمت مقترية.

”لقد اطلعت أمس على قطعة تقومون بعرضها على الديب ويب. أنا بحاجة لرؤيتها“.

لم تتحرك عينا دومينيك عنه. أكمل مجاملا:
”تبدو ثمينة!“.

نظرت ليليان لوالدها وقد ظهر بالون علكتها من بين شفاهها قبل أن ينفجر.
قال دومينيك: ”القطعة ليست للعرض. بروفيسور. سننتشر بحضورك المزاد
ليبعها في الوقت المحدد“.

”أنا أقصد إن كان بالإمكان قراءة النص الذي عليها كاملا وهي بحوزتكم. أعني
هل بإمكانني الاطلاع هنا!“.

أغمض دومينيك عينيه وهز رأسه: ”للأسف بروفيسور هي ليست هنا. أعني.
أنها في مكان آخر. أكثر أمناً من وجودها تحت سقف قد يطحنها إن اسقطته هزة
أرضية لعينة“.

”طيب“. قال ليون شاعرا بالاستسلام.

”آسف بروفيسور“. رد دومينيك. ”ستراها يوم المزاد“.

شعر ميشيل بدفقة من الحرارة تملأ دماغه. وبأن جلده بدأ يستغيث لشدة
التشوق للممس ذلك اللوح.

”بكم سيفتح؟“ قال.

”خمسون ألف يورو“. ردت ليليان بنظرة شتر.

تراجع كل ما في ميشيل من إرادة. فالمبلغ الابتدائي أكبر من مرتب أشهر بالنسبة
له. أحس بالضعف أمام موقفه ذاك. لقد انهار حلمه تماما.
”حسناً شكراً“.

استدار محاولاً الهروب من مواجهته مع من بديا كأسد ولبوة في متجر أنتيكات
صغير. رنت الأسطوانات أعلى الباب وتواري ميشيل عائداً نحو الرواق.

”بابا“. قالت ليليان. ”هل رأيت التشوق في عينيه؟“.

وقبل أن يجيب، انفجرت ضحكاً وقد انحنى جذعها. بدت متلذذة بامتلاكها أثراً وجوده بحوزتها أضعف بروفيسوراً في السوريون لدرجة الفشل من أول محاولة. التفت إليها دومينيك بنصف ابتسامة. ثم وضع عدسة أحادية على إحدى عينيه وأمسك بخاتم فضي بزخارف ليتتبع بؤبؤه الأزرق ما نقش عليه.

في غمرة فرحتها، توقفت ليليان عن الضحك. ثبتت عينها على باب المتجر لوهلة. ثم تناولت حقيبتها واتجهت نحوه.

لم يرفع والدها عينيه. لكنه صاح قائلاً: "إلى أين؟". أجابت بنبرتها المتهورة "قريباً". وأكملت "دومينيك!".

أغمض الأخير عينيه هائلاً رأسه. لا ينفع الكلام مع تهور ابنته تلك.

خطت قدماً ليليان سريعاً على أرضية الرواق. تتبعتها حتى باب الخروج من مبنى الأنتيكات. لمحت ميشيل متوجهاً إلى سيارته. اتجهت نحوه. إلا أنه كان قد استقل الرينو وأدار المحرك. فيما حالت سيارة إسعاف بينه وبين الفتاة التي غضبت عندما أضاعت أثره.

راوغت ليليان محاولةً تفادي سيارة الإسعاف واللاحاق به. لم يكن هناك مجال. فالشرطة والمارة على الأرصفة منعاهما من الولوج بينهم نحو ميشيل. تفوهت بألفاظ نابية مع نفسها على سائق الإسعاف. وعندما تجاوزتها ونظرت من بينها وبين السيارة التي تسبقها. رأت الرينو تتحرك مغادرة مكانها إلى الشارع الثاني. لن تلحق به. فقد أصبح ميشيل على مجرى طريق سالك.

ضغط البروفيسور على دواسة الوقود لالتهام المساحة الفارغة من الشارع قبل أن يصل إلى عقدة سير تنبئ بانفراج قريب. فكر في أمر اللوح. لن يستطع شراءه بذلك الثمن الباهض. بل إنه لم يفكر حتى في ذلك. كان جل تفكيره ينصب على مجرد تحليل النص الذي عليه والمادة التي تكون منها وما يخصها وهي بحوزة صاحب المتجر. كما حدث مع اللوح السابق الذي حصل عليه العام الماضي عن

طريق تنقيبات فرونسوا فانسو على الديب ويب. ليحلل النص الذي يحمله عندما سمح له من اشتراه بدراسته في الجامعة. إلا أن الشغف بما وجدته على اللوح الجديد دفعه لمحاولة التعرف عليه لدى حائزه وتحليل بنيته الجيولوجية أيضاً. لتصطدم رغبته تلك بجدار من أوراق العملة.

شعر بالتعب من التفكير. لن يستطيع التعرف على التفاصيل الجيولوجية لذلك اللوح دون أن يسقط بيده. دون أن يمر تحت كاشفات مختبرات السوربون وأجهزة السونار وأجهزة الكاربون 14 المتخصصة بمعرفة عمر النصف للأشياء. فبدون كل ذلك لن يتمكن من كشف الستار عن سره. فهو يحمل نصاً غريباً يدفع المرء إلى قراءة ما وراءه بشيق.

تناغمت أفكار ميشيل الصامته مع الصمت داخل الرينو المتوقفة بانتظار انفراج عقدة السير تلك..

هدوء مطبق..

قبل أن تدوي ضربتان سريعتان.. ويختض دمه فزعاً..

الفصل 12

كانت ليليان تفجر بالون علكتها أمام نافذة سيارة البروفيسور ميشيل ليون بعد أن طرقتها مرتين. أنزل البروفيسور زجاج النافذة ونظر إليها مستغرباً. أحنت الفتاة رأسها وأمالت جسدها على باب السيارة ناظرة إليه..

”أتريد اللوح؟“. قالت بأنفاس لاهثة. وبلع ميشيل ريقه فاندفعت تفاحة آدم أعلى عنقه النحيل..

”وي“. أجاب. ابتعدت ليليان عن الباب واستدارت حول السيارة. فيما كانت عقدة السير تباشر الانفراج. فتحت الباب واستقلت المقعد المجاور لميشيل الذي ضغط دواسة الوقود.

كان عطرها الـ hypn ôse يملأ أركان رئتيه. فهي حسناء متهورة بعينين تخملان جمال فرنسا ومكر أعين ققطها. مددت ساقها على بعضهما واتكأت على المقعد. ثم أخرجت علبة مستحضراتها وأنزلت مظلة الشمس لتعكس المرأة التي خلفها نظرتها الحادة. بدأت تضع أحمر شفاهها بلا مبالاة فيما كان ميشيل يحرق منذهلاً.

”أنت لا تملك المال صحيح؟“. قالت وزمت شفيتها ليستقر أحمر الشفاه عليهما. ”تقريباً!“. بلع ريقه وأكمل: ”إلا أنني أشعر بأن علي أن أفكر بطريقة ما توصله ليدي“. أغلقت هي المظلة وأخفت علبة مستحضراتها في حقيبتها. التفتت إليه بكل جسمها وقالت: ”ماذا إن سهلت عليك المهمة؟“. كان وقع تلك الكلمات على أذنيه صادمًا.

”كيف؟“.

”أوصله ليديك. دون أن تدفع سنتا واحداً“.

شعر ميشيل بالعرق البارد ينز من مساماته كلها. ماذا تريد هذه الفتاة بالمقابل؟
”مقابل بسيط“.. ردت. ومدت يدها نحو ربطة عنقه لتشدّه إليها. أشعل

ميشيل إشارة اليمين بسرعة وأوقف السيارة.

”ماعلاقتك أنت باللوح؟ ماذا تريدین؟“.. قال بنبرة حادة..

أفلتت ربطة عنقه بسلاسة. وتغيرت نظرتها نحوه إلى أكثر حدة. ثم مدت يدها إلى
مقبض الباب. وهمت بفتحه.

”أنت لا تريد اللوح“. وفتحت الباب. ”ولا الحسنات!“.

التفتت لتنزل من السيارة. إلا أن ميشيل أطبق على معصمها الأيسر بشدة.
”توقفي!“.

نظرت إليه. والتفتت بهدوء. سحبت الباب وأغلقتها.

”تحدث.. بروفيسور!“، قالتها مستخفة. أجاب: ”اشرحي لي كل شيء. أنا جاهز لما
تطلبين إن كنت تستطيع توفيره. شرط ضمان وصول اللوح لي“.

ابتسمت بانتصار. ”أنا ليليان ابنة دومينيك مالك المتجر. القطعة تخص كلينا.
أقصد أن ما تريده يقع تحت سيطرتي تقريباً“.

خفق قلب ميشيل حتى كاد يحرك قميصه على صدره.

”ما المقابل ليليان؟“. قال ميشيل. أجابت: ”قدّ فحسب“.

نظر البروفيسور إلى ساعة يده. عليه العودة إلى السوريون بأسرع ما يمكن. إلا أن
ذكاءها رد على لغة جسده.

”هل لديك موعد أهم؟“. أجاب وهو يتناول نقاله: ”سأعالج الأمر“.

رن الهاتف الذكي على طاولة البروفيسور جاك روند في السوريون. كان ميشيل.
وقد قال له بأن هناك أمر هام يخص كلاهما سيطلع البروفيسور روند عليه لاحقاً.

وطلب من الأخير أن يرتب أمر تغييره مع إدارة الجامعة، فوافق بامتنان.

مرت عشر دقائق قبل أن تتوقف الرينو أمام مبنى من ثلاث طوابق في أحد أفرع العاصمة باريس برغبة من الفتاة، أطفأ ميشيل المحرك وتبعها إلى داخل المبنى. توقفاً أمام مصعدٍ بابه ذو لون ذهبي، ضغطت هي على زر استدعاء المصعد، ولفت طول اظفرها المطلي باللون الأحمر نظر ميشيل.

ثوان وفتح باب المصعد.

استقل الاثنان الكابينة، ضغطت على الرقم 3 وأغلق الباب.

لم يدر أي حوار في تلك الحجرية الحديدية الضيقة، كان الصمت مطبقاً، عدا صوت فرقعة علكة ليليان بين شفتيها والتي أحدثتها ثلاث مرات قبل فتح باب المصعد وكأنها عداد طوابق، خطا الاثنان إلى الممر، وبخطوات قليلة تبع بها ميشيل الفتاة، وصلا إلى باب شقة، وضعت الفتاة مفتاحاً إلكترونياً في الشق المجاور له، ودفعت الباب داخلة، كان الظلام مهيمناً على أجواء المكان أمام بؤبؤي ميشيل، قبل أن تنير ليليان المصابيح، وما أن استجمع ليون الصورة أمامه، حتى كانت الفتاة قد أغلقت الباب وراءه.

كان المكان قائماً بألوانه الكئيبة والصارخة، وتفوح منه رائحة الشمع المحترق، جدران مطلية باللون الأحمر وأخرى بالأسود، رؤوس حيوانات منحطة على الجدران، وجلودٌ أخرى ممددة على الأرض كسجاجيد، كرسي ملكي ذو ظهر طويل وبمسندين تزين نهايتهما جماجم حديدية، سلاسل معلقة على الجدران، ولوحات بالأبيض والأسود لمخلوقات متوحشة.

بدا المكان كقبو تعذيب من قلاع أوربية قديمة.

دمدم فؤاد ميشيل لما رأى، فيما ضغطت ليليان على زر جهاز صغير بيدها، ليقفل باب الشقة مصدراً صغيراً قصيراً.

مشت إلى أريكة بوسط المكان. خاطيةً فوق جلد نمر حقيقي ممتد على الأرضية حيث تركت كعب بوتها الطويل يعيث فيه تنقيراً. جلست على الأريكة ولفت ساقاً على الأخرى.

”ألن تدخل؟“ قالت وهي تشعل لفاقة تبغ من علبة كانت على طاولة جنبها. اقترب ميشيل بأولى خطواته. لكنها قاطعته: ”قفا!“. تسمر في مكانه. ”أخلع حذاءك أولاً. ولا تمش على سجادتي المفضلة“... وأشارت بمقدمة حذاءها إلى جلد النمر على الأرض.

فعل ميشيل ما طلبته. واقترب من الأريكة التي جلس عليها. إلا أنها نفثت دخان سيجارتهما وأشارت إليه بالجلوس على كرسي منخفض أمامها. جلس ليون وهو غير مدرك لما تقوم به تلك الفتاة غريبة الأطوار. فهي التي لحقت به قبل قليل. والآن هي تأمر. وهو ينفذ.

”أتعرف يا (ميشيل)؟ كل امرئ في هذا العالم يحب أن يمتلك أشياء. أوضاعاً. أناساً. مخلوقات.. أي شيء لصالحه. أنت مثلاً تحب أن تمتلك حجراً عمره ألفين وخمسمائة عام لترضي حاجتك بامتلاكه. والدي يحب أن يمتلك النفائس قبل أن تذهب لأيدي آخرين سيمتلكونها برغبة التملك اللعينة تلك نفسها. الدول تحب أن تمتلك أرضها وأراضي الآخرين. الكلب يحب أن يمتلك تلك العظمة التي لن يفرط فيها بها حتى إن شعر بالشبع“.

أسقطت رماد سيكارتها في منفضة إلى جانبها ومجت اللفافة. وأكملت: ”كلنا نحب أن نرى أنفسنا ممتلكين لغيرنا. أو لما نحب على الأقل. نحب أن نرى أنفسنا أعلى من غيرنا. قد تتسائل عن سبب شرائي لشقة في أعلى أدوار المبنى. لكن هذا هو السبب. أحب أن أكون في الأعلى. ليعيش الآخرون تحت ظلالتي. ويستمعون إلى طقطقة كعب حذائي نابعة من الأعلى. من الأعلى فقط. أترى هذه الحيوانات المحنطة يا ميشيل؟ إنها تفقد روحها فقط لأننا نحب أن نزين بها جدراننا. إكسسوارات فقط. ذلك أيضاً حب تملك. أما النمر الذي تحت قدمي. فقد فقد

حياته هو الآخر. فقط لأشعر بأني أمشي عليه، سواءً بحذائي، أو حافيةً لأتلمس خضوعه بين أصابع أقدامي. تملك آخر! أليس من حقي أن أملك كما تحب أنت أن تمتلك لوحاً طينياً مسروقاً من أمة مغلوب على أمرها؟ أنت تصارع الآن لأجل كنزٍ شعبي عانى ويعاني، لا يهتمك أمره، يهتمك كنزه فقط!..“

كان ميشيل يستمع إلى كلامها باستغراب عميق، لم يبد أن تهور هذه الفتاة وطيشها الذي رآه هو جانب آخر لشخصية تمتلك كل تلك اللباقة. وتورد كل ذلك الكلام من جعبة يبدو أنها تحوي المزيد...

”إنها الأنانية يا ميشيل، السادية أو السايكوباتية، إنها فينا جميعاً بمقادير متفاوتة، حتى أهدافنا النبيلة، أحياناً نركض نحوها لأنها ترفعنا، ترفعنا عن الآخرين الذين نريدهم أن يبدو أدنى شأنًا منا، الأعلى، الأعلى دائماً، حيث لا نريد أن يظأ غيرنا أرضاً نمتلكها نحن. كما لم أرد لك أن تطأ نري الذي أمتلكه أنا، وكما تريد أنت أن تملك اللوح، حيث تحصل على تقديرٍ وتشريفٍ لا تريد أن تسمح لغيرك بأن يناله...“

رفعت يدها إلى فمها وأخرجت علكتها راميةً إياها في المنفضة وتابعت التدخين..

”أنت تستغرب كلامي لأنك تفكر فيما تريده لنفسك حينما ترى اسمك على الصحيفة كبروفيسور فرنسي يفك شفرة لوح مسماري بابلي فريد لتحصل على إعجاب العالم، أمسكت بيدي حينما أردتُ النزول من السيارة، فقط لأنك تريد الحصول على اللوح محاولاً تغيير اتجاه الأحداث، الأحداث التي يجب أن تتسلسل منتهيةً بوضع اللوح بيد من يدفع أكثر، حاولتَ لا إرادياً سلب ذلك اللوح من يد مشتريه ليصبح في يدك عن طريق الرضوخ لما سأطلب، لم تفكر حتى فيما سأطلب، كان همك هو الصعود فقط... إلى الأعلى..“

حب التملك يا ميشيل هو واقع منذ الأزل، نحن نعمل لنحصل على المال، معرضين أنفسنا لأن نكون ممتلكين من غيرنا مقابل تلك النقود، ثم نحصل عليها لنشتري بها ونمتلك أناساً آخرين، أو نمتلك تعبههم في صناعة أشياء نريد أن نمتلكها، مقابل

تلك النقود أيضاً. ألا ترى أننا جميعاً أملاك بعض؟ لن يقدم لك أحدهم كوباً من الماء دون أن تدفع. هو يمتلك بكوبه، وأنت تملكه بمالك. لا شيء مجاني! كما أن اللوح الذي أردته، لن يكون مجاناً“.

بدا ميشيل كأنه نسي صوته لطول إنصاته لها. لكنه نطق أخيراً: ”قلت إنك ستحظى به دون دفع سنتا واحدا!“. أطلقت ضحكة طويلة ترددت في المكان وقالت: ”المال لا يشتري كل شيء يا عزيزي، هو تأشيرة تملك فقط. أو نظير الأشياء الثمينة التي لا يمكن التعبير عنها إلا به، وفي حال أردنا الحصول على ما نريد بدونه، فذلك سيكون أشهى“.

”ما الذي تريد منه ليليان؟“ قال.

”قل لي أولاً ماذا يعني لك ذلك اللوح؟“.

أطلق ميشيل تنهيدة طويلة ثم أجاب: ”كل شيء!“.

الفصل 13

من باب بابل..

مملكة ذي الجهات الأربع..

نحو مغيب الشمس..

يكون الرحيل..

كسعة تقاتلها الريح بعيداً..

مرت تلك الكلمات أمام ميشيل كعنوانٍ تلفزيوني فرعي. لكن باللغة البابلية. وبالكتابة المسمارية.

شعر بأنه يجب أن ينصاع لما تطلبه ليليان. لكن ليس قبل أن يضمن حصوله على ما يريد.

”لو افترضنا أنني..“ بلع ريقه أكمل. ”أنني قدمت لك ما تريد. رغم أنني لم أعرف حتى الآن ما هو. كيف سأضمن وصول اللوح؟“

أجابت الفتاة بنصف ابتسامة: ”ما الضرر عندما أكون قد أخذت غايتي منك. وأخذت أنت ما تريد من اللوح. وحصلت أنا ووالدي على المال في الآن ذاته؟“

علت وجه ميشيل إمارات الاستغراب. كيف يمكن حدوث ذلك في وقت واحد؟
”إلى جانب أنك لن تخسر شيئاً من جيبك. ولا عملك. ولا أي شيء مادي آخر. سوى تنفيذ ما أطلبه منك!“

لم يزل ينصت إلى مدارات العبارات المتداخلة تلك. وختمت ليليان ما قالت: ”وما أطلبه منك ليس سوى.. طاعتي!“

ضاق اتساع عيني ليون فوق أنفه الذي يبدو كمقدمة سفينةٍ مقلوبة. ”بمعنى؟“ أجابت: ”أريد أن تفهم أنني أعشق السيطرة على الشريك وممارسة هيمنتني الأنثوية عليه لفترةٍ محدودة. وإن حصلتُ على طاعته، أعطيه ما يريد..“

بقي دماغ ميشيل متوقفاً لدى كلمة ”شريك!..“

”أرجو أن تفهم ما أريد جيداً. لا أحب العلاقات الجنسية مع بروفيسور قد يراني مثلاً عراقياً قديماً لشدة تعلقه بتلك الأشياء. لكن أحب أن أرى ذلك البروفيسور..“ ونظرت إلى ساقها: ”ذليلاً أمامي!..“

خفق قلب ميشيل بشدة..

كيف جرّو فتاة بعمر طالباته على الكلام معه بتلك الوقاحة!

نهض وعدل ربطة عنقه. ”سمعت ما يكفي يا...“

”بإمكاني السماح لك بالخروج،“ قالت ملوحةً له بجهاز قفل الباب الإلكتروني، لكنك لن ترى اللوح مجدداً. كن واثقاً.“

شعر بأنه مكبل من كل الجهات. قد يذهب اللوح لمن يسمح لمنافسيه برؤيته وخليله. فغابة السوربون التي يتصارع فيها الأساتذة على الاكتشافات الأثرية وخليلها لن تكون رحيمةً معه. وإن إمكانية الحصول على فرصة خليله بعد بيعه تبدو ضئيلة. سيما أن القطعة ستباع بمزاد علني. سيتسابق الأساتذة للحصول على موافقة المشتري لفحص القطعة وخليلها. ولن تكون له فرصة كبيرة بينهم. لقد حدث العام الماضي أن حصل هو على موافقة المشتري لفحص قطعة مباحة في حينها. لكنه بذلك. أهاج مياه الانتقام والغيرة الراكدة لدى زملائه. إلى جانب أن خطوة إقناع المشتري التي قام بها نبهت الآخرين إلى تلك الطريقة بشكل أكثر جدية. وأصبحوا جميعاً يتحينون الفرص للحصول على قطعة بعد أن تباع في مزادٍ جديد..

بقيت عيناه متسمرتين على الفتاة التي راحت تنظر إلى أظافر يدها الطويلة وتهز ساقها بلا مبالاة. بإمكانه الخروج وخسارة كل شيء. وسيربح احترامه، أو أنه سيفقد ذلك الاحترام أمام امرأة واحدة. ويربح اكتشاف العام..

تذكر ما قالته له: (كلنا نريد الوصول.. إلى الأعلى)..

بإمكانه الوصول إلى الأعلى، فقط إن جعل تلك الفتاة السادية أعلى منه...

”اضمني لي إمكانية حصولي على اللوح“...

رفعت ليليان عينها. ”ستحصل عليه وسيصل إليك إلى السوربون. وأعد بأن أجعل خضوعك أمامي سراً بيننا“.

”إلى السوربون؟“، قال منذهلاً.

”بلى! لدي طريقة لجعله تحت سيطرتك للفترة التي تريد، هل يعجبك ذلك؟“.

كان ميشيل يبدو كشجرة صنوبر في غرفة مفرغة من الهواء. لم يتحرك منه شيء. سوى علامات ذهول على وجهه عكست صدمته لما قالت. بلبل شفاهه بلسانه. قد تكون على حق، فهي تعمل في هذا المجال وتعرف كيفية إدارة الأمور..

”حسناً“، قال بعد لحظات صمت. ”كم من الوقت سأبقى هنا؟“.

قلصت جفني عينها وقالت: ”ساعتان في اليوم. وإن أعجبتني طاعتك سأجعل اللوح يباع قبل أن يحدث المزاد. وسيصلك حينها مباشرة“.

حاول أن يدير الأحداث في ذهنه ليتعرف إلى الكيفية. إلا أنه كان غارقاً بما يسمع ويرى.

لم تترك له ليليان مجالاً للتفكير أبداً..

”حسنٌ، وإذا بدأنا الآن، متى سننته؟“...

أجاب: ”ساعتان. بعدها ستذهب إلى المنزل. وفي الصباح. سأحرك لتنفيذ الخطوة الأولى من خطة بيع اللوح قبل حدوث المزداد. وفي المساء ستكون عندي لساعتين. وهكذا حتى يصبح اللوح في طريقه إلى السوربون. عندها ستصبح حرا. إلا أن أعجبك الحال!“. وأطلقت ضحكة عالية كانت ناقعةً بالغنج.

كانت بأحمر شفاهها وشعرها المنسدل وجلستها المستفزة في غاية التناقض مع طلبها الغريب. لقد سمع ميشيل عن حالات حب التملك والسيطرة الأنثوية على الشريك. إلا أنه ليس شريكاً البتة. وباعترافها هي..

نظرت إليه بعينين تغوران جدية. ” الآن.. اركع!“.

مستسلماً لقراره وإرادتها. ركع ميشيل أمام الفتاة وقلبه يخفق باضطراب. لن تنفعه عضلاته الرجولية أمام جبروت امرأة تمسك بنجاحه بيد رقيقة وذات إرادة من فولاذ. كانت تنظر إليه كسجين تحت رحمة سجان يحب التسلي به في ساعات الدوام الرتيبة. قدمت ساقها نحوه حتى أوشكت على ملامسته. ” اخلع الحذاء!“.

بدأ استغرابه من أوامرها يتقلص. لقد فهم ما تريد وعليه التنفيذ. أمسك بوتها الطويل ليسحبه برقة عن قدمها. وضعه جانباً وقد بدأ يراقب نظرتها المستمتعة. وضعت قدمها العارية على جلد النمر أسفلها وقربت ساقها الأخرى. ثوانٍ. وكانت بقدمين عاريتين.

قدمت جسدها نحوه وأمسكت بربطة عنقه. شدتها إليها ونظرت بعينيه. قالت همساً: ”تذلل لي بروفيسور. اركع. اسجد. كن تحت رحمتي. أريد أن أراك تتوسل شفقتي صاغراً“.

لم يتردد ميشيل أمام ما طلبت منه. سجد بين قدميها وهو يحاول إشعارها بالألوهية التي تبحث عنها. كان يستمع إلى قهقهاتها المجنونة وهي تمرر أصابع قدمها على ظهره. تسائل مع نفسه إن كان سبب صنع تلك الشخصية جينياً أم هو نتيجة أحداث بيئية متراكمة..

أم هو مجرد جنون..

نهضت ليليان واقفة فيما كان هو ساجداً. وضعت قدمها على ظهره. وبدأت بخلع ثيابها ورميها على الأرض..

فجأة أحس بثقل جسدها على ظهره. لقد جلست عليه جانباً ووضعت ساقاً على الأخرى. أشعلت لفافة تبغ جديدة وقالت: "أتشعر بهذا الوزن ميشيل؟ إنه وزن الطموح. عندما تريد الصعود. تذكر أنك يجب أن تحمل وزنين. وزن كهذا. ووزن الشارات واللآلقاب والجوائز التقديرية التي ستحصل عليها. وللوصول إلى الثانية. عليك حمل الأولى. تحمل يا عزيزي فنحن لم نبدأ بـ...".

كان ميشيل يسحب أنفاسه بصعوبة وهو يريزح تحت وزن فتاة جلست طويلاً على ظهره. كان راکعاً فيما كانت هي غير مبالية لما يجري له. نهضت وانحنى نحوه. أمسكت ربطة عنقه وبدأت تسير به إلى عمق الشقة. فيما كان هو يتبعها..

على أربع.

توجهت به صوب إحدى المرايا الطويلة المغطاة بقماش أحمر خفيف. كانت تسير كصياد جاء بطريدته. قالت وهي تُزيح القماش عن المرأة: "هل قرأت أواخر (مزرعة الحيوان) بروفيسور؟ هل تذكر ما قاله جورج أورويل في تلك السطور؟ لقد قال بأن المخلوقات خارج الغرفة كان تنظر إلى ما هو داخلها. فتنقل ببصرها بين الخنازير والرجال الجالسين معاً. بين الخنازير والرجال. والرجال والخنزير. والخنزير والرجال مرةً أخرى. لكنه كان من المستحيل التمييز: مَنْ كان مَنْ؟!".

بدا ميشيل وهو يجرد أنفاسه وينظر إليها واقفة أمامه. حاول استذكار وفهم ما ذكرت إلا أنها تخلصت ونظرت إليه مجدداً:

"لأجل المصالح العمياء. يصعب التمييز بين المرء والخنزير. وها أنت الآن تمشي على أربع كخنزير يا بروفيسور. فقط من أجل (المصلحة).."

وأطلقت ضحكة غزيرة بالانتعاش.

الفصل 14

مرت ساعة و40 دقيقة تفننت فيها ليليان بإخضاع ميشيل بكل الوسائل. لقد عرت صدره وغرزت كعب حذاءها فيه بينما كان ممداً على الأرض. أرغمته على مسح طلاء أظافرهما واستبداله بلون آخر. كل ذلك وهي تكييل له سيل التوصيفات المهينة والشتائم المذلة. كان ميشيل واقفاً على خط حياض بين كونه مهاناً أمامها وكونه يشعر برغبة جنسية عارمة لما يرى من مفاتن جسدها العشريني البض..

لكنها لن تعاشره. قالت له ذلك. وقالت إنها تريد منه أن يشعر بتلك الرغبة دون أن تسمح له بإطلاقها. فذلك جزء من الإثارة التي تبحث عنها. لذا، أطلقت العنان لجسدها العاري أمامه لإثارته وحرمانه لاحقاً..

وذلك فصل من فصول اللعوبة..

متعبةً مما فعلت. جلست على الأريكة لتدخن آخر سكاثرها بحضوره. أمرته بأن يلملم ملابسه ويرتديها. وأن يخرج مغادراً. وكررت عليه الوعد بقرب حصوله على اللوح.

غادر البروفيسور ميشيل ليون راكباً سيارته الرينو وقد شعر بألم في ظهره وصدره من غرزات كعب حذاء الفتاة عليهما. كان منذهلاً مما حدث. قاد سيارته بجسد ينزُّ عرقاً بارداً ومشاهد الإذلال التي تعرض إليها تتفافز أمامه..

ربما! كيف يمكن لفتاة رقيقة أن تحتوي كل تلك الرغبة بالامتهان؟!

كان ينظر إلى المارة في الشارع وسائقي السيارات. كم من هؤلاء يخفون ظاهرياً؟ كم من العجائب تدور خلف الأبواب المغلقة؟ إنها طبيعة النفس البشرية. الكتمان في العلن. والإفشاء في السر. حيث يفشى كل محذور. كل ما يراه البعض غريب الأطوار والمعالم. كل ما يراه الدين والعرف والقانون غير طبيعي. بل يراه الطب أحياناً حالات مرضية. كلها أسرار. لن يفصح عنها أحد إلا للجدران. لكن.. من الذي يصنف الأمور على أنها طبيعية أو غير طبيعية؟ من يدري. قد يكون كل ما

يعرّف على أنه "غير طبيعي" هو الأمر الطبيعي بحد ذاته. لكن الكتمان جعله يبدو قليل الظهور. وبالتالي أصبح (شاذاً) بنظر الناس..

النفوس وحدها التي تدري بما بداخلها..

استعاد ما مر به خلال يومين من جديد..

ليليان وفرونسوا فانسوا!

الاثنان اللذان يعبثان بالآخرين لمتعتهما الشخصية وإرضاء غرائزهم الغريبة. وهو الآخر الذي صنفته ليليان على أنه أناني يحب الظهور والتفوق على غيرهم بطرق ملتوية.

ليست هناك أهداف نبيلة..

لقد كانت الساعتان اللتان مرتا درساً. درساً لبروفيسور في السوريون من فتاة طائشة. أو أنه ظن أنها كذلك!

ظاهر آخر عكس باطنه. لقد اعتقد فقط أنها طائشة ومتهورة. فيما أعطته هي محاضرة في خفايا النفس الإنسانية قبل أن تأمره بخلع حذائها. كان مصدوماً باستجابته هو الآخر لما أمرت. ولسماحه لها بأن تفعل به ما تريد..

صغر الكون بعينه لكثرة تساؤلاته. وبقي كذلك. حتى وطأت عجلات سيارته مرآب منزله.

في شقتها. كانت ليليان قد أجرت اتصالاً للتو مع أحد المقتنين الأثرياء لتلك النفائس. أخبرته بأن هناك قطعة أثرية عراقية ستعرض للبيع في مزاد علني بعد أيام. وأنها تفضل أن يحصل عليها بدلاً من عرضها في ذلك المزاد. طال اتصالها نحو عشر دقائق أفنعت بها الرجل بأهمية الحصول على القطعة وأيجاد طريقة لثرائها. أغلقت الخط. واتصلت بدومينيك الذي عارض ما فعلت في البداية. إلا أنها

أقنعتة لاحقاً ببيعته للرجل بسعر مقارب لما يمكن الحصول عليه في مزاد المقتنيات. كانت تدير الأمور بحذق، إصرارها على أوصول اللوح لميشيل كما وعدته ومجّاحها بذلك أمر يرضي غرورها. فهي تريد الشعور بأن كل شيء يقع ضمن إرادتها. وإن تنفيذ ما وعدت به براحة وسهولة يعكس أمام شخصيتها الداخلية تمكنها وسيطرتها على إدارة الأمور.

كان يوماً مريحاً للغاية بالنسبة لها. وهي تحصل على كل ما ترغب من الآخرين.

في الصباح. كانت ليليان تقلب بيدها ورقة العقد المرفقة باللوح والتي تحمل اسم صاحب القطعة الشرعي. إلى جانب وصل الشراء الذي أبرمه دومينيك مع الوريث الذي باعه إياها. عثقت ورقة العقد القديمة برائحتها التي اكتسبتها منذ قرن. حيث سجل صاحبها عضو حملة التنقيبات اللوح لدى مؤسسة فرنسية رسمية كملك شخصي.

”دومينيك!“ قالت.

”كم تعتقد أن السيد شوفينمان سيدفع باللوح؟“.

أجابها وعيناه تمران على أسطر كتاب قديم: ”يجب أن لا يدفع أقل من 400 ألف يورو“ وأكمل. ”وإلا سأذهب لعرضه في المزاد“.

كانت عينها قد انتقلت لمجاراة ميل الثواني في الساعة الأثرية المعلقة على الجدار. التاسعة صباحاً. يجب أن يصل شوفينمان بعد ساعة من الآن ليجري الحديث عن بيعة اللوح.

”مم. هل تعتقد بأنه سيسمح بدراسته في السوربون مثل العام الماضي؟“.

نظر دومينيك إليها. ”لماذا؟!“.

ابتسمت بمكر“ لا تكن أنانياً بابا. أنت تقرأ المسمايات كما تقرأ رواية الغثيان لسارتر. أما أنا فمتعطشة لفهم ما نقش على هذه القطعة. لذا أتمنى أن تتم دراستها هناك“.

”حسناً، وعاد ينظر في الكتاب. “السيد شوفينمان يبدو أكثر تعطشاً منك، أراهن بأنه سيبحث به إلى السوربون لتحليلها. إلى جانب أنه يجب التباهي أمام الجامعة بما يمتلكه من القطع“.

شعرت ليليان براحة نسبية لما قال. ألقّت نظرة سريعة على الساعة من جديد.

58 دقيقة متبقية.

بعد قليل. سيصل ذلك الثري متبوعاً باثنين من مساعديه. سيتأكد من القطعة بفعل خبرته وخبرة من معه. ثم سيشتريها بعد تفاوض قصير مع دومينيك دافعا أعلى ما يمكن أن يصل إليه مزاد العرض. ستحذف صورة اللوح من على الديب ويب ليتحول إلى ملكية شوفينمان الشخصية. وستتوسط ليليان لاحقاً لديه للسماح للبروفيسور ميشيل ليون بدراسة ذلك اللوح في السوربون ونشر بحثه عنه. على أن يعود إلى خزانة الرجل مرة أخرى حال الانتهاء من دراسته وحسب الاتفاق.

كانت ليليان تعلم بأن القطعة ستكون عديمة الفائدة بالنسبة لميشيل لو أنها كانت مسروقة من العراق بعد العام 1970. فاتفاقية اليونسكو لذلك العام تمنع أية دولة من التعامل بشكل رسمي مع أية قطعة أثرية مسروقة أو تراثية أو تاريخية بعد تاريخ توقيع الاتفاقية كتعامل الدراسة والتحليل دون إعادتها إلى موطنها الأصلي. فليس باستطاعة اللوفر أو السوربون أو المؤسسات المهتمة الأخرى دراسة قطعة مهربة بعد العام 1970 ونشر البحوث عنها. لأن ذلك سيعرضها إلى مشاكل مع الملحقية الثقافية لبلد القطعة الأصلي. إلا أن أمرا واحدا فقط يمكن أن يسمح بدراسة تلك القطع ونشر البحوث عن نتائج دراستها بشكل مشروع: الإرث العائلي المسجل.

فهي تعلم أيضاً. أن ما أجن جنون ليون هو العقد المرفق بالقطعة، والذي يؤكد أنها إرث عائلي مسجل دولياً باسم أحد أعضاء الحملات الفرنسية للتنقيبات الأثرية التي حدثت في العراق وسوريا قبل وأبان وبعد الحرب العالمية الأولى. حيث كانت تلك الحملات تسمح لبعض أعضائها من الأثاريين بحيازة قطع تذكارية بشكل مشروع من مجموع ما يعثر عليه في الحملة. ل يتم تسجيلها لاحقاً وفق سند يحتوي على إثبات بأن القطعة أصلية وأنها منوحة للأثاري وفق موافقات رسمية. لقد منحت تلك البعثة هذا الرقيم لذلك المنقب الفرنسي قبل نحو قرن. ثم ورث القطعة أبناء ذلك المنقب وأحفاده. حتى وصلت إلى أحدهم وكان مقيماً في الاسكندرية بمصر. وعندما انتقلت بوفاته إلى أحد أبنائه من لم يرغبوا بالاحتفاظ بها. عرضها على متجر دومينيك باسم صاحبها المنقب كمالك شرعي لها إضافة إلى اسمه كوريت شرعي. وعندما أوصلتها الباخرة أوكتوبوس إلى مرسيليا كانت ليليان نفسها بانتظارها. لتعرضها بسعرٍ فخم على ثري الآثار ذلك. وحقق ربح متجر والدها.

لن تمنع فرنسا الآن دراسة القطعة في مؤسساتها الرسمية. طالما هي إرث عائلي مسجل باسم منقبٍ فرنسي عمل مطلع القرن العشرين في حملات تنقيب عن الآثار بين ماري السورية وبابل العراقية السحيقتين.

في تلك الليلة. تحرر لوح بابلي غامض من خزانة حديدية في متجر أنتيكات دومينيك في قلب باريس منتقلاً إلى يد أخرى. كانت يد رجلٍ شغوفٍ للغاية. حيث وجد اللوح مالكة الجديدي. وبعد يومين. سيدخل بين جدران واحدة من أعرق الجامعات في العالم.

الفصل 15

بغداد

تموز 2003

وجد محمود نفسه وسط رجال مسلحين يحيطون به و يتفحصونه بأعينهم. كانوا يرتدون ملابس عسكرية غير موحدة ويحملون بنادق الكلاشنكوف. بدأ النظام بينهم عسكريا بشكل لافت. من طريقة توجيه التعليمات وأجهزة اللاسلكي التي يحملونها.

اقرب أحدهم منه. أمسك الكيس القاسي الذي في يده وفتحته. ونظر بداخله ليعثر على كيسين من النايلون وقد لفا على حجرين كل على حدة. تلمسهما بيديه ثم أعادهما إلى مكانهما. كان محمود. الشاب البسيط. غارقا بين نظرات هؤلاء الرجال الذين يبدو عليهم المكر من أعينهم شذرا. ورغم أنه يفترض بهم عدم إيذائه. إلا أن ابتسامة خائفة كانت تبدو على وجهه منهم حين كانوا يفتشونه ويحيطون به.

أخيرا. ربت أحدهم على كتفه وأشار له باتباعه. دخل محمود من باب منزل فخم في حي الخارثية الراقي في كرخ بغداد تابعاً أحد أولئك المسلحين. مر بحديقة منزلية فائقة الجمال تحيطها النباتات الظلية باهظة الثمن. مشيا بضع خطوات. حتى وصلا إلى داخل المنزل. أروقة وأخرى. وفتح الرجل المسلح أحد أبواب الغرف الخشبية الفخمة أمام محمود وأشار له بالدخول.

كانت الغرفة واسعة وبستائر عالية تصل إلى السقف. بدت الإنارة فيها أكثر بريقا من أي منزل رآه محمود من قبل من الداخل. وحكى الأثاث عن قصة ثراء فاحش ورفاهية لم يرها ذلك الشاب في بابل كلها من قبل.

”أهلاً أستاذ محمود!“. قال الرجل الجالس وحيدا ببذلة رمادية اللون وهو يرفع عينيه عن جهاز كومبيوتر منضدي وضع أمامه. حيث كان يجلس على نهاية المنضدة الطويلة في الغرفة.

”أهلاً أستاذ، كيف حالك!“. قال محمود وهو يستكبر على نفسه لفضة ”أستاذ“ التي أطلقها الرجل قبل قليل، خُرك مطأطأ رأسه نحو الرجل، صافحه بتواضع واضح، فيما كان الكف الآخر يصافحه ببرود تام.
 خلع الرجل نظارته، ورفع ذقنه متكأً على كرسيه.
 ”بضاعته في المرة السابقة أثارت إعجابي حقيقةً، لئز ماذا جلبت لنا اليوم؟“. قال بنبرة هادئة.

ابتسم محمود، وراح ينبش كيسه الخشن ليخرج منه الكيسين الصغيرين.
 في هذه الغرفة، ينسى المرء الطريق الطويل بين بابل وبغداد، كما ينسى مشاهد الدمار الممتدة على طولها ما خلفته معارك الجيش العراقي مع قوات التحالف في آخر حروب سلطة البعث مع الغرب، إلا أن الأسهل في الطريق ذاك، وفي هذا الوقت، هو تمرير أي شيء من محافظة إلى أخرى بلا أي رقيب.
 أمسك محمود الكيسين الصغيرين، ووضعهما على الطاولة أمام الرجل، تناول الأخير أحدهما، وهم بتمزيق الكيس ليرى ما يحتويه.
 تكشف المحتوى شيئاً فشيئاً، وأصبح نصف اللوح البابلي عارياً بيد رجل متنفذ، دقائق، وكان النصفان يكملان بعضهما على طاولة الرجل.
 نظر الرجل إلى النصفين مصطفيين جنب بعضهما، لم يكن يعرف كيفية فهم ما نقش عليهما، تصرف وكأن الغنيمة لا تستحق الاهتمام، طرق على جرس كان على الطاولة ليدخل أحد المسلحين إلى الغرفة، قال له:
 ”ادفع إلى محمود مبلغ 1500 دولار، فذلك ما يستحقه هذه المرة“.

علت الابتسامة وجه محمود خجلاً، وخائب الظن في الوقت ذاته، فقد كان يحلم بمبلغ مضاعف، ورغم أنه لا يعرف قيمة ما يقوم بتسليمه الآن، إلا أن مبلغ الـ1500 دولار يبدو ضئيلاً على عملية حفر شاقة ومجازفة خطيرة، لكنه في الوقت

ذاته. يغطي بعضاً من تكاليف الزواج.

دقائق. ودخل المسلح يحمل مظلوماً في يده. سلمه محمود. وقاده نحو باب المنزل من جديد.

ما أن خرج. حتى اتسعت عينا الرجل على الأثر المكسور الذي أمامه. فرغم جهله بما يحمل من رموز. إلا أنه كان يعرف قيمته بالنسبة لمن سيبيعه له. حول نظره إلى شاشة حاسوبه المنضدي. نظر من خلال "فلتر" وضع على شاشته. وبدأ بكتابة رسالة إلكترونية.

في الخارج. لم يسعف محمود مستواه الدراسي القريب من الأمية لقراءة اللافتة الموضوعية على شرفة المنزل الفخم الذي كان فيه. كما أن شمس تموز كانت قد قلصت حدقتا عينيه. كل ما استطاع قراءته من تلك اللافتة كان كلمة:

"حزب..".

الفصل 16

عَمَّانُ 2003

كان السيد خليل الحسين المختنق بدانةً في مكتبه الخاص بإدارة شركة تجارة عامة تعود له، عندما تلقى رسالة إلكترونية من رجلٍ سياسة في بغداد.

”سيد خليل، أرجو أن تكون بخير..

وصلني لوح بابلي مكسور إلى نصفين، في حال أعجبك، سأرسل لك كل نصف على حدة براً، إن حدث مكروه لأحدهما سيصلك الثاني، الفرق بين وصول الأول عن الثاني يوم واحد فقط، في حال موافقتك، أرجو أن تحرك رجالك لاستلامه بعد عبوره الحدود.“

كانت المرفقات صورتين للنصفين، كل منهما على حدة.

حمّل السيد خليل الصورتين على حاسوبه البانتيوم 4، ثم وضع نظارته الطبية وراح يتتبع تفاصيل تلك الصور، لم يعر انتباهاً لبعض مقريه الجالسين معه في غرفة إدارة الشركة وهم يخوضون نقاشاً حول تأثير حرب العراق على عمل الشركة وإمكانية التصدير إليه بعد رفع الحصار عن البلد الجار بفعل زوال حكم حزب البعث، بل انكبّ على حاسوبه واضعاً كفيه السمينين على لوحة المفاتيح، وراح يجيب على الرسالة الإلكترونية.

إضافة إلى إدارته لشركة التجارة تلك، فقد استغل السيد خليل شرعية شركته ونقلياتها من وإلى العراق لغرض تجارة الآثار بعد أحداث النهب والحفر التي استعرت في المواقع الأثرية العراقية بعد الحرب، تلك التجارة تزيد من أرباحه بشكل كبير، إلى جانب أن الحدود العراقية محمية بشكل ضعيف الآن بعد شهور قليلة من حربٍ قضت على وجود قوات الحدود العراقية، أما نقل تلك الآثار، فتساعده فيه الطرق المتلوية التي يجيدها سواق الشاحنات العراقيون في نقل تلك القطع إلى الجانب

الأردني. وبعد عبور الحدود. لن تكون هناك مشكلة في حمل القطع باليد والسير بها في شوارع عمان. فليس هناك ما يمنع ذلك بشكل صارم.. حتى أعوامٍ تلت..

تلقى الرجل في بغداد رسالة إلكترونية بالموافقة. سيشحن النصف الأول غداً إلى نقطة طريبيل الحدودية. وبعد يوم. سيتم بعث النصف الثاني. ليتلق مبلغا مضاعفاً مراراً عما دفعه لمحمود عن تلك القطعتين.

باريس

كانت أروقة السوربون تعج برائحة المنظفات منذ الصباح الباكر. حيث الجامعة جاهزة لاستقبال مرتاديها بعد أن أجز عمال التنظيف عملهم اليومي.

كانت عربة من المعدن الفضي شبيهة بتلك التي تنقل بها الأطقم على متن طائرات الخطوط الجوية تدفع بيدين ترتديان القفازات متوجهةً إلى قاعة الدراسة والتحليل حيث ينتظر هناك البروفيسور ميشيل ليون وزميله البروفيسور جاك روند. وقف ليون متلهفاً لتلمس القطعة التي وافق السيد شوفنمان على بعثها للجامعة للدراسة والتحليل بعد أن اشترها من متجر دومينيك للأنتيكات بمساعدة ليليان.

بتلك العربة. وبعنايةٍ بالغة. كان اللوح البابلي يسير بين أروقة المكان بانتظار الوصول إلى قاعة التحليل تلك. بدا الأثر شاعراً بغرابة المحيط. لقد أنتزع من أرض العراق قبل أكثر من مائة عام لينتقل إلى الاسكندرية. وهو الآن في مكانٍ لم يعتد عليه. جدران مطلية وسقوف نظيفة وطرق إنارةٍ متطورة. لم تكن بابل كذلك. ولم تكن الاسكندرية المصرية كذلك أيضاً حين بقي فيها كل تلك المدة..

كان ذلك اللوح بين جدران الجامعة..

غريباً في السوربون..

الفصل 17

الأردن - بعد يومين

داخل الحدود الأردنية بنحو 100 كم. ركن السائق العراقي شاحنته المرسيديس على الطريق العام وترجل ليصافح شابين أردنيين قويي البنية كانا بانتظاره. عاد بهما نحو الشاحنة. ومشى مسافة أمتار. حتى وصل إلى الثلاجة الملحقة بالشاحنة والتي تقع أسفل فضاء الحمولة. فتحها بما يحمل من مفاتيح. وأخرج منها بضع قنن من المشروبات الغازية وقناني المياه المعدنية. وضعها على الأرض مؤقتا. ومد يده إلى الظهر الخلفي للثلاجة. تلمس مكانا يكفي لأربع أصابع أخفي بشكل متقن خلف قطعة شريط طبي لاصق تلاشى بياضه مع بياض الثلاجة الصغيرة من الداخل. اخترقت أصابع السائق الشريط وأمسك ذلك المكان ليسحب الغلاف الخلفي للثلاجة.

كانت القطعة التي أخرجها تشابه إلى حد ما مكان التجميد في الثلاجات المنزلية. إلا أنها كانت خارج إمكانية التبريد بعد أن عطلها السائق لغرض استخدامها لتهديب القطع التي يطلب منه تهريبها عبر الحدود. حيث لا تصل أجهزة التفتيش وأيدي شرطة الكمارك إلى هناك في الحدود العراقية الأردنية.

داخل ذلك الحيز خلف الثلاجة. كانت علبة معدنية بأرقام سرية قد وضعت. أخرجها السائق ووضعها على الأرض. فيما جلس الشابان إلى جانبه.

لم يكن رقم قد عُين لقفلهما. فبمجرد أن انزلق مفتاحها الناتئ بدفع من إصبعه رفعت العلبة لسان القفل عن مكانه. لقد استخدمها للمحافظة على القطعة في الداخل.

فتح السائق العلبة التي كشفت عن كمية من القطن داخلها وقد لف بعضه على كيس من القماش يحتوي شكلا مستطيلا. وذلك لامتنصص الصدمات على طول الطريق.

فتح الرجل القماش عن القطعة، وبان ما عليها من كتابات مسمارية انقطعت عند الحد الأعلى للقطعة حيث كان كسر قد لحق بها من هناك. لم يتحدث الثلاثة مع بعض، سوى أن أحد الشباب هز رأسه للسائق بالموافقة.

أُعيدت القطعة إلى العربة وغادر السائق المكان مكملًا طريقه إلى إحدى المدن الأردنية، فيما توجه الشابان بالعربة إلى سيارتهما المركونة هي الأخرى، سيأخذانها إلى شركة خليل الحسين، ويكررا ما قاما به قبل يوم، حينما تسلما النصف الأول من اللوح بنفس الطريقة.

من باب بابل.. ملكة ذي الجهات الأربع..

نحو مغيب الشمس..

يكون الرحيل..

كسعة تفتلها الريح بعيدا..

كانت عينا ميشيل ليون تقرأ بالعين المجردة هذه المرة الكلمات الأولى من "خرايش القطط" التي نقشت على اللوح، لقد وقع أخيرا بين يديه تحت سقف مختبر التحليل في جامعة السوربون..

الفصل 18

بدأت عينا السيد خليل تتقافزان على مسامات النصف الثاني من اللوح الذي وصل بيد الشابين قبل دقائق بعد أن خلت غرفة إدارة الشركة من أي شخص آخر عدا الشابين. تأكد من خلف نظارته الطبية من أن هذا النصف هو ما يكمل النصف الأول الذي تسلمه يوم أمس والذي أرسله إلى إحدى خزائنه السرية.

بعد دقائق من تأمل القطعة، رفع هاتفه المحمول واتصل بابنه عماد. الرجل الطامح إلى إدارة شركة والده من بعده، أرسل بطلبه للحضور من إحدى شعب الشركة إلى غرفة الإدارة، ثوانٍ. وكان رجل في أواخر الثلاثينات قد دخل إلى غرفة الإدارة ببدلة سوداء.

”عماد، قال السيد خليل. ”هذه القطعة يجب أن تصل إلى خزنتك سريعاً“.

نظر عماد إلى القطعة على الطاولة، كانت ممتلئة بكتابات مسمارية متراسة، وقد كسر حدها الأعلى عن نصفٍ آخر.

”هل هي مكسورة؟“، قال.

”تبدو كذلك“. رد السيد خليل وهو يشيح بنظره عنها، فهو لا يريد لعماد أن يعلم أن هناك نصفاً آخر قد وصله أمس يكمل هذه القطعة.

”ما أريده منك هو نقلها الآن إلى خزنتك، و ممنوع التصرف بها إلا بموافقتي!“.

نظر عماد إلى والده مستهجنًا، فهذه القطعة تبدو هامةً لوالده البدين، هز رأسه موافقًا وهو يلفها بقطعة القطن التي جاءت معها في سيارة الشحن، حيث نقلها إلى خزانة صغيرة تمهيدا لنقلها إلى خزنته الخاصة.

لم يدر حديث آخر بين الأب وابنه، فقد غادر عماد غرفة أبيه متوجهاً إلى سيارته المركونة في باب الشركة وهو يحمل الخزانة الصغيرة من مقبض شبيه بمقبض

الحقيبة الدبلوماسية. وعندما كان قد غادر الغرفة. كان السيد خليل قد سحب نفسه عميقا.

إنه يعلم بأن عماد رجل يحب الترف. ولن يمانع بيع أي قطعة يحصل عليها والده للحصول على كسبٍ سريع. فيما يخطط هو لاحتكارها لوقتٍ آخر. حيث يصبح سعرها أعلى بكثير.

لقد أراد الرجل البدين أن يضع نصف اللوح فقط لدى ابنه. ولم يعلمه بامتلاكه نصفه الآخر. والذي يقبع إلى جانب قطعٍ عديدةٍ أخرى في خزنته الخاصة السرية بعيدا حتى عن أعين الابن. كان النصف الذي منحه لعماد بمثابة تجربة لصبره على عدم بيع ما بحوزته إلا في حينه المناسب. حيث سيكتشف السيد خليل صبر ابنه أمامه وأمام بعض القطع التي منحها إياه سابقا. بعد أن أعياه تبذير ولده.

فتح السيد خليل جهاز حاسوبه. ودخل إلى حافظة صور وضعها سابقا في أعماق القرص الصلب. نظر إلى صورة النصف الذي بقي في خزنته الشخصية. حيث أرفقها بملف كتابي يحمل تفاصيل ذلك النصف وتاريخ تسلمه.

تأكد من أن كل شيء على ما يرام..

وابتسم.

من بابل المنكوبة..

إبحار في الرمال..

صامتاً في الطريق..

قرأ البروفيسور جاك روند تلك الكلمات مع البروفيسور ميشيل ليون. فالأول يعمل مساعداً للثاني في قسم الآثار ذاك. كان النص ما يزال غامضاً في سرده المحفور على ذلك اللوح.

التفت ميشيل إلى جاك وقال: "من باب بابل، ملكة ذو الجهات الأربعة، يبدو أن تلك إشارة إلى ملك أكدي أو بابلي، كملك للجهات الأربعة".
رد جاك: "مم، لقب ذي الجهات الأربعة هذا أُطلق على أكثر من ملك في ميزوبوتاميا، نرام سين، وأور نمو، وربما غيرهم".

"نحو مغيب الشمس.. يكون الرحيل.. كسعة تقتلعها الريح بعيداً". تمتع ميشيل قارئاً باقي النص. "ما الذي يرحل نحو مغيب الشمس، وكسعة تقتلعها الريح إلى هناك!".

نظر له ميشيل وأكمل: "طالما هو يتحدث عن بابل -من لغته التي كتب بها- فليس هناك ملك للجهات الأربعة فيها سوى سرجون الأكدي".
ضحك روند وأجاب: "بالتأكيد"، وكرر اسمه بصوتٍ منخفض: "سرجون!".

"نحو مغيب الشمس.. يكون الرحيل.. كسعة تقتلعها الريح بعيداً". كان ميشيل يقرأ باقي النص. "ما الذي يرحل نحو مغيب الشمس، وكسعة تقتلعها الريح إلى هناك!".

تلمس روند الأثر بإصبعه الأبيض بفعل قفازه، "يبدو فريدا بروفيسور، إنه يتحدث بصيغة زمنية غريبة لا تدل على الماضي"، التفت إلى ميشيل وأكمل: "كسعة تقتلعها الريح بعيداً، يبدو التشبيه مقصوداً بأن ذلك الأمر الذي سيرحل من باب بابل، سيقتع عنوةً وقوة، فلا يمكن للريح أن تقتلع سعة من أشجار النخيل بسهولة!".

أجاب ليون: "نعم بروفيسور. يبدو كذلك، إنه يتكلم بتفاصيل دقيقة".

"إلى جانب أن الكتابة محفورةً عليه بوضوح بالغ"، رد روندي. "فإن ذلك يبدو استثنائياً. أتوقع أن يكون هذا اللوح ملكاً لمكتبة ملك أو شخصية هامة في ذلك الزمن. لقد اعتنى كاتبه به وبتفاصيل ما عليه من نص".

أمسك ليون عدسةً مكبرةً وبدأ ينظر من خلالها إلى النقش على اللوح. كانت الكتابة غاية في الدقة والوضوح. وكان النص محفوراً عليه بعمق يسمح بقراءته بشكل دقيق. قال: "من بابل المنكوبة.. إبحار في الرمال.. صامتاً في الطريق. أمر مستفزٌ فعلاً. لا أعلم إن كان يقصد بذلك إبعاد أحدهم أو مجموعة من الناس من بابل بالقوة إلى غرب المدينة الذي أشار له بعبارة نحو مغيب الشمس. لكنني لم أفهم حتى الآن ما قصد بعبارة إبحار في الرمال تلك".

أجاب روندي بعد تفكير قصير: "لا أعلم إن كان علي أن أتفق معك. لنفترض أن اليد الغربية هي حكم ملكٍ آخر إلى الغرب من بابل. هل يعني ذلك أن أحداً تم إبعاده من بابل تلك لوقوع المدينة تحت حكم يد غريبةٍ حكمه بعد رحلةٍ للخروج من هناك؟".

لم يجب ميشيل. كانت عبارة إبحار في الرمال عقدة يجب حلها بالنسبة له.

"قد تكون قريباً من القصد الذي يعنيه اللوح. لكن مجدداً. من ذاك الذي تقتلعه الريح بالقوة لتأخذه نحو مغيب شمس بابل؟!".

رد جاك: "يبدو أن كاتب النص تعمد كتابته بشكل شفراتٍ أو أنه نص يستخدم للسحر. أقترح أن نكمل قراءته. قد نصل إلى أمرٍ آخر يفسر لنا ماهية ذلك الذي جرى اقتلاعه كسعفة. وما المقصود بما تقتلعه الريح بعيداً".

كان ميشيل صامتاً تماماً وعيناه متسمرتان باستغراب على ضربات القصب التي تملأ اللوح. لم يقرأ نصاً بابلياً غريباً كهذا من قبل..

استذكر تاريخ اليوم، الثاني و العشرون من حزيران عام2022، اليوم وبعد كل هذا الزمن، يجد نفسه أمام نصٍ أراد أن يبعث به أحدهم قصدا من قبل 2500 عام بشكلٍ مشفر..
أدرك ليون أن ما حصل عليه..
يستحق العناء.

الفصل 19

عمان - بعد إحدى عشرة سنة

2014

مضى يومٌ واحد على مجلس عزاء إحدى أهم الشخصيات التجارية في المدينة. لقد رحل السيد خليل الحسين عن أربعة وسبعين عاما بسبب نوبةٍ قلبية كان لبدانته أثر فيها. رحل تاركا شركته للرجل الأول من بعده. ولده عماد.

كان عماد بانتظار أن ينتهي مجلس عزاء والده بأقرب وقتٍ ممكن. فهو يرى نفسه موفقيا بالتزامه تجاه وعده لوالده عندما لم يتصرف بالقطع الأثرية التي أودعها أبوه لديه. والآن بعد رحيل الأب. أصبح حرا في التصرف في تلك القطع.

لقد باع عماد عام 2003 بعض القطع لصديقٍ يعرفه. وحين علم والده بما فعل. طلب منه موبخا بأن يعده بعدم التصرف بالقطع حتى يطلب منه ذلك أو حتى يرحل عن العالم. والآن. رحل ذلك الاب.

في ذلك المساء. استغل عماد عدم قدوم عمال الشركة إلى فروعها بسبب الحداد على والده. فأمر بإغلاق كافة فروع الشركة لهذا اليوم. هو اليوم وحيدٌ في مخزن خاص داخل الفرع الذي يديره لمؤسسة والده التجارية. حيث تقع الخزنة الخاصة به في إحدى مخازن فرعه ذلك. بعيدا عن خزنة والده التي يفترض أنها آلت إليه الآن هي الأخرى.

أمام خزنته الحديدية الخاصة. كان جاثيا على ركبتيه وهو يخرج قطعه الواحدة تلو الأخرى منها في إحدى الغرف السرية المتروكة في إحدى المخازن. والتي لم يحاول أحد من العاملين في المكان العبث بها لكونها مراقبة بكاميرات عماد من غرفة الإدارة في ذلك الفرع. إنها خزنته التي انتظر طويلا ليفتحها ويباشر بيع القطع التي أودعها فيها الآن. لا مجال للانتظار أكثر. بعد أن مر نحو أحد عشر عاما على فتح مناجم العراق الأثرية بوجه الأردن.. والعالم.

غطى الغبار موجودات تلك الغرفة المتروكة في ظهر المخازن التي يديرها. هناك ضوء أبيض ضعيف معلق في السقف. وإلى جانب الخزانة الحديدية، توجد العديد من صناديق الكرتون التي تحوي زيوتا غذائية ذات صلاحية استهلاك طويلة. لقد انسجمت الخزانة مع المواد التي احتلت باقي المكان في الغرفة.

اتسخت البدلة التي يرتديها تماما بفعل سحبه لأكياس المواد المحيطة بالخزانة. وبسبب دخوله إلى ذلك المكان المتروك، وجثوه على ركبتيه أمام خزنته التي وبعد فتحه لها، عبقت رائحة الأزمان الغابرة من هناك كموسيقى تصنعها قيثارة قديمة، مد كلتا يديه نحو ما فيها، دقائق، وكانت القطع الأثرية قد تجاوزت جنب بعضها على الأرض المطلية بالدهون الغذائية وحببات السكر والرز المتساقطة من أكياسها هنا وهناك. كل قطعة داخل لفافة من القماش، يضعها عماد ويزيح عنها قماشها. لقد أخرج ثلاثة أختام أثرية عراقية. كان أحدها منبسطا، فيما كان الآخرين اسطوانيين. كما أخرج قلادتين من الذهب مرصعتين بأحجار ملونة، وقطعتين صغيرتين من العاج تحمل إحداهما نحتا دقيقا لجديدين متقابلين وهما يقفان على قوائمهما الخلفية وتفصل بينهما نخلة، وتحمل القطعة الأخرى صورة حيوان برأس إنسان. وإلى جانب ذلك، أخرج أنية فخارية مكسورة من إحدى جهاتها.

رتب عماد كل تلك القطع على الأرض، ثم ختم ترتيبها بوضعه لوحا بابليا مكسورا من الأعلى إلى جانب قطعه تلك.

كان ذلك اللوح يستحوذ على نظره أكثر من غيره، فقد كان يتمنى أن يكون كاملا. لا مكسورا بحدّة هكذا ليكون مشوهاً لمجموعته الفريدة.

بعد نصف ساعة قضاهها عماد الحسين وحيدا في أحد مخازن الشركة، وقرب خزنته المحكمة، غادر المكان إلى منزله وسط عمان حاملا قطعه تلك في سيارته الباهظة الثمن، ليبدأ تغيير ملبسه، والشروع بعملية بيعها لصديق قديم.

الشموع السبعة المثبتة على شمعدان داوود (المنورا). ينعكس نورها على جُمة سداسية ثبتت على أحد الجدران. وإلى جانب الشمعدان. مستعينا بنور السبعة. الرجل الستيني بوجهه المجعد وبقع العمر الثلاث البادية على جانب رأسه. يجلس بحالة صفاء عميق مع كتاب صغير يمسكه بيد واحدة. وتتدلى من بين أصابعه مسبحةٌ بخيطٍ قصير.

حالة نيرفانا عبادة صامتة. لا صوت غير صوت احتراق خيوط الشمع على الحامل ذي الرؤوس السبعة. حيث إرث داوود حاضرٌ بتلك الثوان..
وذلك المكان..

مغمضاً عينيه ومنقطعاً عن العالم. في غرفة زينت جدرانها بلوحات ذات كلمات عبرية. صورة لحائط المبكى.. وإلى الخلف. لوحة بانورامية لأورشليم وهي تشتعل. صمت مطبق. وجدار حمل فسيفساء مربعة تحمل صورة تيودور هرتزل..
التاريخ هنا واقف ينتظر صلواته التي أطالها.

وهجٌ مفاجئ في ركن الغرفة. حيث استنارت شاشة هاتفه المحمول هناك باتصالٍ وارء.

كان عماد ينفذ الغبار عن بدلته المتسخة بفعل غبار المخزن الذي كان فيه. بينما لم يبعد الهاتف عن أذنه وهو بانتظار الرد. فجأة وبعد أن طال طلب الاتصال. رد صوت فخم على الهاتف من الجانب الآخر.
”نعم عمادا!“

أجاب عماد ضاحكا. ”ناحام العزيز!“

إلا أن الأخير كان جادا. ”تعازي لوفاة والدك“.

تذكر عماد أن عليه تمثيل دور الحزين لوفاة والده. تغيرت نبرة صوته وأجاب: "شكرا لك سيد ناحام. أتمنى أن لا يصيبك مكروه. لكنني وددت لقاءك لغرض هام".

ابتسم ناحام بكياسة ورد: "بكل سرور يا عماد... بكل سرور...". كان يقول ذلك وما زالت المسبحة ذات الخيط القصير تتدلى من بين أصابع يده وهو يمسك النقال. لقد اتفق مع عماد على لقائه في مطعم فاخر من مطاعم شارع الكاردينس في عمان. هذا المساء. في الساعة السادسة.

الفصل 20

كانت الساعة السادسة ودقيقتين في مطعم من مطاعم شارع الكاردينس الراقبي بعمان.

جلس عماد على إحدى الطاولات المعزولة في المطعم، مسكاً بهاتفه المحمول ومتابعاً لأحد مواقع التواصل. يقضي الوقت بانتظار ناحام الذي تأخر دقيقتين حتى الآن عن الموعد.

تحسس بحذائه الحقيبة الجلدية التي وضعها تحت الطاولة. فهي تحتوي على أهم ما جاء من أجله ليعرضه على صديقه القديم. دقيقتان أخريان، وخيم ظل طويل على الطاولة.

قفز عماد من مكانه للقاء ضيفه. كان ناحام اليهودي قد وصل مرتدياً معطفاً طويلاً على بذلته التي يردتها.

”آسف لتأخري عليك!“. قال العجوز بصوته المنخفض الأجش.

”على العكس. كنت أرد على التعازي التي تصلني لوفاة والدي على صفحتي الشخصية“. رد عماد.

جلس ناحام وقد تنحنح وهو يرفع ذقنه كقاضٍ مستمعٍ إلى المتهم أمامه. لا قبل كل شيء، هل نسيت ما اعتدنا على شربه في لقاءات كهذه؟“.

رد عماد مبتسماً: ”أوه، حقاً. الوقت الذي مضى عن آخر لقاء لنا كفيل بأن ينسيني ذلك“. ابتسم ناحام وعيناه متمسرتان على عماد.

دقائق، وكانت قد وضعت القهوة الأمريكية على الطاولة. ارتشف ناحام منها رشفته الأولى. ثم قال وهو ينظر في فنجانها: ”طلبتني للقاء عماد. ماذا عندك؟“.

ابتسم الأخير واضعا فنجاناه، ومد يده إلى الحقيبة أسفلها، ووضعها على المنضدة ومد يده فيها. أخرج منها قلادةً ذهبيةً مرصعة بأحجار غريبة، ووضعها أمام ضيفه.

لم يكن رد فعل ناحام عميقا كما توقعه عماد. فقد أخرج نظارته الطبية بهدوء من جيب سترته ووضعها، وأخذ القلادة للنظر إليها.

ارتفع حاجباه وعيناه تمران على تفاصيلها، ثم مسح عنها بعض الغبار، ووضعها على الطاولة ناظرا إلى عماد.

أخرج الأخير قطعته التالية، وكانت ختما سومريا اسطوانيا لم يعر ناحام له اهتماما كبيرا، وضعه على الطاولة وقد بدا أن ما يراه لا يستحق عناء حضوره إلى هنا.

رأى عماد أن عليه أن يغير الأجواء بعرض أهم قطعه، مد يده إلى الحقيبة ليخرج رقيما طينيا مكسورا من حده الأعلى، ووضعها أمام العجوز.

كانت نظرات ناحام اعتيادية عندما تناوله بيده، لكنه بدأ ينظر إليه نظرة تفحوصية ازدادت عمقا، مع انتهاء آخر ثواني أغنية هادئة كانت تتصاعد من أركان المكان.

تفحص عماد نظرات ناحام على الرقيم، كانت عيناه تزدادان بريقا وتركيزا وهو ينظر إليه، لم يقل أي شيء، سوى أن حاجبيه انعقدا وهو ما يزال متبحرا فيه..

غار ناظره متتبعين الكتابات المنقوشة على ذلك الرقيم القديم..

يعلم عماد أن ناحام يقرأ اللغة السمارية، فيما لا يجيد هو قراءتها، بدأ الشغف يستولي عليه وهو ينظر إلى عيني ضيفه تزدادان حماسا لما هو مكتوب على اللوح أمامه.

رفع ناحام عيناه ونظر لعماد نظرة حادة، ثم وضع الرقيم وخلع نظارته عن عينيه.

”من أين حصلتَ عليه؟“ قال العجوز وهو يعاود النظر إليه على الطاولة.

”من العراق. أحد رجال السياسة هناك أرسله لوالدي قبل نحو إحدى عشرة سنة!“.

ارتشف العجوز بعضاً من قهوته. ورد قائلاً: ”القطع الأخرى لا تهمني عماد. ما يهمني هو هذا فقط.“.

تفاجأ عماد بما قاله ضيفه. فقلائد الذهب الدقيقة النقش غير هامة لديه أمام ذلك الحجر الطيني. تصنع ضحكة متكلفة لتلطيف حدية العجوز وقال: ”لم؟ هل يحمل الرقيم قصة طوفان نوح مثلاً؟“.

لم يتغير وجه ناحام ووجنتيه المترهلتين على خديه. قال: ”عماد. هذه القطعة مكسورة“. وتلمس بسبابته حدها الأعلى الحاد. ”سأعطيك مئة ألف دولار لهذه. ومائة وخمسين ألفاً أخرى. إن أتيتني بنصفها الآخر!“.

أعجب عماد الرقم للغاية. لكنه اتكأ وقال: ”من أين أتيتك بنصفه الآخر الآن سيد ناحام؟ لقد فرض العراق حماية على مواقعه الأثرية الآن. لم يعد الأمر بتلك السهولة.“.

كان ناحام غارقاً في فكرة برأسه. وهو يحرك الملعقة الصغيرة في كوب قهوته عبثاً. ”هل هذا كل ما تملكه العائلة من الآثار؟“.

رد عماد: ”كلا. لم أفتح خزنة والدي حتى الساعة. هذه مقتنياتى أنا. لم أرد للعاملين في الفرع الذي كان يديره والدي أن يتنهبوا إلى أي شيء في أول أيام رحيل الوالد فتحت خزنته للبحث عن أمر ما!“.

ارتسمت أخيراً ابتسامة هادئة جداً على عيني العجوز. ”إذن. ستبحث في خزنة والدك. وتخبرني بما تجده هناك. قد تكون المائة وخمسين ألف دولار الأخرى بمتناول يدك.“.

ابتسم عماد مجيباً: ”حسناً. لكن ما هو احتمال أن يكون ما في خزنته محتويًا على النصف الثاني لهذا الرقيم بالتحديد؟“.

أجاب ناحام: "حظك ما سيقمر ذلك!".

لم يتكلم عماد. وسحب الختم والقلادة معيدا إياهما إلى حقيبته بهدوء. فلم يكن هناك خطر من عرض القطع في أماكن كهذه بمدينة من قبل أمن البلاد.

"هل ستأخذه الآن؟". قال لناحام.

"ستسلم المبلغ من مكتبي نقدا هذه المساء. سأبلغ العاملين هناك أن يسلموك إياه. ثم سأنتظر منك اتصالا حول ما قد تجده هناك". ثم أكمل: "أو اتصالا من حظك على الأقل!". وابتسم ابتسامة عريضة.

عاود عماد تذكر حجم المبلغ. لقد كان أعلى من طموحه بضعفين على الأقل.

"ماذا مكتوب فيه؟". سأل قبل أن يشعر أنه تجاوز حدود العمل.

لم يجب العجوز. بل ارتشف بعضا من قهوته وهو ينظر إلى اللوح المكسور..

"خزعبلات تهمني وحسب!". أجاب العجوز دون النظر إلى عيني عماد..

بعد ساعتين ونصف. كان عماد قد غادر ذلك المطعم في وسط العاصمة عائدا إلى سيارته مع حقيبته الجلدية التي تحمل باقي آثاره. وحقيبة أخرى تسلمها من أحد مكاتب ناحام وهي تحمل مبلغ المائة ألف دولار. فيما غادر ناحام المقهى إلى منزله. حاملا قطعه المكسورة الفريدة.

يتنقل ناحام حرا في الأردن تحت ظل اتفاق وادي عربة الذي أبرمته المملكة الأردنية مع (إسرائيل) - بلده الأم - عام 1994. حين أعلن رئيس الوزراء الأردني حينها عن "نهاية عصر الحروب". لترد إسرائيل بعبارة "حان الوقت.. من أجل السلام"..

في أحد مكاتب الوساطات العقارية بعمان. كانت فتاة شقراء بشعر قصير وذات طول مشوق وعينين بندقيتين تجلس خلف إحدى أجهزة الحاسوب. لقد بدت مغربة

من بنطالها الجينز الأزرق الضيق وسترتها الجلدية القصيرة. وقد انتعلت بوتاً ذا أرضية مسطحة.

رن الهاتف المحمول على منضدتها مصدراً أزيز اهتزازه عليها. تناولته وأجابت فوراً: "نعم أستاذاً!"

رد صوتٌ عجوزٌ على الطرف الآخر: "كلارا، هل تسلم السيد عماد المبلغ كاملاً؟"

أجابت الفتاة: "بلى أستاذ. وبأوراق فئة الـ 100 دولار".

رد ناحام: "ممتازٌ جداً. الآن، هيئي لي تذكرة سفر بأسرع الطرق إلى تل أبيب يوم غد إن أمكن ذلك. فلدي مشاغل ضرورية جداً هناك".

ردت فوراً: "بسرور أستاذ". وأغلقت الخط.

سيكون العجوز غداً في تل أبيب، إن تمكنت كلارا من حجز مقعده على رحلةٍ قريبة. فهناك رحلات مبانثرة من عمان إلى هناك.

كان يشعر بالوثوق دائماً بنتائج الأعمال التي يلقاها على عاتق تلك الفتاة، كلارا. فرغم سنها البالغ سبعة وعشرين عاماً، إلا أنها تتميز بالحدق و الذاكرة الحديدية في إدارة أعماله. متخذة من مكتب الوساطة العقارية هذا مقراً لإدارة أعماله. فناحام يتواجد في ذلك المكتب كموقع أساسي له في عمان.

تلك الفتاة هي يده اليمنى التي يكفي أن يخبرها بما يريد. وسيكون كل شيء على ما يرام. ورغم أنه منعها من الاحتكاك بالشباب العرب في الأردن، إلا أنها تبدو مرتاحةً لذلك الوضع. حتى أنه روج إلى أن ديانتها مسلمة. رغم أن دم الديانة اليهودية يسري في عروقه.

الفصل 21

وسط ظلام مكتب الراحل خليل الحسين. كان قد دخل رجل إلى هناك وأثار الضياء. وقد أمر حارس الشركة بإغلاق الباب بعد أن أدخل سيارته إلى مرآب الشركة.

جلس عماد على كرسي والده مستشعرا حرمانه من مبلغ المائة ألف دولار طيلة سنوات بسبب والده. كان يفكر فيما كان سيفعله بذلك المبلغ لو أنه باع ذلك الرقيم في أول وصوله عام 2003، إلا أنه تراجع عن تلك الفكرة. عندما تقاطعت فكرة أخرى بذهنه. فربما يكون الرقيم أدنى سعراً بكثير لو بيع بتلك الأيام.

استشعر مقبس الكهرباء أدنى المنضدة أمامه. والتي كستها طبقة رقيقة من الغبار لفت شاشة حاسوب والده الموضوعه عليها. وصلت أصابعه إلى نقطة التشغيل. فتحها. ثم قام بتشغيل الحاسوب.

انيرت شاشة جهاز والده بنظام تشغيل قديم. لقد كان وندوز أكس بي يلوح بشعاره على الشاشة. فوالده المسن لم يستطع مجاراة التطور.

فتحت شاشة أكس بي بمرج أخضر وسماء زرقاء.

بدا عماد يتفحص الجهاز قرصاً صلباً بعد آخر. بحث في ذاكرته وحافظاته المتشعبة. كانت جداول المبيعات و المشتريات التي تخص الشركة تغزو ذاكرة الحاسوب المتعب. رغم أنه أفضل من البانتيوم 4 السابق الذي استبدله السيد خليل بهذا بعد محاولات إقناع عديدة قام بها عماد سابقاً.

تصفح المحافظات المتناثرة. حتى عثر على إحداها. حيث كانت تضم صوراً عديدة بداخلها.

فتح عماد الحافظة. واستولى على صلاحية النظر إلى تلك الصور الرائعة.

كانت الحافظة مليئة بصور قطع أثرية عراقية اكتنزها السيد خليل الحسين من عمليات التهريب من العراق خلال سني سقوط النظام العراقي الأولي. ذهل عماد

لما رآه فيها. نحو 43 صورة لعدد مائل من الكنوز التي تقبع الآن في خزنة والده التي يعرف مكانها. والتي خشبي فتحها بعد وفاة والده مباشرةً بسبب خشيته من اتهامه بالبحث في خزائن والده فور موته. سيتأكد الآن من وجود نصف الرقيم ذلك. وسيعد ترتيباً لإخراجه من الخزنة بأقل الخسائر الأخلاقية الممكنة.

تصفح الصور الواحدة تلو الأخرى. كانت صور الوجوه السومرية والرّم والأختام والعاجيات والقطع النقدية التاريخية تمر على عينيه بشكلٍ مبهر. لقد جاء ذلك كله من الشقيق المجاور. حيث مناجم الكنوز التي نثرها الغزو الأمريكي على خزائن أثرياء العالم.

لم يجد عماد صورة عن النصف الذي كان بحوزته هو في حافظة خزنة والده وهو يقلب الصور. فهو يعلم أن أباه كان يحذف صورة أي قطعةٍ تخرج من خزنته. بما فيها القطع التي أعطاها لعماد نفسه. وهذا ما جعله متيقناً من أنه إن وجد صورة النصف الأول في هذه الحافظة. فذلك يعني أنه موجود في خزنة والده..

تراقص بؤبؤاه وهما يمران على الصور سريعاً. أشعرته تلك الصور بقيمة ما تواريه أرض العراق عن العالم من الكنوز. شعر بأن كل شيء أمامه على الشاشة هو ورق أخضر يحمل عبارة " نضع ثقتنا بالرب "...

فجأة. وثبتت أمام عينيه صورة رقيم طيني..

وقد كسر نصفه السفلي.

كانت السماء تمطر بشدة على العاصمة الأردنية. فيما بدأ صوت الرعد عنيفا للغاية.

في غرفته الهادئة والخافتة الإنارة، وأمام شمععدان داوود، كان ناحام ينظر إلى الرقيم المكسور الذي حصل عليه اليوم بعدسة مكبرة. شعر بأن جسمه قد اقسعر لما كان يقرأه عليه، مر بالعدسة على الأسطر المنقوشة الواحد تلو الآخر. كانت ضربات القصب البابلية والخطوط والرسوم قد تشابكت في تلك السطور لتخبر عما ملأ دماغه إثارة..

فجأة، رن هاتفه الذي كان على الطاولة.

تناول العجوز النقال وقرأ الاسم، تركه ليرن لثوانٍ قصيرةٍ أخرى، ثم أجاب.

”سيد ناحام، لقد عثرتُ على النصف الثاني“. قال الصوت على الطرف الآخر من المكالمة..

خفق قلبه سريعا، إلا أنه حاول كبح شعوره بالإثارة بالسيطرة على صوته، ”حسننا عماد، الجو مطر في الخارج الآن، ستوصله غدا إلى مساعدتي كلارا وهي من ستوصله إلي، فغدا سأغادر الأردن، وسأترك باقي مبلغك معها“.

صمتَ عماد قصيرا، ثم قال: ”لم لا أحضره لك الآن!“.

شعر ناحام بأن عليه أن يبدي بروده المعهود تجاه تاجر الآثار ذلك، ”لا داع لذلك، شكرا لك، ستهتم كلارا بالأمر، كما أن المبلغ في إحدى مكاتبي وليس بحوزتي حاليا“.

تقبّل عماد ما قاله ناحام، وحصل على موعد بتلقي مبلغ النصف الذي بحوزته من الفتاة غدا.

في الرابعة عصرا.

أغلق ناحام الخط، واتكأ مررا بشريط جهات الاتصال في هاتفه باحثا عن اسم كلارا، يجب أن تحضر إلى بيته الآن.

الفصل 22

”ما الذي يجعلك تعتقد بأنه هام لهذه الدرجة؟“ سألت كلارا ناحام وهي تعلق مظلتها الناقعة بالمطر على إحدى الأرشييات في الجدار.

مدد العجوز ساقيه على طاولة أمامه وقال: ”كلارا، هناك دائما خط طويل للزمن. إلا أن البشر طيلة هذا الخط هم أنفسهم. يواجهون ذات المشاكل. ويحاولون إيجاد الحلول لها. بعملية فيزيائية اسمها الفعل ورد الفعل. إنهم لا يطرحون على أنفسهم إلا المشاكل التي يستطيعون محاولة حلها. ولولا أنهم كانوا قد واجهوا مشاكلًا في ذلك العهد قبل ألفين وخمسمائة سنة. لما حاولوا إيجاد الحلول لها كما نبحث نحن عن حلول لمشاكلنا اليوم.“

”وما هي طبيعة المشاكل التي واجهوها؟ وما علاقة ذلك بالرقيم الذي قلت بأنه هام جدا؟“. قالت وهي تعلق سترتها.

”يجب أن تفهمي أولاً لتعرفي أهميته. أن العقل البشري مهما تطور. فإنه في كل زمن يحصل على ذات التقدير وذات الكفاءة نسبة إلى الحقبة الزمنية ودرجة تطور الحياة. وهذا جزء من عدالة السماء مع كل البشر على طيلة خط الزمن الذي ذكرت. قد تقولين بأن إنسان الكهوف لم يكن بقابليات إنسان اليوم. لكن عليك أن تتفكري في أن إنسان الكهف كان ذكيا نسبة إلى الحياة آنذاك. ولولا ذكاؤه هذا. لانقرض وانتهى. أما كيف إنه كان ذكيا. فبقايا اختراعاته الحجرية تتحدث عن ذلك. بل لجأته وحدها واستمرار وجوده يعكس ذكائه.“

ضحكت كلارا وهي تجلس على الأريكة وتضع ساقا على الأخرى. ”هل تعني أن إنسان كهف كان قد صنع ذلك الرقيم؟“

ابتسم ناحام وأخرج غليونه من علبة كانت بجواره. ”البابليون كانوا متطورين جدا بالنسبة لإنسان الكهف كلارا. الكتابة لم يخلقها رجل الكهف. عدا رسومات كان يصنعها على جدران كهوفه. بمفهومها الصريح فإن السومريين هم من

اخترعها. واستمرت لعهد البابليين وما بعده. وفي الزمن الذي عاشوا فيه. كان عقلهم خلاقا كما هي عقولنا اليوم. وكما كان عقل إنسان الكهف نسبة إلى الزمن الذي عاش فيه.“

”لا مجال للمقارنة ناحام“. ردت كلارا وهي تعلم أن لفظه (أستاذ) تستخدمها معه أمام الموظفين فقط.“إنسان اليوم خارق بالنسبة لذلك النصف عارٍ أعني إنسان الكهف!“

أشعل العجوز غليونه وأجاب: ”بل إن النصف عارٍ ذلك. ربما. تفوق علينا مرارا من قبل!“

أدارت الفتاة وجهها وهي تنظر إلى أظافرها المطلية باللون الأسود.

”تخيلي أنك تعيشين في بيئة من الطين فقط. لا شيء غير الطين. به تصنعين أدواتك وتبنين بيتك. ثم تخترعين بروتوكولا للتواصل مع غيرك. حين لم يخترع أحد ذلك البروتوكول من قبل. إنه بروتوكول الكتابة. حين وضع بعض رسومه إنسان الكهف. وطوره السومريون بشكل متفوق لاحقا كلغة تفاهم مكتوبة. ليصل البابليين فيما بعد ذلك.“

لم تنظر إليه وقالت: ”وإنسان اليوم اخترع الكهرباء والكومبيوترات والإنترنت واستكشف الفضاء وصنع الآلات المتطورة. بل وصنع غليونك أيضاً!“

نفث العجوز الدخان المطعم بنكهة الكاكاو: ”هل تؤمنين بعدالة الرب حين خلق الإنسان في مراحل متفاوتة من الترف والشقاء؟ قد تعتقدين أن توزيع البشر في هكذا أزمنة تختلف بها مقومات الترف هو ظلم كبير. فهناك من عاش في زمن التطور والحواسيب والذكاء الاصطناعي. وآخر في زمن بدائي. لا شيء حوله غير الزراعة وبذل الجهد الجسماني المفرط. نعم. قد تعتقدين بأن في ذلك ظلم. لكن ذلك كان عادلا. فعلى سبيل المثال. حتى الوقت بيننا وبين أولئك يجب أن يختلف

طولا قياسا لسرعة ما ننجزه بمساعدة تكنولوجيا اليوم. حيث أننا نعيش في زمن السرعة. كل شيء حولنا يتم بسرعة متناهية بسبب التكنولوجيا. الإنترنت. السيارات. الطائرات ومركبات الفضاء. فيما كان من قبلنا يعبر أميالا قليلة بساعات طويلة على الحيوانات.“

ابتسمت كلارا مستفزة: ”مسكين أيها الإنسان القديم!“

مح ناحام غليونه وقال: ”في الحقيقة هو ليس كذلك. نحن متساوون بسرعة الإجاز!“

نظرت كلارا له بعمق. كانت تشعر كمن صدمتها شاحنة لشدة المفاجأة: ”بالله عليك! كفى إقناعا لي بهذه التفاهات وأخبرني عن اللوح!“

ضحك العجوز قصيرا. فقد قاطعته نوبة من السعال: ”لو أننا افترضنا أن إنسانا عاش قبل أربعة الآف عام. وعمل هذا الإنسان بمهنة التحطيب. سيفيق وقت الفجر. وسيسير إلى أقرب غابة أشجار لنحو ساعة. ثم سيبدأ خطيبه بفأس بدائية. سيعود إلى بيته عند الظهر. وعند المساء. سيبدأ بيع ذلك الحطب. ثم ينام في العاشرة مساءً تقريبا.“

وضعت الفتاة قبضتها تحت ذقنها وقالت: ”ثم؟“

رد ناحام: ”ثم وبعد أربعة الآف عام. يخرج حطاب في مدينة بوسطن الأمريكية فجرا. ويركب شاحنته الفوردي ذات الحوض الواسع. ويسير في طريقه إلى أقرب غابة. وهي تبعد عنه مسافة ساعة أيضاً. وعند نزوله فيها. يتناول منشاره الكهربائي ليقتطع الحطب. ويعود ظهرا إلى منزله. كي يشحن ذلك الخشب ليلا إلى أقرب سوق للبيع. ثم ينام في العاشرة مساءً أيضاً!“

ردت كلارا بشيء من الجدية: ”لكنه سيبيع أضعاف ما يبيعه ذلك المسكين القديم بفضل منشاره وشاحنته الفوردي!“

سحب نفسا من غليونه مجددا وقال: ”بل سيبع بالقيمة نفسها. فنسبة الخطابين في بيئة الرجل القديم إلى من يحتاجون الخطب هي ذاتها في زمن الرجل الجديد. ولو كانت أقل. لربحا كلاهما بسبب قلة العرض وكثرة الطلب. وإن كانت نسبة الخطابين إلى من يحتاجون الخطب أكثر في الزمنين. لخسرا كلاهما بسبب كثرة العرض وقلة الطلب!“.

لم جب كلارا. إلا أنها أرادت أن تعرف النقطة التي يروم العجوز الوصول إليها. فقالت: ”ناحام. بالله عليك ماذا تريد أن تقول؟“.

”كلارا. أنا مؤمن بأن جميعنا أخذ فرصته في هذه الحياة. وبالتالي. فإن جميعنا واجه ذات المشاكل. لذا. فإن الحلول التي تكون قد وضعت قبل الآف السنين لمشاكل قامت على طول خط الزمن ووضعتها الإنسان مقتنعا بفاعليتها قد يجدها بعض البشر اليوم مقنعة بالفاعلية أيضاً. جميعنا حصل على ذات الفرصة ليواجه المشاكل ويحلها. بل وليحاول كل مجتمع أن يتفوق على المجتمعات الأخرى. حتى في مسالة الزمن وعصر السرعة أو ما قبلها. فالخطابان حصلا على ذات الفرصة في العمل والربح بغض النظر عن التطور والكيفية التي مارسا عملهما بها“.

أجابت الفتاة: ”هل تعني أن كل ما تقوله هو مقدمات لإقناعي بأن حلا وضعه سكان النهرين القدماء قبل الآف السنين عن مشكلة ما على رقيمك هذا قد يكون صالحا للاستخدام اليوم؟“.

أشعل غليونه من جديد بعد أن انقطع دخانه: ”أنا أبحث عن الجوهر في الأشياء كلارا. وأنظر إلى كل شيء على أساس وجود سبب له ليحدث. لا شيء يحدث في هذا العالم للا شيء. حتى غليوني هذا. قد يكون سببا لقتلي مثلا بأمراض القلب. وبعد موتي. ستتغير حياة الكثيرين من يرتبطون بي بعمل أو قرابة. أنت مثلا. ستخسرين عملك لدي. ولهذا انعكاس على باقي من تعرفين. أرايت العالم كمحرك ضخيم. تروسه متعشقة ببعض بشكل يفوق الخيال. ومن تلك التروس. ترس خط الزمن الذي أتكلم عنه“.

لم تجب كلارا على آخر كلماته. مح غليونه لثلاث مرات متتالية وهو ينظر إليها. تكثف الدخان بينهما. وأكمل: "جوهر الإنسان على خط الزمن هذا ليس جسد الإنسان أو حتى أفكاره. إنه شيء ما يتعشق بين إنسان وآخر من جهة. وبين الإنسان وبيئته من جهة أخرى. وبين الإنسان والزمن من ثالثة. إنها طاقة الكون الغريبة التي تدفع الإنسانية لتتطور. إذا تكلمنا عن الفكر. فإنه مجرد محرك لإيجاد الحلول كرد فعل للفعل الذي اسمه مشكلة تواجهنا في حياتنا. إيماني بكل هذا يدفعني للقول بأن ما حصلت عليه يوم أمس من نصف لوح. عند اكتماله غدا سيكون من أعظم ما أوصله خط الزمن إلي. سأكون ممتنا للتاريخ حقاً!"

"سأظل صامته حتى تخبرني بشكل صريح ما الذي حصلت عليه ناحام!". قالت الفتاة. وأردفت متراجعةً عما قالت: "ثم ما الذي تقصده بجوهر الإنسان هذا!"

أجاب العجوز وهو ينزل ساقيه من على الطاولة: "لو مُتُ الآن. كيف ستتعاملين مع جثتي؟"

أجابت مسايرةً حوار الرجل: "أي جثة عجوزٍ ميت. قد أتقيا وأنا أخطو من فوقها هاربةً إلى الخارج."

ضحك ناحام بصوته الدافئ: "والآن. لمَ حُدِّثين جثة عجوز قد تموت يوماً ما وتتقيئين بسببها؟"

"لأنك حي الآن ببساطة."

"بل لأن جوهرى لم يعد موجوداً. أترين؟ الجوهر هو الأصل. أما الجسد فهو مجرد صورة. جوهر الإنسان عبر خط الزمن هو ما يحرك التاريخ كلارا. البشر كتلة واحدة تتحرك بفعل طاقة كونية تدفعه للتقدم على خط الزمن. إنها ليست هيأته ولا حتى أفكاره. الحياة. هي التي تريد من الإنسان أن يمنح الإنسان التالي ما صنعه. لتسير البشرية بشكل متتد نحو الغد الذي يسلمه جوهر إنسان اليوم لجوهر إنسانه."

أنشأ بنظره وقال: "أنا أعلم بأن كل اختراع وكل اكتشاف في هذا العالم يولد في اللحظة التي رسمت له، وأخشى أن تكون الأيام المقبلة هي لحظة إعادة بعث السر الكبير الذي يحمله ذلك الرقيم، بل أتمنى ذلك، أنا أفكر في استقدام ذلك السر الذي وضع على اللوح من الأمس الذي حدث قبل نحو ألفين وخمسمائة عام إلى اليوم هذا، لقد سعى الإنسان طويلاً للحصول على حل خارق ليتفوق به على المجتمعات الأخرى، وما تركه البابليون ومن سببهم من اليهود إلى بابل على رقيمهم ذلك يؤمن البعض بأنه يحمل ذلك الحل، وبما أنهم وجدوا ذلك الحل على رقيمهم الذي نتحدث عنه، فطبعاً بإمكانهم استخدامه وفق ما يؤمنون به، طالما أننا نواجه ذات المشكلة اليوم، مشكلة محاولة التفوق على الآخرين، اسمعتِ بعبارته أن التاريخ يعيد نفسه من قبل؟، إنني أؤمن بكل حرفٍ من هذه العبارة، من هنا جاء إيماني بما أروم فعله".

سألت الفتاة: "ولكن لو كنا نستفيد من الماضي الذي يعيد نفسه كما تقول، لماذا نعيد ارتكاب الأخطاء التي نقرأ عنها في التاريخ دائماً؟"، قالت وعلى وجهها ابتسامة خبيثة.

أجاب ناحام: "ذكرت لك، أن التاريخ الذي يسير على خط الزمن ما هو إلا قوة تسير وفق مخطط عملي غامض، وأن الآلات التي تسيرها تلك القوة هي نحن، نحن نعرف جيداً أن الحروب هي أخطر ما يمكن أن يحدث، بسببها تخلق المآسي و المجاعات وعمليات تدمير الحضارة الإنسانية وتأخير تقدمها، لكننا نخوضها مرة بعد مرة رغم علمنا بكل ذلك، أن هناك خليطاً من المنحنيات التي إن التقت بشكل معين ستقود إلى نشوب الحرب، وستكون الحرب بقرار الإنسان نفسه الذي يعرف مأساة الحروب، غالباً ما يخوضها عن قناعة تامة، رغم علمه بما يمكن أن تسببه له، ولو تمنعنا في التاريخ، لوجدنا أن هناك مئات من السنين التي تمر على أمة معينة دون أن تخوض خلالها حرباً أو تدخل في معمرة تاريخية، إلا أنها في مراحل أخرى تدخل في عدة حروب بظروف عقود قليلة من الزمن، ربما أشرح لك السبب الآن".

بدأت كلارا منسجمةً جداً مع كلمات العجوز وهو ينهض ليتمشى في الغرفة.

”لو أخذنا شريطاً من الورق طوله عشرين متراً الآن. وقسمنا كل سنتيمتر من ذلك الطول على أنه سنة. كم سنتيمتراً سيكون لدينا؟“.

أجابت فوراً: ”ألفاً سنتيمتر“.

رد ناحام: ”لنأخذ الآن أمةً معينة في العالم. بلاد فارس. تركيا. بلاد النهرين. مصر. أو أية أمةٍ أخرى. ولنضع علامة على كل عام مرت به تلك الأمة في حرب على مدى ألفي سنة. عندما ننتهي من وضع النقاط على الألفي سنتيمتر. سنجد أن هناك عدة نقاط تشير إلى عدة حروب في بضعة سنين متقاربة على طول الورق هذا. وسنجد في ذات الوقت. أن هناك سنينا عديدة مرت دون أن تمر هذه الأمة في حرب مع أخرى. هل هذه مصادفة؟ أليس الشعب الذي يعيش في تلك الأمة هو ذاته؟“.

لم تتكلم كلارا وبقية منصتة.

”إن هناك مسببات تدفع تلك الأمة إلى الحرب. لكي نتعرف إليها. يجب أن نقرأ الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والبيئي لتلك الأمة والأمم المجاورة لها على طول الألفي سنة تلك كمعايير للدراسة. ونضع منحنيات الارتفاع والانخفاض لتلك المعايير على طول تلك الورقة أيضاً. في النهاية. سنرى أن تلك المنحنيات جميعاً عندما تكون في وضع معين. ستدخل البلاد حرباً شاءت أم أبوت. وبالعكس. ففي حالة أخرى وفي شكل معين آخر تكون فيه تلك المنحنيات. لن تحدث أي حرب لهذه البلاد. بالنتيجة. فإن كل ما يمكن أن يحدث لهذه الأمة لا يعدو كونه مسألة معادلة جبرية بسيطة. إن فهمت الأمم تلك المعادلة -كل أمة بما يخصها-. لتجنب الحروب مستقبلاً. أنا لا أحدث فقط عن الحرب. بل عن أي حال آخر تريد الأمم الخوض فيه أو تجنبه. بإمكاننا النظر إلى المستقبل بالاستعانة بالتاريخ بشكله الصحيح“.

كانت كلارا منذهلةً لكلام العجوز الذي أكمل: "الإنسان يعيد الوقوع في ذات الأخطاء التي مر بها أسلافه. بل يعيد اختلاق ذات الأعداء التي وضعها أسلافه لتبرير أخطائهم ليبرر هو أخطاءه. كل ما قلت. هو تفسير لإيماني بأن ما صنع في أمس على مدى التاريخ قادر على حل مشاكل اليوم. إنه ذات الجوهر الذي يسير بنا لتلمس المشاكل وإيجاد الحلول".

نهضت كلارا وتخصرت: "ناحام. هلا تخبرني بما يحمله الرقيم من فضلك؟". قالت مستنكرة.

ابتسم وأجاب: "تذكري. أنا أجيب على سؤالك الأول. لماذا أعتقد بأن الرقيم هام لهذه الدرجة! عليك أن تكوني صبورة".

أشاح بعينه عنها وقال: "ثمة أمر هام اسمه المبني للمجهول وهو موجود في الأذهان في كل حين. وهو المحرك للتفكير لإيجاده بسبب نهم المعرفة الذي يعتري النفس البشرية. هناك مجهول طال انتظاره سيكشف هذا الرقيم عنه في حال اكتماله.."

الفصل 23

لم تدرِ كلارا بما تجيب ناحام العجوز وهو يتحدث عن نصفي رقيم طيني بابلي حصل على نصفه وأوصاها بتسلم النصف الثاني غدا من تاجر أردني. حين يكون في تل أبيب لالتزام خاص.

”ناحام“. قالت وهي تنهض لتجلس قريبا منه. ” لنفترض أنك حصلت على هذا الرقيم كاملا، ما الذي ستستفيد منه بالضبط؟“.

اتكأ العجوز وقال: ” منذ زمن الحضارات الأولى. حاول الإنسان التغلب على قوى الطبيعة باستخدام عناصر خلقت من حوله في تلك الطبيعة ذاتها، وأراد بشتى الطرق أن يعبر فوق ميكانيكية مسير الأحداث من حوله لتحقيق رغباته. والطريق الأنسب له لتحقيق ذلك، كان السحر. والطاقة المخفية وقوة التأمل.“.

ضاق اتساع عيني كلارا.

” ولأن هناك من هم من الديانة التي نحن منها يؤمنون بذات ما آمن به ذلك الإنسان الساحق القدم بخصوص ذلك. ولإننا كما ذكرت لك. نؤمن بأن الحلول التي قد خلقتها الإنسانية قديما يمكن أن تستخدم في أيامنا هذه. فإنني عازم على جمع نصفي ذلك الرقيم. وجمع ما عليه من نص سحري مقدس!“.

”ثم؟“. قالت الفتاة مستهجنة.

”ثم إنه سيكمل ذلك النقص التاريخي الذي تم البحث عنه طويلا. النقص في كتاب الزوهارا!“.

شعرت كلارا بالذهول لما ذكره ناحام. فهي مطلعة بما يكفي على ذلك التاريخ من الصراع الذي خاضه القباليون بحثا عما يكمل ذلك كتاب..

”أنت تقصد بأن كتاب الكابالا الذي يحمل تعاويذ طائفة القباليين والذي بُحث عن النقص فيه لقرون دون جدوى موجود على ذلك الرقيم؟!“.

ابتسم ناحام مع قهقهة خافتة. ”نعم كلارا. التعاويذ على الرقيم تكمل النص المفقود لكتاب الزوها“...

”كيف عرفت ذلك!“.

”لأنني متعمقٌ جدا بما على الزوها من النصوص. وللتشابه العظيم بينها وبين ما على الرقيم كلارا. ليس هذا فقط هو سر أهمية ذلك الرقيم فقط يا عزيزتي!“.

”فم؟!“.. قالت وعلامات الذهول تعلو وجوها..

”لقد حرصت طائفة القبالا اليهودية على إثبات أن تاريخها موغلٌ في القِدَم. وتمنى القباليون أن يعثروا على أي نص قديم يكمل كتابهم ليمتلكوا حجة أن ما على كتابهم - وهو سر وجودهم ونضالهم - هو أمر ذو عرق تاريخي سحيق القِدَم. فهم لا يريدون أن يكونوا مجرد أخوية لها امتداد لبضع قرون ماضية. لقد بحثوا طويلا عما يمكن أن يثبت عراقتهم. وتمنوا لقرون أن يكون ما يثبت ذلك هو أمر خارج من الحضارات الشرقية“..

تنهد قصيرا ثم أكمل: ”ولأن الغزو البابلي كان قد سبى آفا من اليهود إلى بابل في حملتين منفصلتين. يعتقد القباليون أن اليهود المسيبيين حينما توطنوا ببابل قاموا بكتابة تعاويذ الزوها القديمة تلك. ورغم أن ما يكمل الزوها هو نسختين جرى البحث عنهما طويلا بين أورشليم وبابل. إلا أن تمنيات القباليين كانت بأن يكون المكمل بابليا لا أورشليميا. لتكون الكابالا جزءا من الحضارات العالمية الشرقية الأكثر عراقة. وذلك ما سيمنح الكابالا العمق التاريخي الذي يتمنوه“.

ثم أكمل: ”منذ أن رأى النبي حزقيال الرب متجليا أمامه في طريق السبى إلى

بابل. حين رآه بعينه وسرد ذلك على قومه. عملت الكابالا مذ ذاك على الاحتفاظ بكل ما من شأنه أن يريهم الرب من جديد متجليا كما تجلى لحزقيال نبي اليهود. فراحوا يجمعون الزواهر بطلاسمه وألفاظه الغامضة من أجل أن يكون طريقهم للوصول إلى مرحلة رؤية الرب كما رآه هو. وهو غاية ما تريد الكابالا الوصول إليه. زم شفثيه وأغمض عينيه ثم سرد بعضا من سفر حزقيال:

” فَنظَرْتُ وَإِذَا بَرِيحٌ عَاصِفَةٌ جَاءَتْ مِنَ الشَّمَالِ. سَحَابَةٌ عَظِيمَةٌ وَنَارٌ مُتَوَاصِلَةٌ وَحَوْلُهَا لَعَانٌ. وَمِنْ وَسْطِهَا كَمُنْظَرِ النُّحَاسِ اللَّامِعِ مِنْ وَسْطِ النَّارِ... ”

نظر إلى كلارا وأكمل: ”إنه يقول هنا. بأنه قد رأى الله. وهاهو يصفه. وعلى هذا الأساس اتخذ بعض المتصوفة اليهود هذه الرؤيا كهدف أساسي في تصوفهم مع الأمل أن يعيدوا رؤية حزقيال النبي. أي بمعنى أنهم سعوا لأن يبصروا الله بأنفسهم. وبهذا تشكلت القابالا. كان ذلك في القرن الثاني قبل الميلاد. وعندما سيطرت الأباطورية الرومانية على أرض إسرائيل. تعرض نفر من اليهود إلى القتل والنفي. كل من كان يمارس طقوس ديانته بالعلن نفي وعذب وطرده. لذا دأب بعض المتصوفين اليهود على فهم ما يجري لهم من خلال التعمق بإيمانهم. وأحد هؤلاء هو الراجي شيمون بن راخاي والذي كان له دور بتكوين علاقة خاصة بيننا -شعب إسرائيل- و الله.

لقد نفاه الرومان لاحقا إلى خارج أرض إسرائيل بسبب أرائه المعادية لهم. وفي منفاه. دأب شيمون باتباع وقراءة الكتب اليهودية المقدسة وكذلك ممارسة التأمل معتمدا بذلك على التوراة وعلى مدى 13 عاما. لقد كانت طريقته غير المألوفة في الصلاة والتأمل سببا في جعله شخصية رئيسية في تاريخ القابالا. وهكذا وعلى خطاه. تشكلت فيما بعد مجموعة من المتصوفين اليهود. وكان هدفهم البحث عن محاولات أعمق تقوم بها هذه المجموعة للحصول على تجربة إلهية مثل ما حصل مع من سبقوهم متخذين بذلك طريقة تأمل معينة. وكان ذلك بالانتقال إلى النشوة والتواصل مع المتسامي من خلال التنويم. لقد كان كل ذلك يمارس

في سرية تامة، فتلك الممارسات كانت خطيرة وليست مناسبة تماماً للأشخاص العاديين. فقد أصيب بعض من جربوا ذلك بالجنون أو أنهم توفوا بسبب عدم تهيئهم لهذا الكم الهائل من القوة الروحانية التي كانوا يصلون إليها.“
تقلصت حدقتي ناحام وهو يتلو باللغة الانكليزية:

**BY AROUSAL BELOW THERE IS SIMILARLY AROUSAL
ABOVE... MALE AFEMALE UNITE DESIRE PREVAILS
BLESSED AND ABOVE AND BELOW ARE WORLDS ARE
IN JOY**

لم تفهم كلارا أبدا ما كان يقول، عاد ليكمل: ”في العام 1280 حصلت الكابالا على أمل جديد. عندما أعلن راب يهودي بأنه عثر على نصوص صوفية يهودية أخرى، فأصبحت هذه النصوص لاحقا أهم كتاب لدى القابالا. وهو ما تعرفينه. الزوهار، أو الكتاب اللامع. حيث دونت أكثر صفحاته باللغة الآرامية لتصعيب فك رموزه ولنع كشف الأسرار في نصوصه. كلماته عبارة عن رموز و عبارات معقدة لا يمكن تفسير معانيها. وما ذكرته لك بالانكليزية هو جزء مما جاء فيه. كلارا، قد تتفاجئين ببعض الأفكار التي وردت في الزوهار هذا، فبعض الأفكار فيه هي ثورية راديكالية، فمثلا. هناك نصوص تتحدث عن استطاعة البنشر التحكم باللّه، كما يطرح ذلك الكتاب احيانا تساؤلات غريبة منها: هل كان الله من طرد آدم و حواء أم العكس؟، والأغرب من ذلك التساؤل هو الإجابة التي تقول بأن الإنسان هو من طرد الله، وإنه -أي الإنسان- مازال في جنة عدن، إلا أنه لا يشعر بذلك كون الله طرد منها. وبذلك فقدنا الاتصال مع الأبعاد الروحية، ونقف الآن بتحدي لاستيعاب الذات الإلهية وإيجاد السبيل للارتباط بها.“

كانت كلارا تشعر بعواصف ذهنية عنيفة تطيح بأفكارها لكلام ناحام، فمعلوماتها عن الصراع من أجل الزوهار لم تكن بذلك العمق.

نهض ماشيا في غرفته وأكمل: ”تشارك الهنود و البوذيون معتقدات مشابهة

لما يعتقد القابليون. ربما كانوا أوسع من القابليين في ذلك. إلا أن القابالا تعمل دائما على نسبة تلك التعاويذ والطقوس إلى نفسها مهما كان مصدرها لتزيد من ثقلها العالمي. ولذا. عمل يهود الشتات في العالم من القاباليين على جمع كل ما يخص الزوهار لسنين مضت عن طريق منظمة جمع الأرشيف اليهودي في العالم لجمع ما يشابه ما في الزوهار ونسبته إليه. كما عملوا على إخراج كل نسخة من التوراة القديمة من مواطنها الأصلية في الشرق الأوسط ليضموها إلى ذلك الأرشيف. بل إن أعظم ما جنوه من الحرب في العراق كان ما تم الاستيلاء عليه بالقوة منه. لكنهم لم يعثروا أبدا على ما يكمل الزوهار.. ” سحب نفسا ثم قال: ” حتى خرج هذا الرقيم ليسقط في يدي الآن! ...“

مددت كلار ساقها متكأة على الأريكة متظاهرة بعدم تأثرها لما قاله وقالت: ” لا ترفع سقف توقعاتك أيها العجوز. قد لا يكون الرقيم إلا تعويذة بابلية عادية نقشت على قطعة من الطين الأصم ..“

”لقد قرأت ما عليه كلارا“. رد العجوز. ”هناك طريقة خلط لعناصر وطقوس بتفاصيل دقيقة. ألفاظ وعبارات غريبة أيضا. إلا أنني لا يمكن أن أتم إكمال تلك التعاويذ إلا عن طريق الحصول على النصف الثاني إلى جانب النصف الذي أملكه الآن. ثم إن التاريخ يعيد نفسه بيدي اليوم أيتها الشابة. ما واجهه الإنسان نفسه بتلك الحقبة وعالجه بالتعاويذ. نواجهه الآن لنعالجه بما على الزوهار كاملا بما على الرقيم.“

ردت كلارا: ”عدنا إلى قصة ربط ما عثرت عليه مع التاريخ والتي لم أفتنع بها حتى الساعة!“

نظر إليها العجوز وأطال نظراته. ثم سألها: ”على اعتبار أنك يهودية أصيلة. مطلعة على العهد القديم في عدة مراحل من حياتك. أيمنك تذكر التاريخ الذي سقطت به أورشليم بيد نبوخذنصر كما ذكر في سفر الملوك الثاني؟“

أشاحت بنظرها. ثم قالت بكلمات متقطعة لتستعيد ذاكرتها: "أعتقد أنه..
كان.. التاسع من الشهر الرابع. صحيح؟"

ضحك ناحام قصيرا وقال: "وماذا كان تاريخ سقوط بغداد بيد الأمريكيين؟"

فكرت الفتاة قصيرا..

ثم فغرت فاها منذهلة..

الفصل 24

عام من القتل..

بحر بابل..

ويقتل الأطفال ويغسلهم بالدماء..

أيتها الآلهة..

كوني رفيقة بها..

كان العرق يتصبب من جبهة البروفيسور ميشيل ليون وهو يقرأ تلك الكلمات على الرقيم. شعر بأن هناك تاريخاً يخص بابل فات العالم التعرف عليه. ما الذي تعرضت له تلك الحضارة؟

”م؟“. تتمم البروفيسور جاك روند. ”بماذا تفكر؟“. هز ليون رأسه بعدم العلم. إذ أن أقصى ما حدث لجنوب بلاد النهرين هو الطوفان العظيم. لكن لا دماء أهرقت آنذاك بهذه الطريقة.

”أظن أننا نعثر على حلقة مفقودة من تاريخ حضارة ما بين النهرين بروفيسور. إذ أن هذا اللوح يتحدث عما يشبه المجزرة التي حدثت دون رحمة“.

رد روند: ”لم نعثر من قبل على ما يشير إلى حدوث أمر كهذا هناك. هذا اللوح يتحدث عن أمر يكشف عنه للمرة الأولى بروفيسور ميشيل!“.

مسح ليون العرق على جبينه ونظر إلى روند. ”وهذا ما يجعلني أعتقد بأن هذا اللوح هو أمر فريد لا يمكن أن يمر دون تحليل دقيق!“.

”في الشهر الرابع في تاسع الشهر..

اشتد الجوع في المدينة، ولم يكن هناك خبز لشعب الأرض..

فغمرت المدينة وهرب كل رجال القتال وخرجوا منها ليلاً في طريق الباب بين السورين الذين عند جنة الملك و الكلدانيون عند المدينة وحواليها فذهبوا في طريق البرية..

كان ناحام يضع نظارته الطبية ويمسك بكتاب العهد القديم في يده وهو يقرأ تلك السطور من سفر الملوك الثاني بأصحاحه الخامس والعشرين..

”أرأيت كيف أن التاريخ مترابط ببعض؟. في التاسع من الشهر الرابع سقطت أورشليم بيد الكلدان، وبذات التاريخ، سقطت بغداد بيد الأمريكيين، كلارا، ليست تلك هي المصادفة الوحيدة فحسب، فهناك تفاصيل أخرى حدثت في غزو نبوخذنصر لأورشليم تكررت بتواريخها وأحداثها في زمننا هذا في العراق، أو (بابل)!“.

”كيف؟“، ردت كلارا وهي تشعر بالشبق لسماع الرد.

جلس على الأريكة والكتاب بيده وأكمل: ”كانت هزيمة جيش صدقيا أمام قوة جيش الكلدان سببا فيما آل إليه مصير ملك يهوذا في النهاية، لقد تفرق عنه جيشه أمام جيش غريمه نبوخذنصر“.

وأخذ يتلو بصوت تعلوه مسحة من الألم: ”أتم الرب غيظه، سكب حمو غضبه، وأشعل ناراً في صهيون فأكلت أسسها، لم تصدق ملوك الأرض وكل سكان المسكونة أن العدو والمبغض يدخلان أبواب أورشليم، ويل لنا لأننا قد أخطأنا، من أجل هذا حزن قلبنا، من أجل هذا أظلمت عيوننا، من أجل جبل صهيون الخرب.. الثعالب ماشية فيه!“.

أرجع نظارته عن أنفه وسحب نفساً وأكمل: ”بعد ذلك، هرب صدقيا إلى أريحا بعيداً عن أورشليم المحتلة خوفاً من جيش الكلدان، حيث تم القبض عليه هناك، واقتيد إلى ربله في أرض حماة، ثم قُتل أبناؤه أمام عينيه“.

”هل تعني أن هناك تشابهاً مع قتل أبناء صدام حسين وهو حي ليعلم بمقتلهم؟“
قالت كلارا.

لم يجب. وأكمل: ”ثم اقتيد صدقيا إلى بابل. حيث بقي في السجن هناك طويلاً.. حتى حثفه“. قال، بينما كانت كلارا تستذكر ما حدث للرئيس العراقي منذهلة.
”لم تنته المصادفات التاريخية لغاية الآن!“. قال وهو يقلب في كتاب التوراة الصغير بيده..

”وفي الشهر الخامس من سابع الشهر. وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذنصر ملك بابل. جاء نبوزرادان رئيس الشرطة عبد ملك بابل إلى أورشليم. وأحرق بيت الرب وبيت الملك.“ ...

قرأ العجوز تلك الكلمات ثم نظر إلى الفتاة. ”أي أنه في السابع من الشهر الخامس. عين نبوخذنصر من يكون حاكماً على أورشليم. وكان اسمه نبوزرادان. ذلك ما أقراه لك الآن في سفر الملوك الثاني. هل يذكرك هذا التاريخ بشيء؟“.

هزت كلارا رأسها بالنفي بعد تفكيرٍ قصيرٍ. أجاب ناحام: ”في السادس من الشهر الخامس عام 2003. عينت واشنطن بول برمر حاكماً على العراق!“.

شعرت كلارا بسخونةٍ في صدرها لشدة المفاجأة. سحبت نفسها ثم قالت: ”لكنك قلت بأن نبوزرادان كان قد عين في السابع من الشهر الخامس. لا السادس منه!“.

ضحك العجوز قصيراً ثم قال: ”في الوقت الذي يكون فيه التاريخ السادس من الشهر في واشنطن -مكان الأمر بتعيين برمر-. فإن بغداد وأورشليم تكونان قد دخلتا في اليوم السابع. فرق التوقيت فحسب.“.

”أنت تعني أن الأحداث تتكرر بتواريخها وتفصيلها ذاتها بعد أكثر من ألفين وخمسمائة سنة!“.

”تماماً، ولو أتممت قراءة تلك الأسفار. سترين المزيد. فحصار أورشليم بيد نبوخذنصر دام ثلاث عشرة سنة قبل أن يتم اقتحامها من قبل جيشه، وبغداد كذلك. جرى فرض الحصار عليها من العام 1990 وحتى نهاية الحرب في 2003 وسقوطها. ثلاث عشرة سنة أيضاً. إضافة إلى ذلك، سترين أن عبث جيش الكلدان بأورشليم وتدمير بيت الملك وسرقة كل ما هو نفيس، هو ذاته الذي حدث في بغداد من قبل الأمريكيين بعد سقوط المدينة بأيديهم من نهب للنفائس والذهب و الكنوز وعبث بالقصور الرئاسية. ثم فتح مقرات الدولة ووزاراتها للسرقة. كان على (بابل) أن تذوق ما أذاقته لأورشليم يا كلارا!...”

”هل تعتقد أن ذلك مصادفة يا ناحام؟“. أجاب العجوز: ”لا يهمني إن كانت تلك مصادفة أو أن الأمر مقصود من قادة الحرب في أمريكا، ما يهمني فقط، هو أن إيماني بأن التاريخ يعيد نفسه له ما يبرره، وأن ما يكمل الزوهار قد يكون سببا في إعادة رؤيا حزقيال من جديد“.

”أنت تلعب مع التاريخ بشأن الرقيم ناحام!“.

أجاب قائلاً: ”الزوهار وجد لغرض التحكم بقوى الطبيعة، ومن أهم ما يمكن التحكم به من خلاله هو الزمن. التعاويذ عليه تمكّن من يقوم بحياتنها والتصرف بها من التحكم بالزمان والمكان. قد يبدو ذلك غيباً، لكن الإنسان الذي سعى طويلاً وراء الخيمائية مثلاً لن ينفك يفكر بهذه الطريقة. كلارا، التنقل الزمني باستخدام العقل الباطن والسحر هو من أهم ما يبحث السحرة عنه، وهو ما يجب أن يكون تخضيره على الزوهار كاملاً بمساعدة النصفين اللذين أسعى إلى جمعهما. أما الأهم من كل ما ذكرت، هو أن الزوهار يشكل أقصر الطرق الممهدة لظهور الماشح“..

ابتسمت كلارا وتمتمت: ”أو المسيح الدجال كما يسميه المسلمون“..

رد العجوز: ”يريد القباليون رؤية الله بمساعدة الزوهار المكتمل كما فعل النبي حزقيال. ليطلبوا منه الإسراع بإظهار الماشاح الذي سيقوم دولتهم الأبدية. دولة إسرائيل العالمية. كل هذا باستخدام الزوهار. حيث إكماله سيكون على يدي يا كلارا“. وضرب صوت رعد عنيف على شباك الغرفة..

قالت الفتاة بصوتٍ خفيض: ”لا أعتقد أن التاريخ سيسمح لك بأن تتلاعب به هكذا. أنت ذكرت قبل قليل بأن كل اختراع أو اكتشاف يولد في اللحظة المرسومة له على خط الزمن“.

أجاب ناحام: ”القوانين خلقت لتكسر يا عزيرتيا!“. سعل قصيرا ثم قال:

”الكون يا كلارا يسير بمشيئة الرب. لكنها ليست المشيئة التي يفهمها الناس. تدخل الرب في كل لحظة. الاستجابة إلى طلباتهم ليل نهار. حرف مسيرة الأحداث في اللحظة التي يراها مناسبة. ليس الأمر كذلك يا عزيرتيا. رؤية العالم وهو يسير بهذا الشكل الفوضوي والمنتظم في وقتٍ واحد مدعاة للاعتقاد بأن الرب قد خلق الكون وفق معادلةٍ رياضية. ووضع معطيات المعادلة هذه وتركها للتفاعل الذاتي. حيث أن تفاعلها هو الذي يسير الآن في هذه اللحظات قادما من الأزل وماضٍ باتجاه الأبد. هو الذي فرض لقائي بك في هذه الليلة الماطرة. إنه تفاعل الكون بكل تفاصيله مع المعادلة. وإن اللحظة التي تصل فيها المعادلة إلى مرحلة التدمير الذاتي. هي اللحظة التي سينهار الكون فيها. الانهيار الذي أسماه فريدريك نيتشه بالانسحاق العظيم. أما ماذا عن تكرار التاريخ لنفسه بهذه الدقة. فبرأيي. أن كل سطر جديد من المعادلة الكونية يكرر بعض مفرداته على هيئة أحداث سابقة أعيد حدوثها لكن ببيئةٍ أكثر تطورا“..

قالت كلارا وهي تكتف ذراعيها: ”ولو فرضنا أن الإنسان استطاع تحليل هذه المعادلة. فسيمكننا معرفة إلى أين يذهب بنا التاريخ صحيح؟“.

ضحك ناحام بعمق، وأشار بإصبعه إليها وقال: ”بدأت تفهمين أكثر. لكن حل معادلةٍ بهذه الصعوبة والتعقيد اللامنته هو أمر مستحيل ولا جدال في ذلك، بل إننا لو افترضنا بأننا قمنا بحل شفرات المعادلة التي يسير على نهجها كوننا ومن يعيش فيه، فإن لحظة إيجاد الحل وما يليها هي أساسا نتاج للمعادلة نفسها في مرحلة من مراحل تفاعلها، وما سيليهما من تلاعبنا نحن البشر في مجرى الأحداث التاريخية المستقبلية سيكون أيضاً نتاجاً للمعادلة وتفاعلاتها، إذن ببساطة، لقد علقنا في صندوق مغلق اسمه الزمن، بقي أن نسترجع ما مضى لنخلق المستقبل بما نستطيع، وهذا من أسباب اهتمامي بالرقيم الذي سيكمل الزوهار إذ أنه سيعيد للقبالة رؤية الرب كما رآه حزقيال قبل ألفي سنة ونصف“..

قالت كلارا: ”لكن ناحام، أنت تكفر بما أنزل من الرب في التوراه بقولك هذا!“..

أجاب العجوز: ”بل إن ما جاء من الرب يؤكد ما أقول، أليست كل الديانات تؤمن بأن الرب قد دون مشيئته في عبادته في سجل محفوظ لديه؟ وأن ما يصيب المرء هو أمر مكتوب عليه مسبقاً؟ المعادلة كذلك مكتوبة مسبقاً، وإننا مهما فعلنا، فنحن نعمل وفق تفاعلاتها التي تسير إلى النهاية اللامعلوم موعدها“..

لم تفهم كلارا ما كان العجوز يقول هذه المرة لما رأت فيه من تضاربٍ مع إيمانه الرباني المطلق، لقد كان الأمر أكثر صعوبةً من أن تستوعبه، وتبادر إلى ذهنها أن ناحام أصبح يهذي بسبب تأثير الرقيم الذي حصل على نصفه، وقبل أن تبادر بإعادة مسار حديثه إلى ما هو أكثر عملية، موعده تسلم النصف الثاني من عماد، سمعت كلماتٍ آخر من ناحام..

”أراه ولكن ليس الآن!“..

”من؟“ قالت..

”الماشاح!“..

”وكيف؟“..

” هذا ليس قولِي كلارا. هذا قول النبي (بلعام) الذي ورد في (سفر العدد). والذي يشير به إلى الماشاح في ذات القول. أراه ولكن ليس الآن. إذ يكمل عنه قائلا:

”أراه ولكن ليس الآن. هذا هو داوود. أبصره ولكن ليس قريبا. وهذا هو المسيا الملك. قضيبٌ من بني إسرائيل. فيحطم مآب ويهلك بني الوغى. إنه داوود في دولته“ ..

”مسيا!.. قالت كلارا مستغربةً تغيير ناحام لاسمه من ”ماشاح“.

”أجل“. رد العجوز. ”فتسمياته عديدة. ومسيا جاء من كونه الملك المسوح. إذ أن من يجري مسحه بزيت الزيتون فقد تم تعميده ملكاً أو كاهناً. هكذا تم تعميد هارون كاهناً على بني إسرائيل طبقاً لأوامر موسى النبي. (وتأخذ من زيت المسح وتصبه على رأسه). مسيا وحده. هو القادر على جمع شتات بني إسرائيل وإقامة دولتهم الأبدية يا كلارا. قالها سفر التثنية المقدس:

”يرد الرب الهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من الشعوب الذين بددك إليهم الرب الهك. إن يكن قد بددك إلى أقاصي السموات فمن هناك يجمعك. ومن هناك يأخذك. ويأتي بك الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها آباؤك فتمتلكها ويحسن إليك ويكثرك أكثر من آباءك“ ..

”آمين“.. قالت كلارا بصوتٍ متهدج..

”أعلمت الآن أهمية هذا الرقيم؟ إنه شفرة استعادة رؤية الرب. والطلب إليه التعجيل بمجيئ المسيا. ليقوم العصر المسياني أخيراً“ ..

دب صمّت عميق في تلك اللحظات. استرجعت بها كلارا شريط حديث ناحام الطويل هذا. تكرر الأحداث التاريخية. كتاب الزوهار. رؤية النبي حزقيال على نهر الخابور. تدمير أورشليم على يد الكلدان. تواريخ سقوط بغداد وما حدث لها. خط الزمن ومعادلة سير الكون. وبعثة الماشاح المنتظرة..

انفطر ذلك الصمت بسؤالٍ أطلقته بنبرةٍ هادئةٍ للغاية:

”في أي ساعة سيكون عماد قادمًا لتسليم النصف الثاني من اللوح.“

أجاب ناحام وهو يعاود النظر في كتابه الصغير: ”غدا في الرابعة مساءً. وستسلميه المبلغ ما تركته لديك.“

ودون أن يرفع عينيه عن كتابه، مد يده بحيب سترته مخرجا تصريحاً بسحب 150 ألف دولار مما لدى مكتب شركته.

تسلمت الفتاة الورقة ونهضت مغادرة. بعد أن أخذت معها مظلتها التي جفت. اتكأ ناحام ناظرا لها وهي تترك المكان. وضع الكتاب جانباً، وفتح قائمة اتصالاته بجهازه المحمول..

مختاراً منه اسم (العميل إبراهيم).

الفصل 25

كان الشاب الفارع الطول وذو العضلات المفتولة والرأس الأصلع في منزله بالعاصمة عمان. عندما رن هاتفه المحمول.

” مهمة جديدة“. قال الصوت على الطرف الآخر من المكالمة.

”م. استمر سيدي“، رد الشاب..

” إبراهيم، هناك شيء لدي هنا في المنزل. يجب أن تتسلمه. لتكمله بنصفه الآخر غدا عن طريق كلارا وتبعث به إلي كاملا. جئ إلي الآن. فأنا مغادر غدا إلى الديار“.

”فهمت سيدي. سأكون عندك في ربع ساعة“، قال العميل إبراهيم وهو ينظر من ستائر النافذة إلى المطر الشديد في الخارج.

أغلق الخط. وأصبح ناحام بانتظار مجيء إبراهيم لتسلم النصف الأول الذي حصل عليه.

لم يرد العجوز أن يأخذ نصفه معه إلى تل أبيب عن طريق الطائرة. فهو لا يريد أن يجازف به بأية طريقة. سيسلمه لإبراهيم قريبا. ثم سينتظر الأخير كلارا لتحصل على النصف الثاني من عماد. ثم تسلمه إليه. و تبدأ رحلة الرقيم بنصفه إلى إسرائيل بيد العميل إبراهيم...

عن طريق البحر..

يعرف إبراهيم كلارا جيدا. فقد شاركها العمل لصالح ناحام طويلا. ورغم أنه شاب اردني مسلم. إلا أن ناحام يعرف من يجنده لصالحه.

لقد اصطدم أكثر من مرة بكلارا بسبب قربها الشديد من سيدهما. فإبراهيم يريد الخلول محلها في القرب من ناحام. إلا أنها بذكائها. استطاعت أن تتركه في الدائرة الثانية حول العجوز لتبقى لصيقة به دائما. إذ يشعر إبراهيم بأن كونها يهودية هو أحد الامتيازات التي أبقته أبعد منها عن ناحام.

يعلم العجوز جيدا بالصراع بين عميله وعميلته. لذا فهو يوكل المهام الحساسة إلى إبراهيم لعلمه بأنه يريد أن يرضيه بكافة الوسائل ليصل إلى درجة القرب منه بديلا عن كلارا أو موازيا لها.

بعد ربع ساعة من ذلك الاتصال. كانت عجلة من نوع بي أم دبليو حمراء وحديثة الطراز قد توقفت بباب الرجل العجوز ليترجل منها العميل إبراهيم تحت مظلة سوداء.

”انه مهم جدا إبراهيم“... قال ناحام وهو يرتشف الشاي و يتحرك في غرفته الكئيبة الأضواء.

”واضحٌ سيدي. متى ستتسلمه كلارا من عماد؟“ قال الشاب.

”غدا في الرابعة عصرا. يجب أن تحافظ عليه بعد استلامك له. فهو قابل للكسر بشكل كبير احفظه جيدا مع النصف الذي سأعطيك إياه. وعندما يكون النصفان في يدك أخبرني بذلك. سأجهز رحلة بحرية تنطلق من العقبة الأردنية ثم إلى اليونان. بعدها تنطلق إلى تل أبيب. لا تكثرث للتفیش على الباخرة. فعبور اللوح بنصفيه عليها كل تلك المسافة لا يعدو كونه راكبا إضافيا. وستستخدم بطاقة التجارة بين الأردن وإسرائيل لتدخل إلى تل أبيب.“

مازح إبراهيم ناحام قائلا: ”لماذا لا أقف على أرض العقبة وأرمي به إليك إلى أيلات؟ فالمسافة غاية في القرب. وعضلاتي قادرة على إيصاله إليها بقذفة واحدة!“.

ضحك العجوز قصيرا وقال: ”نعم. وسأكون في فندق في أيلات لأتلقفه منك حالما تقذفه!“.

ثم اكتست صوته مسحة من الجديّة: ”حينما تصل به إلى اليونان. ثم إلى تل أبيب.

سأكون بانتظارك هناك. حتى إن رأيتني أمامك واقفا. لا تسلمني النصفين إلا إن ذكرت لك كلمة السر التي سنتفق عليها. لا أريد ارتكاب أية أخطاء!.

أجاب إبراهيم مازحا: "ليس هناك من يشبهك على هذه الأرض أستاذ. لكن مع ذلك. ما كلمة السر التي تريد؟". قالها متشوقا للمهمة..

أجاب ناحام بالعبرية: "شَيْفَحْ لَهْسْتوريا!.."

قطب إبراهيم حاجبيه سائلا: "وماذا تعني؟".

أشاح ناحام ببصره وقال بعربية واضحة: "المجد للتاريخ!".

انتاب إبراهيم شعور غريب لتلك العبارة. ولم يعلم لماذا أحس بذلك.

وضع العجوز كوب الشاي على منضدة في الغرفة. وفتح درجها مخرجا صندوقا خشبيا. فتحه بروية كبيرة. وتلمس بأطراف أصابعه نصف اللوح المكسور مخرجا إياه من هناك..

نهض إبراهيم ليرى ما يفعل ناحام. وسقطت عيناه على اللوح الأثري بين يديه. كان ينظر إليه متسمرًا في مكانه..

"إبراهيم". قال ناحام وهو ينظر إلى اللوح. "سيكون عندك بدءا من الآن. وغدا سيكتمل القمر لديك. لينتقل إلى إسرائيل بين يديك".

هز الشاب رأسه. وتمتم مع نفسه..

"شيفح لهستوريا!.."

الفصل 26

الرابعة مساءً من اليوم التالي.

كان عماد الحسين ينظر إلى ساعته داخل سيارته المتوقفة إلى جانب الطريق في شارع ضيق ومنخفض بحي جبل لوييدة بعمان. حيث المنطقة القليلة الحركة في وقت المطر الكثيف. بينما كانت الأمطار تطرق بشدة على سقف سيارته تلك.

مرر أصابعه على النصف الذي حصل عليه من خزنة والده بعد إحدى عشرة سنة على وصولها إلى بلاده. وعاصفة الأسئلة حول أهميته المرجوة من دمج بالنصف الثاني بيدي ناحام تضرب راسه..

قريباً. سيحصل على حقيبة بمائة وخمسين ألف دولار..

تلمس بظاهر كفه خديه وخمس بروز شعر لحيته عليهما بسبب عدم حلافته منذ يومين لوفاة والده. فتح كاميرا نقاله الأمامية لينظر إلى وجهه فيها. بدا وجهه أكثر تعبا من ذي قبل. فالانشغال بمراسم الدفن والتعزية أمر متعب بالنسبة له. فجأة. سطع ضوء من خلف سيارته وانعكس برآئها الداخلية إلى عينيه ثم انطفأ سريعاً. نظر إلى المرآة ليرى سيارة سوداء ذات دفع رباعي تتوقف إلى الخلف من سيارته.

راجع أميال ساعته. الرابعة وخمس دقائق. لا بد أنها كلارا. حيث الاتفاق على أن توافيه هنا.. والآن.

أخفى نقاله وأزاح نظره إلى المرآة الجانبية في سيارته ليتأكد من سيكون راكب السيارة المتوقفة خلفه. فشدة المطر لم تسمح له بالنظر إلى ذلك الراكب عبر المرآة إلى النافذة الخلفية لسيارته. فُتحت باب السيارة بهدوء. وحطت منها قدم رشيقة ببنطال جينز وبوت مسطح من الأسفل. ثم امتدت مظلة مطر لتفتح خارج الباب. وتنتصب تحتها فتاة وهي تنظر إلى سيارته. ويدها اليسرى تحمل حقيبة دبلوماسية.

نظر عماد إلى المقعد المجاور له حيث يستقر صندوق النصف الثاني من الرقيم. ثم استدار ومد يده ليفتح باب سيارته والترجل منها. إلا أنه تفاجأ بالفتاة واقفة عند باب السيارة تماما، لم يرد التفكير بالسرعة التي وصلت بها إلى سيارته. فلم تغادر سيارتها إلا قبل ثوان..

أنزل النافذة ونظر إليها مبتسما، بادلته الابتسامة وقالت: "أهلا سيد عماد.."

أجاب: "أهلا كلارا، سعيد لرؤيتك من جديد!.."

شعر بقرب وصول الغنيمة، فتعاملته القديمة مع ناحام أثبتت له جدية هذا الرجل في تلك التعاملات. لم يحد ناحام من قبل عن تعامله الجدير بالثقة معه. شعر بالاطمئنان يغسل صدره عندما رأى الفتاة التي تبدو جدية بالثقة هي الأخرى وقد وصلت في ذات الموعد حاملاً حقيبة سوداء يفترض أن تكون مليئة بالمال. استمد الثقة بها من فكرته بأنها لا تعدو كونها إحدى عملاء ناحام الذين ينفذون ما يؤمرون به من قبله فحسب. إلى جانب أنه قد تسلم مبلغ النصف الأول منها ذاتها قبل يوم واحد.

كان ينظر إلى عينيها اللتين بدتا كحيتي بندق بنيتين من خلال جداول المياه التي كانت تتساقط من أطراف مظلتها. وضعت الحقيبة أرضا بانتظار استلام ما جاءت من أجله. واستدار عماد ليلتقط صندوق النصف رقيم من المقعد المجاور ليتم الصفقة. وعندما استدار، كان منظر الفتاة قد تغير بشكل صادم..

لم يستوعب ذهنه ما يراه. لقد تغير كل شيء، وتحول ذلك الاطمئنان والرغبة باستلام المال إلى رغبة بأن يكون ما يراه كابوسا فقط. ليدفع دماغه للصحوه منه وطيه في سجلات ذاكرته وبخانة الكوابيس المرعبة. لقد شحن رأسه بالربح و الذهول دفعة واحدة..

شعر بخطورة كون الشارع فارغاً تماماً من السيارات والمارة وهو بهذا الموقف. جالس في سيارته لوحده، وناظرٌ إلى ماسورة مسدس كاتم للصوت تمسكه يد رقيقة بطلاء أظافر أسود.

مدت أصابع يدها التي تمسك المظلة، ودون أي مقاومة ولا تفكير. دفع عماد الصندوق أمامها من النافذة وصدره يكاد ينفجر من ضربات قلبه المرتعد. تناولت كلارا الصندوق بأصابعها ممسكة إياه من قبضته، ثم ابتسمت له ابتسامة رقيقة..

وضغطت على الزناد..

الفصل 27

”الهاتف الذي تتصل به.. مغلق حالياً“..

عاود إبراهيم الاتصال بهاتف العميلة كلارا لترتيب موعد اللقاء بها وأخذ النصف الثاني منها كما الاتفاق مع ناحام. لكن دون جدوى..

فتح اتصاله بشبكة الإنترنت عبر هاتفه ليتصل بسيدته الذي أصبح في تل أبيب الآن ويخبره بما يجري. لكنه تردد في ذلك. فهو يريد أن يتم المهمة دون أن يسبب إزعاجاً للعجوز قد لا يكون بصالحه.

كان يذرع غرفة شققته في منطقة الدوار السابع جيئة وذهاباً وهو يحاول الحصول على خط اتصال مفتوح بكلارا..

لقد اتصل مرارا. إلا أن الفتاة ما زالت مختفية وهاتفها مغلقاً..

مرت ربع ساعة ولم يتغير شيء. وأحس إبراهيم بأن شيئاً ما يحدث..

في ذات الوقت. ضغطت كلارا على دواسة الوقود بسيارتها الجيب السوداء ذات الدفع الرباعي شاقة طريقها وسط العاصمة الأردنية. كانت تشعر بفداحة ما قامت به. لكنها أحست بأن ما نفذت ذلك من أجله هو أمر يستحق..

تلمست بيدها اليمنى الحقيبة ذات المائة وخمسين ألف دولار وصندوق الرقيم النصفي الذين على المقعد المجاور. ثم تسللت أصابعها إلى مسدسها الذي وضعته قرب ناقل حركة السيارة. كانت ماسحات الزجاج الأمامي لسيارتها تعمل بسرعتها القصوى وتزيج المياه الكثيفة التي تمطرها السماء على العاصمة الأردنية. تناولت جهاز هاتف محمول كان داخل سترتها وفتحت غلافه بعنف. أخرجت بطارينه وهي تحاول السيطرة على المقود. ثم أخرجت شريحة الهاتف بأظافرها وقامت بكسرهما إلى نصفين بأسنانها. فتحت زجاج نافذة السيارة فاندفع وابل المطر إلى داخلها حتى بلل سترتها الجلدية السوداء وشعرها

الأشقر. قذفت بقطعتي الشريحة الواحدة تلو الأخرى إلى الشارع ثم رمت الجهاز ومحتوياته بعد مسافة قصيرة. تناثرت قطع الهاتف على الأسفلت غارقة بمياه المطر التي كانت تكسو الطريق مناسبةً من المناطق المرتفعة التي على جانبي الشارع حيث كانت سيارتها تمر..

كان ذلك. جهاز عماد الذي أخذته من سيارته..

بعد إصابته برصاصتين في راسه..

في شقته. كان إبراهيم ينظر إلى الرقيم المكسور من الأعلى والذي حصل عليه من ناحام وهو يقبله بين يديه منتظرا مرور خمس دقائق إضافية ليعاود الاتصال بكلارا. استغرب اهتمام العجوز بتلك القطعة الطينية. إذ لم يبد عليها أكثر من كتابات مسماوية غير مفهومة وبضعة أشكال هندسية دقيقة. من المؤكد أن يكون هناك مبرر لاهتمام العجوز بهذه القطعة وبنصفها الآخر الذي يفترض أن تكون كلارا قد حصلت عليه الآن.

لكن القلق كان يساوره بشأن تأخر كلارا عن الاتصال به حتى اللحظة. يجب أن يصل النصف الذي معها إليه. فهو متحمس جدا للبدء بعملية شحنه إلى ناحام في تل أبيب مروراً بسواحل اليونان. سترتفع اسهمه أمام العجوز إن نفذ تلك المهمة كما خطط لها. وقد يزيح كلارا عن خط القرب الأول أمامه.

في تل أبيب. نظر ناحام إلى ساعة غرفته. الرابعة و النصف مساءً. يجب أن تكون كلارا قد حصلت على نصف اللوح الآخر من عماد لتسلمه لإبراهيم وفق الخطة التي رسمها معهما. شعر بعدم الراحة بسبب عدم اتصال إبراهيم به ليبلغه بالموقف حتى الآن. تناول هاتفه وبدأ يجري اتصالاً إلى عمان عبر تطبيق إلكتروني محكم الأمان..

رن الهاتف المحمول بغرفة إبراهيم بنغمة تطبيق غريب. رد عليه الشاب فوراً بعد أن ألقى باللوح على فراش سريريه..

”نعم أستاذ“. قال مستجمعا ما يريد قوله.

”إبراهيم. لم تتصل بي حتى الآن. هل تسلمت النصف الآخر؟“. قال العجوز..

سحب إبراهيم نفساً ليجيب..

إلا أنه سمع طرقات على الباب..

يموج الموح بما اقتلع..

ليعيث به تشريداً..

الريح لا تهدأ..

والسماء لا تكف..

مرت حوالي الساعة منذ بدأ البروفيسور ميشيل ليون والبروفيسور جاك روند بتحليل الرقيم الذي وصل إلى السوريين.

”ما زلتُ مؤمناً بأن ما حدث لبابل في عام القتل ذاك يشرح في هذه السطور“. قال ميشيل.

”بل أعتقد أن هذا الجزء يتحدث عن الطوفان العظيم بروفيسور. إنه يقول أن الريح لا تهدأ والسماء لا تكف. وهذا الشرح موجود في كتب الديانات الإبراهيمية بذات التفصيل. إلا أنني ما زلتُ أتساءل عن عام القتل والدم الذي ذكرته السطور السابقة.“

”لو افترضنا أن مجزرة أو حرباً حدثت قبل طوفان نوح وأخفى الطوفان أثرها. فسيكون الشرح على هذا الرقيم بصدد ذلك. إنه يتحدث عن قتل ودم ثم عن ربح تعصف وسماء لا تهدأ“. أجاب ليون. إلا أن روند قال متراجعا عما ذكره سابقا: ”لكن بروفيسور. إنه حين قال أن السماء لا تكف. فإنه ليس بالضرورة أنها لا تكف عن إنزال المطر. فالباليون يؤمنون بغضب الآلهة في السماء. قد يكون هذا وصفا لغضب تلك الآلهة بطريقة أخرى دون أن يقصد المطر. ما رأيك؟“..

لم يجب ميشيل. عندما كانت عيناه تمران على الحروف التالية على الرقيم..

استأذن إبراهيم من ناحام طالبا منه أن يفتح باب شقته ثم يعاود الاتصال به. أغلق الخط ونهض نحو الباب. نظر من العدسة التي فيه إلى خارج الشقة.

كانت كلارا تقف هناك وهي تعدل سترتها السوداء وتنظر إلى حذائها الذي يبدو متسخا بفعل الماء المخالط للوحل في الخارج.

اندفع الأدرينالين إلى رأس إبراهيم. فغريمته ستكون أمامه وجها لوجه بعد قليل. ولأول مرة: على انفراد.

لقد اقترب خطوة من البدء بإيصال اللوح إلى العجوز.

فتح الباب وتصنع وجها طبيعيا للقائنها. فالاثنان يعلمان بأن الصراع بينهما ما زال على أشده للتقرب من ناحام. سيما وأن مواقف كلارا الموجهة التي وجهتها لإبراهيم في العمل سابقا كانت ما تزال آثارها في نفسه..

”ادخلي!“ قال بهدوء. فيما ولجت هي بهدوء أيضاً إلى داخل الشقة..

جلست الفتاة على الأريكة وهي تنظر لآثار حذائها الموحلة على سجادة متواضعة كانت تمتد على أرضية الغرفة..

جلس إبراهيم أمامها مستجمعا هدوءه بانتظار أن تفصح عن النصف الثاني من الرقيم. إلا أنها بادءته الكلام..

”لقد اختفى عماد الحسين!“

صُدِم الشاب لما سمع. اختفى؟!!

كاد ينزلق من كرسيه لسماع ذلك. أكملت كلارا: ”اتصلت به مرارا منذ ساعتين. إلا أن هاتفه كان مغلقاً“.

لم يجب إبراهيم. وتناول هاتفه المحمول ليتصل بعماد الحسين ويتأكد بنفسه. فلقد ترك ناحام رقم الأخير لديه لاستخدامه وقت الضرورة..

ارتسمت على شفتي كلارا نصف ابتسامة جانبية. فإبراهيم ما زال عديم الثقة بها. وما زال يخشى تصرفاتها حتى اللحظة. بدليل أنه يريد التأكد بنفسه مما قالته بشأن هاتف عماد المغلق..

ضغط الشاب على زر الاتصال. وظهر اسم عماد الحسين على شاشة النقال..

ثوانٍ. وكان صوت على الهاتف يرد عليه..

الفصل 28

شعر ناحام بالقلق وهو ينتظر اتصالاً من إبراهيم. تساءل في نفسه عما يجري هناك. لم يرد الاتصال به للتأكد. سينتظر أن يتصل عميله به..

”الهاتف الذي تتصل به.. مغلق الآن..“.

كان الصوت على الهاتف يرد بهذه العبارة. ألقى إبراهيم بهاتفه جانبا وقال: ”أما زال المبلغ بحوزتك؟“.

ردت كلارا: ”نعم. إنه في مكان آمن. خلت أننا سنحسم الأمر اليوم ونتم الصفقة“.

نهض إبراهيم مضطربا واجه نحو شرفة شقته التي تقع في الطابق الثالث. كانت الريح تهز النوافذ لشدتها.

قال لها: ”كلارا. لو جحنا في جمع القطعتين وإرسالهما إلى ناحام. علما أنني ساقوم بالمهمة الأصعب. حيث الإبحار إلى شواطئ اليونان ثم إلى تل أبيب. ماذا سيكون وقع ما نقوم به عليه؟“.

قال متصنعا اهتمامه بمستقبليهما معا. أجابت الفتاة وهي تخرج علبة سكاثرها النحيفة من سترتها: ”لا جديد. فولائي لناحام أكبر من أن أهتم لمستقبلي معه“. وشعرت بأن إجابتها كانت موجعة على مسامعه.

”لا أقصد هذا. فالرجل لم يقصر بتقديم ما أنا بحاجة إليه. كلارا. أعلم بشدة قربك منه. لذا أنا أسألك فقط“.

نهضت الفتاة متجولة في الغرفة وهي تسحب نفسا من سيجارتها. كانت الإنارة في الشقة خافتة وصوت الريح والمطر يعول خارجا. فيما كانت عيناها تتجولان على الأثاث المتواضع في ذلك المكان. حيث لم تبد الشقة أكبر من صالة مستطيلة وغرفتين بأبواب موصدة.

ألقى إبراهيم سؤاله الأهم، "صحيح. اتصلتُ على نقالك وكان مغلقا. لقد أثار ذلك اهتمامي وقلقي في الوقت ذاته".

أحسست هي بأهمية الرد على ما يقول. يجب أن تثبت له أنها لم تتعمد إغلاق نقالها أثناء وقيل - بل وبعد - لقائها بعماد الحسين. مدت يدها إلى جيب بنطالها وأخرجت هاتفها المحمول. ألقّت عليه نظرةً متصنعة ثم قالت: "يبدو أن شبكة الاتصالات تتعرض لمشكلة بسبب العاصفة. فهاتفى يعمل بشكل جيد".

مجت سيجارتها مجددا معيدة الهاتف إلى جيبها ثم أكملت: "أتوقع أن يكون هاتف عماد يتعرض للمشكلة نفسها إبراهيم. سأعاود الاتصال به حالما تهدأ العاصفة".

"أتمنى ذلك". قال الشاب الأصلع وهو يشعر بأن هذا اللقاء يمكن أن يقربه من الفتاة دافعا الماضي إلى شواطئ النسيان. فرميا إن أظهر وده معها الآن وفي لقائهما الأول على انفراد فإنها ستراجع عن موقفها العدائي المبطن منه. وربما هدأت رياح الحرب الباردة بينهما.

"أتشربين شيئا؟". قال وهو يتجه إلى مطبخ صغير في الشقة الضيقة.

"حسنا. فنجان قهوة صغير إن أمكن".

دخل إبراهيم المطبخ وبدأ بإشعال نار الطباخ. قال بصوتٍ مرتفع. "ومتى تتوقعين أن العاصفة ستهدأ؟".

أجابت كلارا من غرفة المعيشة: "لا أعتقد أنها ستهدأ الليلة. فالسماء متلبدةٌ بغيوم تكفي لأن تمطر لأيام".

"ذلك سيء". قال وهو يضع مسحوق القهوة في أناء إعدادها.

“هل غرقت الشوارع بسبب المطر ككل مرة؟“ صاح مجددا..

“طبعاً، أجابت. “ فبعض الشوارع هنا عبارة عن خطوط جمع للسيول النازلة من أماكن أعلى“.

“ما درجة سوء ذلك؟“ سأل بصوته المرتفع..

لم ترد كلارا هذه المرة..

“لا تطيلي النظر في موجودات شقتي، إنها متواضعة للغاية“، قال بصوت يتصنع المرح..

إلا أن كلارا لم ترد مجددا..

خرج من المطبخ عائداً إلى غرفة المعيشة..

وأحس بأن دماغه قد أصبح كتلةً من الأسمنت..

لقد كان الباب مفتوحاً والشقة فارغة..

لا إرادياً، انطلق إبراهيم راکضاً إلى السرير ليتناول هاتفه المحمول من عليه، وولج إلى تطبيق الاتصال بناحام، كانت أصابعه ترتجفان وهو يطرق على الأزرار الإلكترونية على الشاشة، رن الهاتف لمرة واحدة ليحجب صوت العجوز فوراً، تلثم إبراهيم ناطقاً وهو ينظر إلى عقب سيجارة كلارا على الأرضية مسحوقاً بحذائنها، وإلى السرير، حيث صندوق القطعة المفتوح وحده..

“أستاذ ناحام.. لقد سرقت كلارا النصف الذي معي!“.

الفصل 29

”الفتاة..! لقد سرقت النصف الذي.. عندي.. الذي في شقتي!..“

لاهثا وملتقطا أنفاسه بصعوبة. كان إبراهيم يكلم ناحام بانفعال خانق ليشرح له ما حصل وهو ينزل سلم المبنى الذي كان فيه كالسهم..

”إنها تحرق كل شيء أستاذ!“ قال وهو يمسك درابزون السلم وينزل بخطى شبيهة بأذرع محرك تطرق سريعا. نظر من بين درابزونات السلم إلى الأسفل. ليس هناك أثر لها. ولا حتى ظل! انتقل ببصره إلى الأرض. كانت درجات السلم واضحة الاتساح بفعل حذائها الموحد..

”أقول لك إنها سرقت اللوح.“...

”عماد الحسين اختفى..“

”لقد اختفى وحسب.“...

كان يسحب أنفاسه وهو يحاول شرح الموضوع لناحام الذي كان الكلام يصله متقطعا من إبراهيم. بسبب مشاكل خدمة إنترنت المحمول الضعيفة بفعل العاصفة. أكمل إبراهيم طريقه نازلا. فيما لم تترك يده الدرابزون وهو يندفع إلى الأسفل..

الطابق الثاني..

”لا أدري.. قلت لك لا أدري.. أستاذ.. هذا فقط ما.. ما حدث!..“

عاود النظر إلى أسفل. كان حديد الدرابزون يشكل مثلثات داخل بعضها ويشوبه بعض الصدأ. لم يتبين أي أثر للفتاة حتى الآن. كان يراوده الشعور بأنها قد اختفت من على وجه الأرض..

مستمرا بالنزول كالصاروخ. انزلقت قدمه من طرف إحدى درجات السلم، شعرباًن كاحله قد التوى إلى الأمام، وأحس بألم صاعق ضرب أوتار كاحله. كاد يصرخ بعنفٍ وغضب، إلا أنه كتم صرخته مانعاً ناحام من سماعها عبر الهاتف..

أكمل طريقه متحاملاً على ذلك الألم، بدأ يخطو على الدرجات سائراً على كعب قدمه الملوية. كان غضبٌ عارم يعترى كل خلايا جسده، وحقن البرد أوتار كاحله بالمزيد من الوجع..

لقد وصل إلى الطابق الأول وما زال يخطو نازلاً، دمدم صوت الريح على باب المبنى أسفلها ضارياً إياه بإطاره الحديدي. جذب عماد الدرابزون نحوه وهو يقفر الدرجات معاً، ليس للفتاة أثر..

”أستاذ.. لقد كانت في شقتي قبل قليل.. واختفت ومعها.. النصف“.. قال ذلك بأنفاسٍ لاهثة..

كانت القصة ما تزال تصل متقطعة على لسان الشاب الذي أسودَّ كل شيء أمامه، والذي شعر بثقل شرح القصة لناحام الذي يبدو أنه لم يفهم حتى الآن ما يجري، وصل إلى الدرجة الأخيرة، واندفع نحو باب المبنى نصف المفتوح، وقبل أن يصل إليه، انزلق حذاؤه على البلاط المبتل وانحنى طوله إلى الأسفل، الآن إنه عاود النهوض مجدداً متحاملاً الألم، ومعيدا الهاتف إلى أذنه..

قفز ليصل إلى عتبة الباب وهو يحاول العثور على أثر الفتاة التي خرجت منذ ثوان. كان الشارع مكسواً بطبقة من المياه سمكها نحو خمسة إنشات، وثب فيها إبراهيم خارج المبنى محاولاً النظر من خلال المطر الشديد الذي قلب المنظر راساً على عقب..

بدا الشارع فارغاً إلا من هدير الرعد وصوت المطر الذي كان يهطل بأحمال الغيوم الكثيفة فوق سماء عمان، برقت السماء بضوءٍ أشبه بضوء الكاميرا عند التقاط الصور، لتتكشف المباني الناقعة على جانبي الشارع، وابتل إبراهيم بشكل كامل

في غضون ثوان..

نظر إلى جانبي الطريق ليجد أثرا للفتاة. لقد محى المطر ومياهه أي أثر من الممكن أن يقود إلى خطواتها..

إلا أن مسامعه كانت تستطيع العثور على اتجاه شيء كان يتحرك..

أبعد الهاتف عن أذنه وهو يحاول منعه من البلبل. وفي الوقت ذاته، التقاط أي إشارة صوتية من حوله وسط زحمة الأصوات المتهدية إلى أذنيه. وفي وسط صوت المطر العنيف والذي تقاطعه تدخلات عزف الرعد المنفرد. تناهى إلى سمعه من إحدى الاتجاهات صوت أقدام تنقر المياه بسرعة وهي تبتعد. ركض مسرعا باتجاه مصدر الصوت الذي كان يتلأشى في إحدى الشوارع الفرعية القريبة. زاد من سرعته والألم ينخر ساقه وقدمه ويستشري فيهما سريعا. كان يتساءل عما يشعر به ناحام وهو يستمع إلى كل تلك الأصوات عبر المحمول الذي في يده. دوى الرعد مجددا مشوشا على صوت وقع الأقدام ذلك. كانت المسافة بينه وبين مدخل الرقاق الذي أتى منه الصوت لا تعدو العشرة أمتار. وثبها إبراهيم والمياه تتسلل كجيش من المشاة إلى داخل حذائه. وصل إلى مدخل الفرع ذلك متناسيا ألم كاحله. ليرى ما صدقه سمعه عنه..

لقد كانت كلارا على مسافة عشرين مترا داخل الشارع الفرعي وهي تفتح باب سيارتها الجيب السوداء لتستقلها. اعترى إبراهيم المزيد من الغضب وعاود الركض باتجاهها. فيما كانت الأمطار تغسل رأسه الأصلع نزولا على قدميه. وتدخل بعض قطرات المطر إلى داخل عينيه..

داخل سيارتها. وفي جو من الهدوء بعد كل صوت المطر والرعد خارجا. لم تلاحظ كلارا كم كان إبراهيم قريبا. فمياه الأمطار تغطي الزجاج الأمامي للسيارة بكثافة. إلى جانب الظلام الذي بدا يحيك أولى خيوطه الداكنة. كما أن السيارة لم تعمل بعد لتشغل ماسحات المطر. مدت أصبعها إلى زر تشغيل السيارة وضغطت عليه..

هدر صوت المحرك وعاود هدوءه مستقرا. نظرت إلى حقيبة المال وصندوق اللوح الأول على المقعد المجاور. لقد كانا كما هما هناك. أومضت مصابيح السيارة ومياه المطر التي تحملها ملابسها بدأت بالسيلان على مقعدها.

مدت يدها لتشغل ماسحات المطر. وعندما دفعت العتلة لتعمل. وعندما ازاحت الماسحات المطر بضربتها الأولى..

جلى أمامها ظل طويل..

على بعد ثلاثة امتار..

الفصل 30

ذارعا مساحة غرفته جيئةً وذهابا. كان القلق قد اعترى ناحام لأقصى حدوده بعد أن انقطع خط الهاتف مع إبراهيم منذ أقل من دقيقة. أراد جميع ما قاله الأخير في ذهنه ليصل إلى النتيجة. كل ما فهمه يشير إلى أن كلارا قد استولت على النصف الذي لدى عميله الشاب. وأن عماد الحسين قد اختفى.

عاود التفكير بما يمكن أن تقوم به كلارا. أراد التفكير بدلا عنها. إنها في وضع معقد الآن. بل إن كل الأمور أصبحت تزداد تعقيدا. ماذا عسى أن تحمل الساعات المقبلة! الوقت الآن هو الخامسة إلا الربع مساءً.

قرر أن ينتظر من جديد. ربما اتصالا آخر من إبراهيم ليشرح له ما يجري..

اقترب الظل أكثر من سيارة كلارا الجيب السوداء وهي تنظر إليه. كان الحنق والغضب باديين على وجه ذلك الشاب الأصلع. ومع كل ضربة من ماسحات المطر. يصبح الظل أكثر قربا..

”إبراهيم!“ قالت كلارا مع نفسها. ثم أومضت مصابيح السيارة العالية لتصيبه بها في عينيه. غطى إبراهيم عينيه بكفه ونقله بيده. بعد أن أغلق اتصاله بناحام منذ ثوان..

تلمست كلارا ناقل حركة السيارة وأدارته على وضع الرجوع. فيما ركض إبراهيم باتجاه السيارة متجاهلا النور الصادر من أضوائها. اقترب من مقدمتها ثم انعطف نحو باب السائق..

نظرت كلارا إلى النقمة في عينيه وهو يقترب. أصبح بجانب بابها تماما. ومد يده نحو قبضته ليفتحه. لكن أبواب السيارة كانت مغلقة جميعها..

حين برقت السماء بنور ساطع. كانت كلارا تنظر إلى عينيه اللتين تعجان ببركان من العدائية. لم تستمع لما قال. سوى أنها نظرت إلى شفثيه وهما تنطقان بكلام بدا يحمل تهديداً أو كلاماً نابياً. وفيما هو يحاول فتح الباب المغلق يائساً. ويضرب على زجاج السيارة محاولاً كسره. ضغطت كلارا دواسة الوقود عن آخرها..

استرجعت السيارة الشارع بلمح البصر بإطارات دارت إلى الوراء بشكل خاطف. ترائشق الماء من جوانب الإطارات على كل ما في الشارع. رمى إبراهيم بنفسه إلى الوراء ومياه الإطارات تغسل جسده الذي امتد على ظهره وسط الشارع الغارق بالوحل و المطر. ونظر إلى سيارة كلارا وهي تشق طريقها في الفرع راجعة إلى نهايته. وصوت محركها يهدر عالياً.

أدارت كلارا دفة السيارة نحو مخرج الفرع. حولت ناقل الحركة وانطلقت إلى الأمام تاركة المكان برمته.

كان إبراهيم جالساً تحت المطر بملابس ناعقة وموحلة. وسط الشارع الذي أصبح نهراً من الماء والوحل..

تلمست الفتاة سترتها الجلدية مدخلة يدها فيها. أمسكت بما حصلت عليه وأخرجته من هناك. كان ذلك نصف لوح مكسور من حده السفلي. حاولت النظر إليه وسط عتمة الشارع وباطن السيارة. يبدو مبدئياً أنه المكمل للقطعة التي تركتها على المقعد المجاور.

لم تدر لِمَ دمعت عينها وهي تنظر للثروة الهائلة التي في سيارتها. رقيم أثري بعمر 2500 سنة بنصفين. وحقيبة بـ150 ألف دولار أمريكي. كانت تضحك وعيناها جريان دمعا. حين تذكرت كل ما عاشته مع ناحام العجوز في سني عمرها السابقة.

لقد تذكرت كيف أن العجوز قربها إلى مكتبه منذ عامين. وكيف أنه أقنعها

بضرورة البقاء في ذلك المكتب الخافت الإنارة ذات مرة. كان دوام شركته العقارية قد انتهى حينها ذلك المساء، ولم يعد في المبنى غيره وإياها. وعامل نظافة في غرفة برواق بعيد. حينما غازلها وهي مشمئزة من وجهه المجعد والبقع الداكنة على جوانب رأسه. إذ لم تستطع الهروب أو الدفاع عن نفسها تمسكاً بمستقبلها الوظيفي معه..

لقد كان المرتب الذي تتسلمه من ناحام عن خدماتها يفوق بأضعاف سواه في أي مكان آخر. فالعجوز يملك من ثروات العقارات و تجارة الآثار ملايين الدولارات سنويا. الأمر الذي أجبرها على تحمله في تلك الليلة..

تذكرت كيف صب لنفسه كأسا من الويسكي وهو ينظر لجسدها الأبيض الرقيق كأشعة سينية تكشف ما دون الملابس. وكيف أنه جرّع مشروبه واقرب منها. وتلمس خدها ورقبتها المستسلمة على مضض بيديه ذات الجلد المجعد والمرقط بسنين ستين طوال من حياته. حينها تساءلت عن قدرته على مجامعتها وهو بذلك العمر. إلا أن العجوز الذي ساعدته ثروته على الحفاظ على صحته كان قادرا على القيام بفعلته..

لقد خلع عنها قميصها الصيفي المترهل على جسمها البض. بعد صولة من القبلات على خدها ورقبتها. وبعد أن أفنى دقائقا في استكشاف جيدها وصدرها. لقد مرت أصابعه على كل شبر فيها. فيما كانت ابتسامة الاستحياء والرفض بادية على وجهها الذي لم يعرف طريقا للهروب من أسوار تلك الليلة..

كانت الملابس متناثرة على أرضية الغرفة حينها. فيما كان الخشب الفاخر الذي صنع مكتبه منه. مسرحا لبطولات ناحام الجنسية معها. حين اكتشفت حقيقة أن العمر لا يمكن أن يلوي سيف من اهتم بصحته حتى النهاية..

منذ تلك الليلة، وهي رهن إشارة ناحام العجوز. بعد أن استلذ بطعمها. فهي في النهار تعمل كموظفة ليس بينها وبينه إلا العمل وترتيب المواعيد والقيام بمهام سرية هامة في مجال التهريب وتجارة الآثار. وفي الليل. وحينما يطلبها لمكتبه. فهي تلك العارية التي تنهشها شفاهه متذوقةً طعهما الذي يبدو خلابا..

شعرت بدموعها الساخنة جاريةً على خديها وهي تقود سيارتها. كانت تنظر إلى الشارع كمن ينظر من خلف بلورة زجاجية إليه بعد أن استذكرت بالتفاصيل كل ما فعله بها. مستغلا حاجتها إلى أمواله. سيما وأنها عرفت درجة اعتزازه بهذين النصفين من اللوح المكسور..

”ذلك العجوز الشبق!“ قالت في نفسها. قبل أن يرن هاتفها المحمول قاطعا فلم ذاكرتها ذاك..

ناحام يتصل بك..

لم تتحدث وهي تستمع لصوت العجوز وسعاله الذي قطع مسيرة حديثه أكثر من مرة. كان يحاول أن يكون هادئا. فيما بان من تدرجات صوته غضبه العارم الذي يحاول كبته..

”هل التقيت بعماد الحسين؟. هل حصلتِ على النصف الآخر؟.. كلارا أجيبني“...

كانت كلارا تنصت لسيل الأسئلة التي يطرحها العجوز. استجمعت صوتها. ومسحت دمعها لترد عليه..

”النصفين معي ناحام. والمال أيضاً“..

كان وقع تلك الكلمات عليه ضاربا في عظامه. فقد نفذت كلارا العملية برمتها محتفظةً بالنصفين لديها.. وحدها..

”إياك أن يمسهما مكروه كلارا!“. قال. واستدرك بنبرة صوت أهدأ: ”إذا نشئت أن أوفر لك كل ما تشائين. فقط لا تعبثي بما لديك!..“

”انتهى ناحام. النصفان عندي الآن!..“

صمت العجوز قصيراً لما قالت. مبدياً عن استيعابه للكيفية التي تمكنت وفقها كلارا من الحصول على الرقيم كاملاً دون أن تدفع سنتا لعماد الحسين. وأن عماد مختفٍ الآن دون أن يترك أثراً. تشوش ذهنه بالأفكار والاحتمالات. وشعر بحرارة في معدته..

”كلارا اشرحي لي كيف قمتِ بذلك..“. إلا أن الاتصال كان قد انتهى. ورمت كلارا هاتفها على المقعد مغلقاً.

الفصل 31

في مكتبٍ مكتظ بالموظفين الذين كانوا يجلسون خلف حواسيبهم ويضعون سماعات الرأس. كانت لبني جالسةٌ خلف حاسوبها لتجيب على اتصالات الزبائن، حيث كان مركز الاتصالات التابع لإحدى شركات الهاتف المحمول في الأردن يعج باستلام الاتصالات من المشتركين الغاضبين بسبب تذبذب الخدمة بفعل العاصفة.

كان قد مضى نحو أربع ساعات على بدء الدورة المسائية من العمل في مركز خدمة الزبائن ذلك، وبدأت لبني تشعر بالتعب في رقبتها لجلوسها الطويل خلف حاسوبها وهي ترد على سيل الشكاوى والاستفسارات، إلى جانب زملائها الذين يجلسون إلى جانبها على صف طويل من أجهزة الحاسوب ويؤدون ذات المهمة. لقد بلغ عدد الاتصالات التي ردت عليها حتى الآن نحو ثمان وأربعين اتصالاً، جميعها تشكو رداءة الخدمات.

قضت لبني قطعة الشوكولاته التي أخرجتها من حقيبتها لتعينها على الجوع الذي بدأ يتسلل إلى معدتها، شعرت بلسانها يتذوق ذلك الطعم بنهم بعد ساعات من عدم تذوقه لأي شيء، وتمنت أن لا يرن جهاز الاتصالات مرة أخرى ولو لثلاث دقائق لتنتهي أكل قطعة الشوكولا.

كانت الفتاة الأردنية بعمر ستة وعشرين عاماً، ولها عينان سوداوان كبيرتان، وفم عريض وشعر أسود فاحم، و ذات قوام رشيق وعطر مستقى من ورد الياسمين، وهي تعمل في وظيفتها تلك منذ نحو عامين ونصف، تعلمت فيها على التعب والجوع أثناء ساعات العمل، حتى يحين موعد ترك المنضدة والتوجه لأكل شيء ما توفره الشركة لموظفيها.

قضت آخر قضماتها من قطعة الشوكولا وهي تشعر بأن مرحلة الخطر قد انتهت، حيث أصبح بإمكانها استقبال الاتصال التالي، إلا أن ما رن لم يكن جهاز

الاتصال الخاص بالشركة. بل كان هاتفها المحمول الذي على الطاولة.

أمسكت الهاتف ونظرت إلى شاشته..

نون يتصل بك..

وشعرت بسيلٍ من الضربات تتدفق من قلبها فجأة..

في مبنى قديم في وسط البلد بعمان. ركنت كلارا سيارتها أمام مبنى كانت تقيم فيه. أمسكت بحقيبة المائة وخمسين ألف دولار ووضعت القطعة التي حصلت عليها من إبراهيم في ذات الصندوق الذي أخذته من عماد. والذي يحتوي القطعة الثانية.

فتحت باب سيارتها ونزلت بسرعة. كان المطر ما يزال ينهمر. لعنت تلك الساعات الطويلة من المطر. رغم علمها بأن الأردنيين يشعرون الآن بفرح غامر. كون بلادهم تفتقر إلى المياه بشكل كبير. أغلقت باب السيارة و توجهت إلى المبنى المؤلف من ثلاثة طوابق. ودخلت إليه بشعر مبلل وسترة تبدو عليها آثار المياه. ثم أجهت إلى المصعد في المبنى ودخلت إليه بسرعة.

كان الهدوء يعم المبنى. فيما كان المصعد خاليا. ثوانٍ وفتح باب المصعد. لتتجه بخطوات سريعة إلى الشقة الواقعة على يساره. أخرجت مفاتيح سيارتها الذي كان قد علق معه مفتاح شقتها. فتحت الباب وولجت إلى الشقة.

كانت الشقة هادئة وبسيطة التأثيث. إلا أنها كانت مرتبةً بشكل ممتاز. فإحدى أسباب اعتماد ناحام على كلارا هو كونها تهتم بالترتيب والترتيب في عملها. وحرصها على أن يبدو كل شيء متقنا. ضغطت على زر الأنوار فأشرقت الشقة بتفاصيلها المثيرة للإعجاب.

وضعت كلارا الحقيبة و الصندوق على إحدى الأرائك على الفور. وتوجهت نحو جهاز حاسوبها الذي كان على منضدة خشبية. جلست بسرعة وهي تنظر إلى الساعة المعلقة على الجدار. كانت تشير إلى الخامسة وعشرين دقيقة. فيما بدا الظلام في الخارج يخيم بشكل أكثر قتامة.

فتحت حاسوبها وضغطت على زر التشغيل. وبدت تنقر بأظافرها على الطاولة منتظرةً بدء عمل الجهاز..

يجب أن ينتهي هذا بسرعة..

طرق صوت الرعد على زجاج نوافذ الشقة. ونظرت كلارا من جديد إلى الساعة. ثم تحول نظرها إلى شاشة الحاسوب بعد أن بدأ نظام التشغيل بالعمل.

تلمست لوحة المفاتيح على الجهاز ودخلت إلى بريدها الإلكتروني. كانت هناك رسالتان واردتان جديدتان. حمل الأولى مرفقا وهو كناية عن ملف (Excel). قامت بتحميله ثم فتحه. حيث وقع نظرها على جدول يحتوي عناوين في بلدان أجنبية.

في ذات الوقت. كانت سيارة بي أم دبليو حمراء تقترب من المبنى الذي تقطنه كلارا وهي تشق طريقها وسط مياه الشوارع و الأمطار بسرعة عالية. ضغط إبراهيم على دواسة الوقود وهو يصر أسنانه غضبا. فيما كانت الشكوك تساوره باحتمال عدم لجوء كلارا إلى شقتها ولجئها إلى مكان آخر. إلا أنه لا بد من المرور في مكان سكنها أولا. قبل التفكير باقتفاء أثرها في أي مكان آخر..

تسللت عينا كلارا نازلة في الجدول. تتبعت عمودا وحيدا في ذلك الجدول المترامي الخليا تاركة باقي الأعمدة. كانت العناوين مكتوبة باللغة العربية. شعرت بأن تلك الطريقة عديمة الجدوى في العثور على ما تبحث عنه. ضغطت على زر البحث داخل الملف. وأدخلت في شريط البحث الكلمة التي تبحث عنها بالعربية. وضغطت على زر الإدخال..

كان الملف قد حُرك لإيصالها إلى الكلمة التي عثر عليها البرنامج. لقد عثرت أخيراً على ما تبحث عنه..

نظرت إلى الساعة على الجدار. لقد مضت نحو ست دقائق. قد يكون إبراهيم متوجهاً إلى هنا الآن. عليها أن تنهي العمل على الحاسوب ومغادرة المكان بأسرع ما يمكن. ولسوء حظها. فإن هاتفها المحمول وخدمة الإنترنت الضعيفة في ذلك اليوم لم يمنحهاها الولوج إلى الإنترنت للحصول على تلك الرسائل على بريدها الإلكتروني عبر هاتفها. ولولا ذلك لاستطاعت إتمام مراسلاتها تلك دون المجيء إلى الشقة. حيث خطورة تتبع إبراهيم لها في أعلى مستوياتها..

تركت رسالة البريد الإلكتروني ذا ملف الـ(Excel) وحوّلت إلى الرسالة الواردة الثانية. كانت من المرسل نفسه. وقد احتوت على نص مرتب إلى عدة نقاط. قرأتها كلارا بعناية. وشعرت بأنها تقبل على القيام بأمر غاية في الخطورة. أغمضت عينيها وهي تتخيل حجم الصعوبة التي ستواجهها. لكننا صرت على أسنانها عازمةً على إنهاء ما بدأت به.

أغلقت الرسالة وفتحت مربع كتابة رسالة إلكترونية جديدة. وأدخلت اسم المرسل الذي انتخبته من جدول الأكسل المستلم. كتبت رسالة قصيرة. وضغطت على الإرسال..

على مسافة مائتي متر فقط. كان إبراهيم يقترب بسيارته من من مبنى شقة كلارا. حيث كانت سيارتها الجيب السوداء المركونة في مرمى نظره..

ثوانٍ وستكون في قبضته..

تركت لبني منضدتها مستأذنة وطالبة من إحدى زميلاتها الرد على الاتصالات التي سترد إلى جهازها عن طريق جهاز الأخرى. وعدتها بأنها لن تتأخر كثيرا. خرجت من غرفة مركز الاتصالات وفتحت الخط..

أجاب صوت أجش على طرف المكالمة. تحدث برقيي عال بينما كان يسعل بين الفينة والأخرى. طلب منها أمرا كان قد طلبه من قبل وباستطاعتها توفيره له. إلا أنها تعلم بأنه أمر خطير للغاية. وقد يؤدي بها إلى السجن إن تم اكتشافه. لكن المبلغ الذي يقدمه ذلك الرجل في كل مرة يجعل من المخاطرة أمرا يستحق. فلقد خدمته في السابق ذات الخدمة. حين كان يطلب منها استخدام وجودها في مركز شبكة الاتصالات لاسترجاع تسجيلات مكالمات بعض من يتعامل معهم إضافة إلى رسائلهم النصية التي يرسلونها من أجهزتهم المحمولة. حيث تستعين لبني بأحد زملائها الموثوقين في القسم المختص بتسجيلات المكالمات للقيام بالمهمة مقابل اقتسام المال الذي ستجنيه معه مقابل تلك الخدمة. كانت تشعر بالخوف من ذلك الرجل وأذعه الطويلة في المؤسسات الحكومية والخاصة في البلاد. حتى أنها لم ترد تسجيل اسمه كاملا على هاتفها الجوال. لتكتفي بكلمة (نون) فقط..

أنهت الحديث معه وهي ترتعش. فهي تعلم بأن عمليات التنصت على التسجيلات لا تتم بلا أمر قضائي. وأن عقوبة التنصت بلا أمر من المحكمة له عواقب قانونية كبيرة. انتبهت على الرعب الذي دب في قلبها كدفعة من الماء الساخن. فهي لا تعلم إن كان الخوف من الرجل ذاته. أم من المهمة التي أوكلها إليها. لم تشعر بذات القدر من الرهبة من قبل. وعدته بإيصال المعلومات له بشكل مباشر من الهدف الذي يريد عن طريقها رصد اتصالاته وسماعها. بعد أن تتم التأكد من أن شريحة الهاتف لدى الشخص المطلوب ما تزال تعمل. وأنه أجرى تلك الاتصالات مؤخرا..

أغلقت الهاتف. ونظرت إلى كلمة (نون) على شاشته قبل أن تختفي. أغمضت عينها محاولة الهدوء. لكنها أدركت أن ذلك الرعب الذي اندفع إليها هو بسبب

كون الهدف المطلوب التنصت على تسجيلات مكالماته شخصا خطيرا تعاملت معه في السابق لحساب المتصل نفسه.

وضعت هاتفها في جيبها عائدة إلى غرفة الرد على الاتصالات. وهي تفكر بما يمكن أن يجعل رجلا يتنصت على أحد عملائه..

كناحام الذي يريد التنصت على كلارا.

الفصل 32

أبطأ إبراهيم سيارته بشكل كبير وهو ينظر إلى السيارة الجيب السوداء الخاصة بكلارا من مسافة مائة وخمسين مترا.

بدأ ينظر إلى نافذة شقتها التي تطل على المسار الذي جاء منه. لم يستطع تمييز اشتعال الأنوار من عدمه بداخل الشقة بسبب ستائرها التي تبدو سميكة. فكر في انتظار كلارا هنا لإحساسه بأن دخول الشقة والاشتباك المباشر معها قد يسبب ضوضاء تقلب عليه الموازين في مبنى يسكنه عدد من النزلاء. شعر بخفوت الدفع الذي تطلقه نوافذ فتحات التدفئة بسيارته. وبدأ البرد يتسلل إليه كخيوط من دخان.

أغلقت كلارا باب شقتها بسرعة. تاركةً جهاز حاسوبها داخل الشقة. أمسكت حقيبة المال وصندوق القطعتين وهمت بالنزول عبر المصعد وهي تنظر إلى ساعتها. لقد قضت نحو 12 دقيقة في الداخل. وكانت تلك المدة كافية لوصول إبراهيم. إلا أن لا إشارة عن قدومه إلى هنا حتى الآن.

شعرت بقلبها يخفق وهي تستذكر ما قامت به اليوم. من تصرف تجاه مقتنيات ناحام. وقتل لعمامد الحسين. وعبث مع إبراهيم. لكنها استذكرت من جديد رسالتي البريد الإلكتروني اللتين فتحتهما قبل قليل. والثالثة التي قامت بإرسالها.

أغلق باب المصعد بصوت خفيض. وتذكرت كلارا تلك الليلة مجددا. استرجعت كيف أن العجوز حين انتهى منها تركها كوليمة انتهى منها المدعوون. طريحة على إحدى أرائك مكتبه. عارية وممددة. فيما جلس هو خلف مكتبه معيدا ارتداء ملبسه. ومدخنا غليونه الذي لا يفارقه. أحست بطعم تلك الليلة المالح في ذاكرتها. وشدت على مقبض الحقيبة وصندوق الرقيم بنصفيه بقوة مستجمعة قوتها على ما حدث. إلا أنه وفي زحمة تلك الصور التي كانت تستمدها من ذاكرتها. فتح باب المصعد عندما وصل الطابق الأرضي..

وتكشف عن وجه إبراهيم وجسمه المشقوق واقفا أمام بابه..

عصراً في أطراف العاصمة السويسرية جنيف. وداخل مبنى من ثلاث طوابق مطلي باللون الأبيض ومتوسط لمرج أخضر تمتد حوله. كانت البروفيسور كارين شخيتيليه في غرفة استراحتها بعد ساعات من العمل الروتيني اليومي.

بدأت كارين ذات الاثنين والأربعين عاما ببشرتها المشدودة وفتانها الأبيض كأستاذة متمرسة. فيما كانت خصل شعرها الأشقر تتدلى على جبينها نحو عينيها.

ضغطت على جهاز الريموت كونترول وهي تقلب قنوات تلفاز غرفة الاستراحة. واستقرت على قناة البي بي سي لتتابع شريط الأخبار السفلي فيها. فما يهمها هو آخر اخبار الفوضى في دول الشرق الأوسط. من مشاكل في بلدان عربية وأخرى مجاورة لها.

استعرض شريط الأخبار آخر أحداث العالم. انفجار في سوق بغداد يوقع 32 قتيلاً. سيطرة للجيش السوري الحر على بعض المواقع الجديدة في سوريا. وتخوف أوري من تزايد أعداد المهاجرين إلى أوروبا من دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

استمرت بمتابعة الشريط الانكليزي وهي ترتشف القهوة من كوب كان في يدها. إلا أن أحدهم طرق باب الغرفة. نادى عليه بالدخول بعد تردد قصير. كان شاب ممتلئ قد ألقى اعتذاره عن إزعاجها. إلا أنه برر ذلك بأن رسالة غريبة قد وردت من مرسلٍ مجهول على البريد الإلكتروني الأهم للمركز. وقال إن عليها الاطلاع عليه.

رمت البروفيسور كارين جهاز الريموت كونترول ووضعت كوب قهوتها. وتبعث خطوات الشاب إلى خارج الغرفة. أغلقت الباب ورافقتة في ممرات المبنى البيضاء. حيث كانت بعض الجدران المصنوعة من الزجاج تكشف العديد من مختبرات الإدامة والمعالجة للأوراق البحثية والتاريخية إلى جانب العديد من البوابات الكبيرة التي تخفي وراءها غرف بمكتبات كبيرة.

”ماذا تقصد بأن المرسل مجهول؟ كيف حصل على ذلك البريد إذا؟“ قالت متسائلة.

رد الشاب: ”لا أعلم. يفترض أن لا يكون هذا البريد إلا بيد عملائنا الأهم“.

هزت كارين كتفيها. ودخلت إلى غرفة تكنولوجيا المعلومات الخاصة بالمبنى متبوعة بالشاب. ثم توجهت نحو الحاسوب الخاص بتلقي وإرسال البريد الخاص بالعملاء المهمين.

انحنيت على شاشة الحاسوب ونظرت إلى الرسالة. وتفاجأت بالنص الوارد...

Sayio!

Zohar missed text is here.

Wado.

جمدت كلارا في مكانها داخل المصعد بينما كان بابه يقترب من أن يكون مفتوحا على مصراعيه. كانت تنظر إلى إبراهيم واقفا أمامها وقد ابتل راسه الأضلع ونقعت ملابسه بالكامل. فيما كان خط من الوحل و الماء قد امتد خلفه من باب المبنى. كان عليها أن تتصرف بسرعة.

اقترب خطوة نحو باب المصعد وهو يبدأ انقضاضه عليها. إلا أنها وبحركة سريعة. أشهرت مسدسها الكاتم للصوت بوجهه..

”قف مكانك!“ قالت بصوت حازم. ”أنت تخضع لرقابة كاميرات المبنى. إبراهيم لا تتصرف بتهور وتراجع. لن يمنحك ناحام شيئا!“.

جمد إبراهيم في مكانه. وشعر بأن عدم انتباهه على كاميرات المراقبة والواقعة إلى الخلف منه داخل المبنى هو خطأ لا يغتفر. فذلك لن يسمح له بالتصرف كما يشاء أبداً. ففي الوقت الذي كانت حجرة المصعد وصول نطاق الكاميرا لمسدس كلارا وتصويره . كان هو واضحا أمام عدساتها..

اقترب خطوة بحذر وأصبح قريبا منها وهي بداخل الحجرة..

”كلارا، الحقيبة والصندوق، بسرعة!..“

ضربت كلارا زر الطابق الأول بماسورة مسدسها الكاتم ليغلق الباب. لكنه عندما بدأ بالانغلاق، وضع إبراهيم قدمه على سكوته، فعاد الباب أدراجه منفتحا على مصراعيه.

كانت تلك اللحظات من النظر الشزر بينهما ثقيلة على كليهما. إلا أنها لم تطل كثيرا، فعندما هدرت السماء بصوت الرعد المدوي، صوبت كلارا مقدمة حذائها على ما بين ساقَي إبراهيم في ركلة عنيفة خاطفة، دفعت الشاب إلى الانحناء ألما وسحب قدمه عن سكة الباب، فرفعت الفتاة مسدسها لتهوي به على رأسه ضاربة إياه بعقب من فولاذ، وعندما هوى إبراهيم نصفيا من ألم الإصابتين، اندفعت كلارا كالسهم خارجة من المصعد وهي تخبئ مسدسها عن أعين الكاميرا..

مجرجرا ساقيه ومحاوولا التغلب على الألم، نهض إبراهيم وبدأ يلحق بها، لكنها كانت قد عبرت باب المبنى خارجة نحو سيارتها، تبعها الشاب وعيناه تبرقان غضبا، استدارت هي نحو باب سيارتها وفتحته، ورمت بالحقيبة والصندوق لتهم بالركوب، إلا أن الأخير استغل انفتاح أقفال أبواب السيارة، فعندما ركبت خلف مقودها وشغلت المحرك، فتح إبراهيم باب الراكب المجاور، ومد يده نحو حقيبة المائة وخمسين ألف دولار، ولم تكن إلا سنتمترات قليلة تضعهما بمناول يده..

لكن كلارا ضغطت على دواسة الوقود..

انغلق باب السيارة برد فعل حركة السيارة المفاجئة، فصرخ إبراهيم متألما من اصطدام باب السيارة بظاهر ذراععه حين انطلاقها، نظرت كلارا بالمرآة إلى إبراهيم خلفها، لقد بدا متألما جدا لما أحدثته هي به، لكنه لم يبد مستسلما أبدا لها، فقد رأته متوجها بسرعة نحو سيارته البي أم دبليو الحمراء..

بخطوات شبه عرجاء..

الفصل 33

يغضب النهار غضبا مريعا..

ويغضب الذين يلوثونهما بأيديهم..

خصومة كبيرة.. ودم يراق سريعا..

فرك البروفيسور ميشيل ليون عينيه وهو يقرأ تلك الكلمات على الرقيم الذي بدأ مع البروفيسور جاك روند بتحليله.

”ما زلت متيقنا بأن هناك مجزرة حقيقية حدثت في بابل في تلك الحقبة!“. قال روند.

”إن افترضنا أن من يلوثون النهرين في ميزوبوتاميا هم المنتصرون أو القتلة. فلماذا إذا يغضبون؟ على فرض أنهم استولوا على بابل بالقوة. ألا يجب أن يكونوا فرحين بذلك الانتصار؟“.

أجاب ميشيل: ”إنه يقول أن خصومة كبيرة حدثت. وأن دما يراق سريعا. ألا تعتقد بأن القوة التي احتلت بابل وهجرت أهلها إلى الغرب أو نحو مغيب الشمس كما يقول قد اختلف قاداتها فيما بينهم وأدى ذلك إلى خصومة بينهم؟“.

حك روند ذقنه وقال: ”لكنه ما يزال يتحدث عن أجواء تلك الحرب. إن افترضنا واقعا بأن ما يتحدث عنه هو الحرب طبعاً. لا يمكن أن يتجاوز الكثير من التفاصيل ليتحدث عن مرحلة ما بعد الحرب“.

قال ميشيل رافعا حاجبيه: ”لا تطبق قواعد السرد القصصي على رقيم عمره ألفين وخمسمائة عام بروفيسور. قد تأتي تفاصيل تلك الحرب لاحقاً“.

رفع البروفيسور جاك روند كتفيه مستغرباً. وعاود النظر مع ليون إلى الرقيم لقراءة السطر التالي.

يعمل مركز جمع التراث اليهودي ليهود الشتات في سويسرا -وهو يشابه مراكز كثيرة في بريطانيا وفرنسا وأمريكا- على جمع كل ما يخص تراث تلك الديانة ما نثر في بلدان العالم جراء الأحداث التاريخية الممتدة لآلاف السنين. وهو واحد من عدة مراكز في العالم بعضها سري والآخر ظاهر للعيان. إلا أن وظائفه تعمل بالخفية احيانا كذلك. إذ أن توجه المركز ينصب على إدارة وإصلاح القطع والمخطوطات المتعرضة إلى التلف الجزئي في مختبراته ذات التقنية العالية و الخبراء المتخصصين.

لقد بذل هذا المركز وما سواه جهودا لأعوام في جمع ذلك التراث. وساعده في تلك المهمة يهود الشتات في بلدان العالم. والذين كان سلاحهم الأمضى: عملاؤهم في داخل البلدان التي يريدون تهريب ما يحتاجونه منها. فالمال يعتبر الرمح الأقوى لدى أولئك لاستدراج واستخراج تلك القطع من مواطنها الأصلية بشراء ذم حتى قيادات بعض تلك البلدان لتسهيل خروج ذلك التراث. وما يسهل خروجه معه.

” هل يعي المرسل ما يقول بروفييسور؟“. قال الشاب لكارين مستخفا بالرسالة.

كانت كارين تنظر إلى تعبير Sayio في مستهل الرسالة الغريبة. أرادت فهمها قبل الانتقال إلى العبارة الوسطى الواضحة. العبارة التي تريد حل كل ما في الرسالة لتتفرغ للتأكد من صحتها..

فهي تعني الكثير..

”لا أعرف ما المقصود بهذه الـ Sayo. والأغرب ما تلاها من علامة تعجب. لم تردني رسالة كهذه من قبل.“

عاود الشاب النظر إلى الرسالة. لقد بدت توحى بمعلومة طال انتظارها. إلا أن نسبة الوثوق بما تحمل تكاد تكون معدومة.

حدقت كارين إلى النص من جديد. وقفزت عينها إلى السطر الثاني منه:

Zohar missed text is here.

”مستحيل.. أعني.. لا يمكن!.. تكلمة الزوها؟!“.. قالت كارين وقلبها يخفق دهشةً..
خَرَّكَ الشاب مبتعداً وقال: ”لا يمكن. لقد تم البحث عن ذلك لقرون دون التوصل إلى
أية نتيجة!“.

إلا أن كارين كانت تشعر بشيء يخبرها بأن ما حمله هذه الرسالة فيه شيء من
الواقع..

عاودت النظر إلى الرسالة..

Sayio!

Zohar missed text is here.

Wado.

أصرت على فهم المصطلحين في مقدمة ونهاية الرسالة. فقد يكون ذلك شفرة
تدعوها إلى الوثوق أكثر بما ورد فيها من معلومة عن العثور على الجزء المفقود من
الزوها..

غارت عينها وهي تتبع حروف تلك الكلمتين..

حرفاً بعد حرف..

جَرَعَ ناحام كأساً من الشراب وهو ينتظر أخباراً من إبراهيم حول سيطرته على
الموقف في عمان. أو معلومة من لبنى. موظفة مركز الاتصالات هناك.
صر على أسنانه وهو يستذكر ما قامت به كلارا. لقد كانت مساعده الأشرس
والأذكى. وهذه الشراسة والذكاء اليوم تتحركان بشكل خطير..

لقد كانت محط ثقته المطلقة. في التعاملات العقارية والتجارية إلى جانب قضايا
تهريب وتجارة الآثار والقطع النادرة. وهي بكل تلك الخبرة الآن. أقوى بكثير من عميله
إبراهيم الذي كان أداة سائدة لحركتها فقط. كلاعب خط وسط في فريق يديره
ناحام بنفسه.

لم يشأ إخبار أي طرفٍ آخر والاستعانة بخبراته وقوته، فبرغم حرية التحرك بالقطع الأثرية على الأراضي الأردنية، إلا أنه لم يرد لفت انتباه الأمن الأردني ودفعه للتدخل لتحرير قطعة مهربة من يد عميلته، لم يكن لديه إلا إبراهيم الذي يبدو أنه لا يستطيع مجازاة كلارا في دهائها وعبقريه حركتها حتى الآن.

في تلك اللحظات، كانت كلارا تجري اتصالا عبر هاتفها المحمول مع صديق قديم، وهو يسكن منطقة الدوار الرابع الواقع على مسافة بضعة كيلومترات من المكان الذي كانت تقود به سيارتها الجيب، أخبرته بأنها عن قريب ستكون عنده، وذكرته ببنك ديونها معه، حيث كانت قد أجزت عملا في السابق لصالحه واضعةً إياه في بنك الديون هذا فيما بينهما، وهذا يحتم عليه رد الدين بأن يخدمها حين حاجتها إليه، كعصابات المافيا القديمة تماما..

أغلقت هاتفها المحمول، وتوجهت إلى الحي الذي يقطنه، فيما كان المطر شديد الانهماج..

لم تمر إلا دقائق، حتى رن هاتف ناحام في تل أبيب، كان اتصالا يحمل أنباءً سارة إليه، لقد تم التعرف على وجهة كلارا التالية..

عبر التنصت على تسجيل اتصال أجرته لتوها.

نقرت البروفيسور كارين شخيتيليه على لوحة المفاتيح وقد أنهت كتابة رسالة استفسار عن معنى الكلمتين Sayio و Wado، عنونت الرسالة إلى أحد الأصدقاء القدماء في الولايات المتحدة الأمريكية، لقد استلهمت أن يكون الحل لدى متحدث بالانكليزية من العبارة الثانية المكتوبة بالانكليزية الواضحة في الرسالة، حددت اسم المستلم وأتمت الإرسال.

” هل تعتقدين أن تلك الكلمات انكليزية حقا؟“ قال الشاب.

” رغم أنني أجيد الانكليزية إلا أنني لم اقرأ مثل هذه الكلمات في حياتي. ورغم إلمامي باللاتينية فلا أتوقع بالطبع أنني قد قرأت أو سمعت تعبيرا مشابها!“.

”قد تكون فرنسية مثلا، ما رأيك؟“.

ردت كارين: ”سنلجأ إلى غوغل في النهاية. أشعر بهذا الشعور مقدما“.

ابتسم الشاب. وعاد إلى جهاز الحاسوب الذي استلم الرسالة الغريبة لينظر إلى اسم المرسل. لم يكن اسمه قابلا للتعريف بهوية صاحبه. فقد استخدم المرسل حروفا عشوائية في تأليف اسم بريده الذي أرسل منه..

” هل تعتقدين بأن هذا المرسل يمتلك فعلا ذلك النص المفقود من الزوهاربروفيسور؟“ قال الشاب..

ردت كارين: ”لا أعتقد أن رسالة مختصرة كهذه ستدفعنا إلى الموافقة على فتح قناة تفاهم مع مرسلها. أنت تعلم بأننا في هذا المركز حذرون جدا مع المعلومات سواءً الصادرة منا أو الواردة إلينا“.

”لكن ماذا لو“. قاطعته كارين: ”أما إن كان المرسل فعلا يمتلك النص المفقود أو أية معلومات قد تقود إليه، فهذا يعني أننا وصلنا إلى اكتشاف القرن. بل اكتشاف التاريخ برمته. لقد بحثنا طويلا عن ذلك النص حتى كدنا نفقد الأمل“.

” لا أدري لماذا..“ . قال الشاب و تنحنح. ” لماذا أشعر بأن المرسل يمتلك أفكارا مغلوطة بشأن ما نبحث عنه. قد يكون عثر على أمر ما وتصور أنه ما يكمل الزوهار، فيما هو ليس كذلك. أقترح أن...“.

قاطع حديثه صوت قصير صدر من الجهاز الذي تقابله البروفيسور شخصيتيبيه.. رسالة جديدة..

أرجعت كارين شعرها إلى الورااء وهي تشعر بالحماس لفتح الرسالة الواردة. لقد أجاب الأمريكي على رسالتها في دقائق فقط. فتحت الرسالة لتقرأ:

Sayio!

It's the native Indo American language proffessor.

Wado.

Hello!

It's the native Indo American language proffessor.

Thank you.

شهمت كارين ضاحكة. فيما لم يفهم الشاب سبب ضحكها تلك. التفتت له وقالت: "بلغة الأمريكان الهنود. فإن Sayio تعني مرحبا. وWado تعني شكرا لك!!".

الفصل 34

”حسنًا كلارا، مفتاح الشقة لديك بنسخته الثانية، بإمكانك دخولها متى شئت“.

أغلق توفيق -صديق كلارا القديم- الخط، وانحرفت سيارة الفتاة إلى حيث تقع شقته.

كان إبراهيم يحاول اللحاق بسيارة الدفع الرباعي التي تستقلها كلارا، إلا أن أحد أسوأ المشاكل كانت قد حدثت له بسبب سرعته في القيادة على أسفلت يغطيه الماء بأكثر من أربع إنشات، لقد توقف المحرك فجأة بسبب ارتفاع الماء إلى المقابس الكهربائية الداخلة إليه، وعلقت سيارته البي أم دبليو الحمراء وسط المطر الهائل ونهر المياه الذي يجري على الشارع.

في تلك الأثناء، كان محرك سيارة كلارا قد توقف أمام مبنى صغير من طابقين، لقد وصلت إلى شقة توفيق الذي يدين لها بوقفه في مثل هذا وقت، تراجلت مسرعةً ودفعت الباب الحديدي الواطئ للمبنى حاملةً صندوق النصفين وحقيرة الدولارات، لم تأبه للمطر الذي بدأ يحيل ملابسها إلى قطعة من الماء وهي تصعد السلم الخارجي للمبنى معتليةً إلى الطابق الثاني.

تلمست مفتاح الشقة بجيبها، وضعت في مكانه وأدارته، فتح الباب الحديدي بسرعة وولجت إلى الشقة.

في تل أبيب، كان ناحام قد أنهى اتصالاً مع إبراهيم يعلمه به بوجهة كلارا بعد معلومات لبنى، عليه أن يدركها بأسرع وقتٍ ممكن قبل أن تفكر بترك شقة توفيق إن هي أحست بأي خطرٍ يقترب.

شعر إبراهيم بأن المياه وصلت إلى روحه لشدة هطول المطر وهو يحاول إصلاح البي أم دبليو رافعا غطاء المحرك، أخرج أغلفة المقابس الكهربائية وحاول إزالة المياه عنها، أنهى جفيف آخرها وعاد إلى مقصورة سيارته، أدار المحرك من جديد.

إلا أن الماكنة الألمانية لم ترد أن تعمل ابدا.

خلعت كلارا حذاءها المسطح الطويل ورمت بصندوق النصفين وحقيبة المال على الأرض. شعرت بشدة التعب لمطاردة اليوم. مدت ساقها على الحقيبة، وانكأَت لتشعر بشيء من الراحة.

عاود النص الوارد إليها عبر إحدى الرسالتين اللتين استقبلتهما اليوم على البريد الإلكتروني الظهور في ذهنها. راجعت المکتوب فيها وتذكرت مرسله. من الجنون القيام بفعل كهذا! بل من الجنون القيام باللعبة كلها. قفزت إلى ذاكرتها الرسالة التي بعثت بها بعد قراءتها للرسالتين الواردين. تذكرتها وهي تشعر بأنها فتحت أبواب الجحيم على نفسها..

Sayio!

Zohar missed text is here.

Wado.

ابتسمت وهي تتذكر لفظتي Sayio و Wado. ففترة عملها الطويلة كسكرتيرة لناحام عرفتها على العديد من الجنسيات. بينهم أمريكيين هنود. وقد أعجبها أن تستخدم طريقتهم في إرسال البريد الإلكتروني. حين أرسلت رسالة إلى مركز جمع التراث اليهودي ليهود الشتات في سويسرا تخبرهم فيه بامتلاكها النص المفقود من الزوهار..!

تلمست هاتفها المحمول. بانتظار ردٍ من سويسرا. إلا أن سيارة بي أم دبليو حمراء كانت متعطلة قبل قليل..

بدأت تقترب بهدوء من مكانها..

بعد عدة دقائق. وداخل غرفة جدرانها من الطابوق كطريقة حديثة في تزيين الجدران. وتحت إنارة مخفية خافتة. كان رجل قصير ببشرة سمراء ورأس حليق تماماً وسلسلة في رقبته علقت بها المينورا يهز رأسه وهو يستمع إلى امرأة تحدّثه عبر الهاتف المحمول. لقد قالت له بأن عليه إنجاز مهمة يجب أن تكون من أولوياته. وأن عليه أن يكون مسلحاً بحربة حادة أثناء تأدية المهمة. فقد يكون ما سيمضي إليه فحاً نصب له عن طريق جهة مجهولة..

تلمس صدره المنتصب قوةً والعمارة بعد أن كان قد أنهى حماماً بخارياً ساخناً. مغمضاً عينيه وهو يفكر بخطوات إنجاز المهمة الموكلة إليه حسب ما ذكرت تلك المرأة تفاصيلها. كان الحماس يضرب بجناحيه في مجرى دمائه ويهزها توقفاً إلى البدء بتلك العملية. سيكون الرجل الأعلى منزلة بين رفاقه إن أتم ذلك بهدوء ونجاح. فهو سيكون القابالي الذي يحصل على تنمة كتاب الزوهار..

وصفت له المرأة تفاصيلاً عن العملية. قالت له بأن عليه الاستعداد والانتظار حتى الحصول على ساعة الصفر لتأدية مهمته. لقد اتصل أحدهم ببريد مركز جمع الأرشيف اليهودي ليهود الشتات في سويسرا مرسلًا رسالة تفيد بأنه يمتلك بقية كتاب الزوهار. وأنه بعد مراسلته قال لهم بأنه يعيش حالياً في عمان وأن النص معه. وأن جهة ما تطارده للحصول على ذلك النص. وأخيراً. إن المتصل يزعم بأنه فتاة..

هز الشاب رأسه. قال عبارته الوحيدة ضاحكاً: "شكراً كارين. سأكون مستعداً"..

وأغلق المحمول.

فيما شعرت شخصيتيه بعد المكالمة بأن أمراً مربياً من الممكن أن يحدث.

كانت كلارا قد تلقت رسالة من مركز جمع الأرشيف اليهودي في جنيف يتساءل المرسل فيها عن ضمانات حول امتلاكها تكملة الزوهار. وقد عادت إرسال رسالة لهم. أوضحت فيها بأنها يهودية وتعيش في عمان وأن عليهم إنقاذها من جهة مجهولة حاول قتلها والاستيلاء على النص الذي بحوزتها. لم تسم تلك الجهة. لكنها قالت بأنها على وشك فقدان ما بيديها، فهي تعلم بقرب إبراهيم ومدى طول ذراعه التي قد تطالها في أية لحظة. أرادت إخبار ذلك المركز عبر عملائه الذين ينتشر العديد منهم في دول الشرق الأوسط لثرائها بتلك الآثار من تراث الثقافات الدينية السالفة. حيث يتحين هؤلاء الفرص للحصول على أية قطع تهم الأرشيف اليهودي مما يهرب أو ينقل عنه من معلومات هامة. وبالفعل. وعددها المرسلون بإرسال نفر من أولئك الأفراد لها بأقرب فرصة. بل أكدوا لها كون من سيرسلونه قاباليا محترفا يقيم على أرض الأردن. وسيحاول الوصول إليها والحصول على الرقيم مقابل حمايتها ووعد بإخراجها من الأردن بأسرع وقت. إلى جانب دفع المبلغ الذي سيتم التفاوض بشأنه بينها وبين المركز إن تم التأكد من حقيقة ما تملكه من تمة الزوهار..

كانت تشعر بأنها قد دخلت حيز لعبة أي خطأ فيها قد يؤدي بحياتها بدءا من الآن. لكنها بمجرد وصول ذلك القبالي إليها فإنها ستصل الى نهاية النفق. وستضع قدمها على سكة مغادرة الأردن. إلى غير رجعة. بصيغة ما.

”فجر الغد. يجب أن تكون قد أنهيت الجزء الأول من المهمة!“..

لم يكن الغضب البادي على صوت ناحام العجوز منسجما مع الهدوء الغريب الذي يتحدث به. شعر إبراهيم بحجم الخذلان الذي تسبب به لسيدته..

”آسف سيدي. أنا مضطر للإغلاق. سأصل الموقع الذي أخبرني عنه بعد قليل. أتمنى أن تكون كلارا هناك!“..

قال لناحام محاولاً امتصاص غضبه، فيما كان يقود البي أم دبليو الحمراء بهدوء خشية تعرض محركها للبلبل من جديد..

إلا أن العجوز أكمل:

”السادسة صباحاً، وستغادر السفينة الأخيرة إلى اليونان، يجب أن تحصل على النصفين قبل ذلك، لا يجب أن تنطلق السفينة من دون النصفين على متنها إبراهيم، أتفهم؟!..“

”واضح سيدي، واضح!“، وأغلق الخط..

نظر إبراهيم إلى ساعته، لم يتبق إلا نحو تسع ساعات على انطلاق السفينة، عليه العثور على كلارا والاستيلاء على القطعتين بحوزتها، إلا أن شيئاً بداخله، كان معجبا بشجاعة ودهاء تلك الفتاة.

أنهى ناحام اتصاله بإبراهيم، وتوجه فوراً إلى مقر هام في قلب تل أبيب، حيث سيلتقي من جاء إليها من أجل لقائه.

بغمد من ظلام..

أغمد النهار نوره كلياً فوق عمان.

كان القبالي ذو سلسلة المينورا قد ارتدى ملبسه السوداء كاملةً تحت معطف جلدي أسود يخفي ما تحت بنطاله من حربة أمريكية الصنع ملتوية النصل لا تسمح لمن تطعنه بفرصة ثانية في الحياة.

وضع ما يحتاجه من جهاز اتصال وأدوات حديدية صغيرة للدفاع عن النفس وانتعل حذاءً طويلاً يشبه الأحذية العسكرية.

بعد ربع ساعة، سينطلق إلى تنفيذ المهمة التي أوكلها إليه مركز جمع تراث اليهود الشتات في جنيف.

لم تكن كارين شخيتيليه لتشعر بالاطمئنان أبدا لما قامت به لتوها، فهي حركت عنصرا من أفضل القاباليين لدى المركز في عمان للقيام بمهمة الوصول إلى الفتاة التي تدعي حصولها على النص المكمل للزوهار، لكن هذا القرار جاء بعد أن نقلت الرسالة إلى الرأس الأكبر في المركز، والذي قرر التحرك فورا للوصول إلى الفتاة رغم قلة الضمانات الوافدة إليهم..

فكرت شخيتيليه قصيرا..

عندما تأتي الأوامر من الرأس الأكبر، فما عليها هو التنفيذ فحسب..

الفصل 35

تشبتك الأيادي فوق النهرين..

غرباء كثر..

ووجوه لا تعرف الرحمة..

هناك غربا..

لا سلام لما اقتلعت..

بحدقتين زرقاوين غائرتين. كانت عينا البروفيسور ميشيل ليون تفكان لغز الرقيم المسجى أمامها وأمام عيني البروفيسور جاك روند.

”إنه واضح بروفيسور“. قال روند، “تخيل أن جلبة وفوضى كانت قد حدثت بعد دخول هؤلاء الغرباء إلى بابل. هذا السطر قد يشرح لنا أن أكثر من جيش كان قد دخل إليها. غرباء كثر. فقد يكون الغزاة دخلوا المدينة متحالفين مع جيوش من أم أخرى!“.

كان ليون غارقا في صورة بانورامية تمر تخيلا أمام عينيه. جيوش من البربر. وجوه غريبة وقاسية ترفع سيوفها وفؤوسها بوجه شعب بابل. بوجه نساء وأطفال اقتلعتوا من أرضهم عنوة. بل نفوا إلى مكان غربي بعيد حيث تم تغييرهم. شعر بأن ما يصفه الرقيم هو كارثة لا توصف..

”بروفيسور؟“. قال روند. فيما انتفض ليون من سكرته التخيلية الطويلة كعصفور هبطت عليه قطرة مطر.

”آسف بروفيسور“. قال ليون، “كنت أفكر فيما يمكن أن يكون قد جرى ببابل. هل يعقل أن كل هذا قد جرى في زمن الاسكندر؟ الرقيم لا يعطي أية معلومات حول زمن الحدوث أو هوية الغزاة. وليس في التاريخ ما يشير إلى أن جيش الاسكندر قد قام بكل هذه الأفعال الوحشية عقب غزو بابل وأخذها من جيوش بلاد فارس!“.

”لم يتبين لنا زمن بعد بروفيسور“، قال روند. ”قلت لك إنه يغطي مساحة تاريخية لم يحك عنها من قبل. لا أعتقد أنها فترة غزو الاسكندر للمدينة! إذ لم يهجر شعب بابل إلى غربها كما قال النص في بدايته: نحو مغيب الشمس يكون الرحيل. كسعة تفتلها الريح بعيداً“.

عادت تلك الصور أمام عيني ليون. وتمتم في نفسه..

هناك في الغرب..

لا سلام لما اقتلَع..

”توفيق، لقد انتهيت من عملي في شقتك. سأغادر الآن. تصرف كما لو أنني لم أحضر إلى هنا قط“.

أقفلت كلارا المحمول مع توفيق. واستذكرت مرة أخرى رسالة البريد الإلكتروني الثانية التي وصلتها حينما كانت في شقتها قبل ساعة. فلم تعر الأولى اهتماماً. فهي كانت جدول Excel فحسب.

وضعت هاتفها المحمول في جيبها. ولم يبد أنها تستعد فعلاً للمغادرة. رغم أن الظلام قد بدأ يخيم على المكان داخل الشقة رويداً..

داخل مركز الاتصالات في عمان. كانت لبنى قد علمت تماماً بتفاصيل آخر اتصال أجرته كلارا مع توفيق. بعد أن تم تسجيل المكالمات وسماعها عبر مساعدتها في القسم المختص داخل المركز. لم تنتظر طويلاً. وأخبرت ناحام بما تم الاستماع له فوراً عبر اتصال خاص..

قرباً من شقة توفيق. وعلى بعد شارع واحد. اقتربت البي أم دبليو الحمراء صانعة مثلثين من الماء متدين وراء إطاراتها على أرضية الشارع ومقتربةً بحذر من الشقة. لقد أخبر ناحام إبراهيم بتفاصيل الاتصال الأخير..

كان إبراهيم مصرا على أن لا تفلت كلارا من قبضته هذه المرة بأي ثمن. بل إن أولوياته تحولت من العثور على نصفي الرقيم إلى العثور على كلارا نفسها لمعاقبته على أحداث اليوم الديناميكية المجنونة التي تسببت بها. كان يقود بحذر بالغ. فلم يرد لسيارته أن تتوقف بفعل المياه مرة أخرى على بعد أمتار من مكان تواجد غريمته..

تحرك ماسحات المطر بسرعة على زجاج سيارته الأمامي. وتمتد أضواء مصابيحها الأمامية كرمحين وسط المطر الكثيف الهابط كالسيل من سماء المدينة. الظلام يخيم على كل شيء إلا ما تسقط عليه تلك الأضواء. تقترب البي أم دبليو الحمراء من المبنى الذي يضم شقة توفيق. قريبا جدا. وتشتعل أضواء السيارة الحمراء الخلفية معلنة الوصول إلى الوجهة تماما..

ألقى إبراهيم نظرة فاحصة على المبنى الذي يضم شقة توفيق. لكنه كان واثقا -بفعل التنصت الذي يجريه ناحام على اتصالات كلارا- بأنها هنا. ولن تبعد أكثر. وتأكد من ذلك أكثر. عندما لاحت لناظريه سيارة دفع رباعي سوداء مركونة في شارعٍ فرعي مجاور..

أوقف سيارته على مسافة أمتار فقط من المبنى. وقد حرص أن لا تطل أي نافذة من نوافذ الشقة الهدف على سيارته منعا لرؤية كلارا لها إن كانت في الداخل. بقي بداخل السيارة بانتظار أي تحرك من الفتاة. بعد أن أكد وجود سيارتها وجودها في مكان قريب.

الفصل 36

في جو مشحون بالعاطفة والوجل. وبقلب يخفق مهابةً. كان ناحام يحدث شخصا على مستوى عالٍ من الأهمية في إسرائيل. بل بين اليهود على الأرض جميعا. كان سبب مجيئه إلى تل أبيب هو لقاء هذا الرجل الطاعن في السن على جناح السرعة بعد أن اكتشف ما يحمله الرقيم الذي جاءه من العراق عن طريق عماد ابن خليل الحسين. لقد أصبح القباليون قاب قوسين من إتمام الزوهار.

”هل تعي ما تقول ناحام؟“

”بلى سيدي. إنه المتمم الموعد.“

ارتفع كتفا الرجل العجوز لبرهة بصمت تام. قبل أن ينشج بكاءً وتلمع عيناه المكسرة جفونهما دمعاً. سحب نفساً وأطلق زفيراً حاراً وقال هازاً رأسه: لقد اقتربت ساعة الماشاح..“

أحنى ناحام رأسه. ثم نظر إليه وقال: ”سيدي. علينا أن نستنفر جهود القباليين جميعاً الآن لاستعادته من يد الفتاة. يجب أن لا يعرقل الحريديون جهودنا. فإنهم إن علموا. تصرفوا بعكس ما تشتهي سفننا كما هم دائماً.“

رد العجوز: ”آه أيها الحريديون. كم قلوبهم باردة ومطمئنة فيما قلوبنا حترق. كيف يمكنني أن أسميهم يهوداً وهم يدعون كل شيء يسري لوحده ويتركون ماشاحنا متأخراً عن المجيء إلينا وتسليمنا حكم هذه الدنيا! كيف يمكنهم النوم مطمئنين والماشاح يتأخر كل هذه السنين! قلبي على شعب إسرائيل الذي ما زالت أعين الخطر تحرق به من كل جانب. نحن القباليون أحباب الماشاح لوحدها. بسعينا كل هذا الدهر وراء إتمام الزوهار المقدس لتعجيل نزوله. أيها الرب العظيم. يا من اخترتنا شعبك المختار. أوصل هذا الرقيم سالماً إلى أرضك المقدسة. ودع عيوننا تبيض من دمع الفرح لنزول ماشاحك بفضل زوهارنا المقدس. أيها الرب العظيم. يا من أنجيت شعبك المختار من عوادي كل هذه القرون. وأنقذته من شفا حفرة الزوال مراراً. دع هذا العزيز يصل إلى أرضنا هذه بسلام..“

ثم تلا بصوت صدى الآية الثامنة من الفصل السابع عشر من سفر التكوين:
 ” وَأَعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غَرْبِكَ. كُلُّ أَرْضِ كَنْعَانَ مَلِكًا أَبَدِيًّا.
 وَأَكُونَ إِلَهُهُمْ...“.

كان ناحام حاني الرأس يستمع بخشوع إلى دعاء الرابي الذي يرأس طائفة القابالا في مجمع رؤساء الطوائف. والذي يضم رؤساء الطوائف اليهودية المختلفة الأهم: السفارديم والأشكناز والحريديم و المتدينين العلمانيين ورئاسة القباليين. حيث الصراع الديني بينهم مستمر وخاصة مع الحريديين. إذ يعتقد القباليون أنهم إذا ما أتوا الزوهار وقاموا بأداء طقوسه وصلوا إلى رؤية الرب كما رآه حزقيال. عندها سيطالبونه بالتعجيل بظهور الماشاح الذي سيقم مملكة السماء على الأرض. فيما يرى الحريديون أن على اليهود تسليم أمرهم للأقدار وانتظار الماشاح ليأتي لوحده عندما يرى أنه قد حان الوقت المناسب للظهور وإقامة دولته العالمية.

كان الرابي ما يزال بوجه حزين مجعد يجرد أنفاسه بصعوبة. تنهد ثم قال:
 ”ناحام. اعرض على الفتاة ما تريد. امنحنا بتدبيرك الخلاص!“.

هز ناحام رأسه. ونهض مودعا الرابي بقمة الوقار والاحترام. ثم هتم بالخروج من المبنى الكبير حيث كان. فيما كان القلق ما يزال ساريا بدمه من إمكانية حدوث خطأ من قبل إبراهيم في متابعته لكلارا.

في أطراف جنيف. كانت كارين شخيتيليه تتابع أخبار عميلها في عمان والذي يجب أن يلتقي الفتاة حاملة الرقيم. قالت له بأن يكون جاهزا. فهي ترتب عبر رسائل إلكترونية مع الفتاة عملية اللقاء. رغم أنها اشتكت صعوبة التعامل معها بسبب مراوغتها بحجة الخشية على حياتها.

قبل دقائق. كانت كارين قد أنهت اتصالاً مع الرابي كبير طائفة القباليين في مجمع رؤساء الطوائف في تل أبيب. إذ أخبرته - بتوجيه من مدير المركز- بخبر البريد الإلكتروني الذي أشار إلى وجود تكملة الزوهار لدى فتاة يهودية في عمان. طلب العجوز من كارين أن تتأكد بالمزيد من الضمانات والتأكيدات أن ما تقوله الفتاة صحيح. رغم أن التأكيد الحاسم كان قد وصله عبر الذي أكد له بأنه قد رأى نصف الرقيم بعينه، والذي عاد يؤكد صحة ما ذكره مركز جمع تراث يهود الشتات من معلومة. إلا أن الغضب الكبير كان بادياً عليه أمام الرابي الكبير لما بدا من أن كلارا قد اتصلت بذلك المركز لتتم ما يبدو أنها صفقة بينها وبينهم. باستخدام رقيم أتمناها عليه.

في عمان. كان إبراهيم قد أمضى نحو نصف ساعة بانتظار أي تحرك يصدر من كلارا إلى خارج شقتها. كان رابضاً بسيارته وقد أطفأ جميع أنوارها. أراد لهذه المرة أن تكون الأكثر إحصاءاً للقبض على الفتاة. لذا، وضع التسرع في المبادأة جانباً. وبقي مراقباً فحسب..

فجأة، كسر صمت السيارة صوت هاتفه المحمول بنغمة تطبيقه الخاص.

ناحام يتصل بك.

رد إبراهيم سريعاً. كان العجوز يسعل أثناء حديثه.

”إبراهيم. ما الذي يجري عندك؟“ رد الشاب: ”ما زلت أراقب. هل حصلت على أي اتصال جديد من مركز الاتصالات؟“

أجاب العجوز: ”بلى. لقد ورد اتصال من كلارا إلى أحدهم قبل قليل كما أعلمني مركز الاتصالات. لقد اتصلت كلارا بصاحب الشقة تخبره فيه بأنها تتجه لمغادرتها. يبدو أنها ما تزال فيها حتى الآن. و بالتأكيد فإن النصفين بحوزتها.“

قال إبراهيم: "سيدي، أرجو أن تمنحني الإذن باقتحام الشقة. أنا أيضاً متأكدٌ من أنها في الداخل الآن!".

نظر ناحام إلى ساعته وأجاب: "حسناً افعل. لكن عليك أن تكون حذراً هذه المرة. لا وقت لدينا، فلا تنسَ أبداً أن سفينة اليونان ستنتطلق في السادسة من صباح الغد".

"واضح سيدي!". قال الشاب وهو يهيم بالترجل من السيارة ..

"حظاً طيباً". رد ناحام.. وأغلق الخط.

في ميناء العقبة، كانت السفينة الكبيرة (Star Gate) تستعد لرحلتها في السادسة فجراً إلى سواحل اليونان مروراً بالبحر الأحمر وقناة السويس والبحر الأبيض المتوسط. حيث كان مكان إبراهيم على ظهرها محجوزاً عن طريق ناحام العجوز، عليه أن يبلغها والرقيم بنصفيه في يده. أو أن ناحام سيكون بأعلى درجات غضبه.

الفصل 37

يجتمع السادة فيما بينهم..

وببدأ الصراع بلا أياد..

قال أحدهم ما كان قد اقتلع عليه أن يعود لمكانه..

تلا البروفيسور ميشيل ليون تلك الكلمات من على الرقيم المسجى أمامه وأمام البروفيسور جاك روند. حك روند أنفه وهو يفكر بما يمكن أن يفسره لتلك الكلمات. "ما زلت مصرا على أن من غزا بابل كان خالفا لعدة جيوش. وأعتقد أن ما يقال هنا يصور اجتماع قادة تلك الجيوش للتعبير عن ندمهم عما حل بشعب بابل. رأي أحدهم بإعادة المبعدين إلى أرضها. أليس هذا منطقيا بروفيسور؟".

رفع ليون نظره عن الرقيم وقال: "حتى الآن يبدو منطقيا. لكنني لست متأكدا من كل تفسيراتنا لما قرأناه حتى اللحظة".

"معك حق. رباه! إنه أصعب رقيم مر علي في حياتي". قال روند ضاحكا.

رفع البروفيسور حاجبيه وقال: "وهنا تكمن المتعة!.."

السابعة وأربعون دقيقة مساءً.

لم يطق إبراهيم الانتظار أطول ما انتظر. لا يمكن أن يدع أميال الساعة تتلاقف الدقائق دون أن يحرك ساكناً. فتح باب سيارته البي أم دبليو وترجل منها. خطا في سمك المياه نحو المبنى الذي يضم بثقة توفيق. كانت السماء تمطر بغزارة كبيرة. لقد غرقت عمان مراراً بفعل السيول التي تتسبب بها الأمطار. وخشي إبراهيم أن تغرق هذه المرة من جديد. فسيول العاصمة الأردنية تقتلع كل ما بطريقها إن وصلت إلى ذروتها. بل تحمل السيارات فوق أمواج مياهها كألعاب أطفال صغيرة وتهوي بها في الأماكن الأكثر انخفاضاً.

صدر صوت أقدامه وهي تخرم المياه التي غطت الشارع. وبدأ يسير باتجاه مبنى شقة توفيق.

داخل الشقة. ضغطت كلارا على شاشة نقالها. فتم إرسال رسالة بنجاح. ثم انتقلت فورا إلى تطبيق يوتيوب. لتكتب اسم مقطوعة موسيقية شهيرة. ثوانٍ وتسللت منه موسيقى هادئة. كانت تلك هي مقطوعة فالفيدي (الشتاء). والتي هي جزء من سيمفونيته (الفصول الأربعة). بدأت الموسيقى تتسارع مع ثوانيهما العشرتون الأولى. فيما كان إبراهيم يقترب من المبنى. سيصل إلى سياجه الخارجي الواطئ قريبا. وسيخطو إلى داخله. لن تكون كلارا أبعد من مجرد خطوات على السلالم. وباب للشقة..

أصبح بجوار الجدار الخارجي للمبنى. كان الرصيف أعلى قليلا من الشارع. استطاع إبراهيم إخراج قدميه من المياه. وبدأ يسير بجوار الجدار نحو الباب. فيما كانت كلارا ترجع رأسها إلى الوراء على كرسيها. وهي تستمتع بمعزوفة فالفيدي. وتتحمس دفاء المكان بعد برد قارس في الخارج. لم تكن تعلم بأن أقدام إبراهيم لم تكن سوى بجوار المبنى الذي هي فيه. غمرت الطمأنينة قلبها. فيما ضرب قلب إبراهيم أضلاعه بشدة وهو يقترب أكثر من مبنى شقة توفيق حيث يجب أن تكون كلارا. إلا أن نقاله اهتز معلنا وصول رسالة ما.

أخرج إبراهيم النقال من جيبه. وبصعوبة بالغة. استطاع النظر إلى ما هو مكتوب على شاشته. فقد غطت قطرات المطر تلك الشاشة بمجرد أن أخرج الجهاز من جيبه. كانت تلك رسالة من ناحام:

أترك كلارا فورا. لقد فهمت ما تقوم به.

كانت لبني ترخف لما تقوم به. شعرت بألم في بطنها وهي تحول كل المعلومات الصادرة من نقال كلارا ما ترسله على هيئة رسائل نصية واتصالات. إلى ناحام الذي ينتظر منها أية إشارة تصدر منه. بدت شاحبة وهي تتخطى صلاحياتها في مركز الخدمة وتحول إمكانياتها إلى تجسسية بحتة لصالح الرجل اليهودي. وآخر ما أرسلته له. تفاصيل رسالة نصية صدرت من نقال كلارا إلى رقم آخر يحمل صاحبه اسم *ديفيد ايتان*. ولم يسمح زميلها في المركز بالكشف عن المزيد عن هويته. لقد سمح لها باسمه فقط متحفظاً عن إعطاء المزيد. فقد بدأ يشعر هو الآخر بخطورة ما يقوم به معها. أرسلت لبني محتوى الرسالة إلى العجوز. دون أن تفهم ما يجري بينه وبين عميلته الأقرب كلارا. والتي يبدو ما يجري. أنها طعنته في الظهر.

كان ناحام يضع نظارته ويقرأ نص الرسالة التي بعثت بها لبني كنسخة من رسالة كلارا إلى ديفيد. كانت باللغة العبرية. قرأها وهو يرت على فخذه بهدوء..

بين الاتجاهات الأربع..

حيث الحضن الرخامي للملك التقى..

لتميل إلى اليسار..

واستمع للجدران..

فإن لها فمٌ.. وأذان..

في مقر مبنى مركز جمع تراث اليهود الشتات قرب جنيف، كانت كارين شخيتليه تنظر إلى الرسالة التي بعث بها عميلها ديفيد من عمان. ما قال بأن الفتاة قامت بإرساله إليه بعد أن حصلت على رقم نقاله من كارين نفسها. لقد قال العميل أن كلارا لم ترسل أكثر من هذا النص المكتوب باللغة العبرية.

“اتصل به”. قالت كارين لمساعدتها. وبعد محاولتين فاشلتين بسبب ضعف الاتصالات في عمان بفعل العاصفة، سمعت كارين صوت عميلها أخيراً.
“ديفيد؟؟”

“نعم كارين، تحدثي الآن. أسمعك بشكل واضح..”

“هل حاولت الاتصال بالفتاة بعد تسلمك الرسالة؟”

“نعم حاولت، إلا أنها تبدو وقد ألفت إمكانية اتصالي بها تفها. إنها تبعت برسالة فقط، هل فهمت النص؟”

“نعم لقد وصلني، لكنني لم أفهم المعنى منه، انتظر ريثما نحلل ما جاء فيه، لا تتحرك أبداً، إن هي اتصلت بك أو بعثت لك برسالة أخرى أخبرني فوراً”.

“مفهوم! قال ديفيد ايتان القابالي وقد دس نقاله في جيبه منتظراً أمر شخيتليه التالي.

تراجعت سيارة إبراهيم عن مبنى شقة توفيق. أمسك بنقاله واتصل بناحام عبر تطبيقه الخاص.

“أين أنت؟”، بادر العجوز الحوار الهاتفي.

“ابتعدت عن شقة توفيق، ماذا جرى سيدي؟”

“جيد، عليك أن تفهم أن الأثر هو الأولوية بالنسبة لنا الآن يا إبراهيم، اترك كلارا فسأصفي حسابي معها لاحقاً”.

”أليس الأثر بحوزتها سيدي؟“.

”يبدو أنه ما زال معها، لقد فهمت الآن أنها بعثت بإشارة إلى شخص آخر تخبره فيها عما بدا أنه معلومة عن مكان الأثر، يجب أن نفهم حركتها القادمة، لا تترعش الدبابير، فقد تهرب منك، أو تلدغك!“.

”تعني أن علي الابتعاد عنها؟“، قال إبراهيم وقد شعر بسخونة في رأسه، فقد أحس باستفزاز ناحام له وهو ينعت كلارا بالدبور الذي قد يلدغ شاباً بحجمه، ”وماذا عن المكان الذي قالت بأن الأثر فيه؟“، قال متحاملاً.

”عليك أولاً أن تكون هادئاً، لن تغادر كلارا الأردن على الأقل هذه الليلة، لقد اتصلت بمطار الملكة علياء وفهمت بأن كل الرحلات متوقفة اليوم بسبب الحال الجوي السيء، لن يكون أمامها سوى الاختباء في البلاد، لنتفرغ لاقتفاء أثر الرقيم أولاً، لتكون من نصيبك لاحقاً“.

”سيدي، أين أذهب الآن!“.. قال إبراهيم وهو ينظر إلى برج فندق رويال الشامخ وسط العاصمة الأردنية، شاعراً بالحيرة من قيادة سيارته في أي اتجاه.

”سننتظر الإشارة التالية الصادرة من نقالها، لا تنسى، مركز الاتصالات تحت سيطرتي، أعلم بأن رسالتها الأخيرة غامضة، لكنها بداية الخيط!“.

”حسناً سيدي، ساذهب إلى مكان قريب، وسأكون بانتظار أوامرك“.

اغلق ناحام الخط فوراً، وعاود قراءة النص الذي وصله من لبنى من جديد..

بين الاتجاهات الأربع..

حيث الحُضن الرخامي للملك التقي..

لتَهمل إلى اليسار..

واستمع للجدران..

فلإن لها فمَّ.. وآذان..

كانت عينا مدير مركز جمع تراث اليهود الشتات قرب جنيف تمران على ذلك النص العبري ظاهراً في شاشة حاسوبه، حيث قامت شخيتليه بتحويله إليه مباشرةً. فيما كتفت الأخيرة ذراعيها ووقفت إلى جانب مكتبه.

”أرسله عميلنا ديفيد ايتان. قال بأنها بعثت به إليه، سنكون في حرج إن لم نتوصل إلى ذلك الرقيم سيدي، سيما بعد أن بعثنا إلى القباليين في مجمع السنهدين بأننا توصلنا إلى تكلمة الزوهار!“. قالت كارين وهي تلف خصلةً من شعرها بإصبعها. رفع المدير رأسه، وردد بصوت مسموع: ”الملك التقي!“.

الفصل 38

لم يستطع كل من البروفيسورين ميشيل ليون وجاك روند حل الاحجيات التي قرأها على الرقيم حتى الآن. وتابعا القراءة أملاً فيما يمكن أن يقرب لهما الصورة..

بابان يتحطمان..

تخرقهما أياد لا تريد لهما خيراً..

وتتصارع على مداخلهما..

غرب بابل يغرق..

وشرقها يقتله الظمأ..

”ماذا تقول بروفيسور؟“. قال روند وهو ينظر إلى تلك الكلمات على الرقيم.

”لا أعلم جاك، كلما غصنا في النص أكثر تعقد أكثر. كل تخيلاتنا السابقة تذهب سدى مع كل سطر جديد نقرأه!“.

”ميشيل، صدقني، هناك من ارتعب من شر لحق ببابل وفر منها غرباً، وهذان البابان ربما يكونان بوابتان لبابل حدثت على أعتابهما مجزرة عظيمة، لكن من الذي خرقهما؟ وفي أية مرحلة؟ إلى متى يبقى من كتب هذا على الرقيم لا يوثق الفترة؟!“.

”هل يمكنك البت فيما قلت بروفيسور؟“. قال ميشيل.

”أبداً، لكننا نضع التخمين الأقرب!“.

حك ميشيل ذقنه وقال: ”لنستمر بالقراءة!“.

”الملك التقي“. قال مدير مركز جمع تراث اليهود الشتات. أجابت كارين: ”الحضن الرخامي. ماذا تريد الفتاة لتقول؟“.

نهض المدير ببذلته المشوقة على جسمه. كان يبدو بعمر الخمسين ويغزو الشيب جوانب رأسه. نقر بحذائه على أرضية الغرفة اللامعة وهو يخطو خطوات تأملية. تتمم قائلاً: ”الحضن الرخامي للملك التقي!..“

بدت كارين حائرة هي الأخرى وهي تنظر إلى شاشة حاسوبه على مكتبه. وتمعن بالكلمات كمن يبحث عن إبرة في كومة قش. عاودت التفكير بالرسالة الأولى التي وردتها من الفتاة..

Sayio!

Zohar missed text is here.

Wado.

كانت كارين تحاول أن تفهم الطريقة التي تشفر بها الفتاة رسائلها. أو على الأقل أن تتوصل لفهم الطريقة التي تفكر بها. فمن خايا السكان الأصليين وأمريكا إلى رسالة بالغة العبرية لا تضع مجالاً لفهم ما ورد فيها. أصبحت كارين تضغط على مخها لاستحصال معنى للرسالة.

بين الاتجاهات الأربع..

حيث الحضن الرخامي للملك التقي..

لتميل إلى اليسار..

واستمع للجدران..

فإن لها فم.. وأذان..

في تل أبيب. أشعل ناحام غليونه من جديد. وراح يتمشى في مكتبه وقد وضع نقاله أمامه على الطاولة. منتظراً ما قد يرد من مركز الاتصالات في عمان. إبراهيم ينتظر إشارته الآن. والوقت يقترب من انطلاق الباخرة ستاركيت وترك سواحل العقبة. ما زال نصفاً الرقيم لدى كلارا. و ما زالت آمال القباليين في مجمع رؤساء الطوائف معقودةً بانتصاره وإعادته للرقيم ليكمل الزوهار المقدس. تلمس العجوز الخيط الأحمر الملتف على معصمه. وعاود النظر إلى ساعة الجدار..

الثامنة مساءً.

عشر ساعات على أبحار ستاركيت.. فقط.

خطا إلى مرآة على الجدار في تلك الغرفة. مرآة تجاور لوحة جسد سقوط أورشليم بيد البابليين. شبيهة بتلك التي يعلقها في بيته بعمان. نظر إلى نفسه بالمرآة. وفكر فيما أحدثه بكلارا. كيف كانت تطيق وجهه المجعد والندب البنية الظاهرة على جانب رأسه. عندما كان يمددها على أرائك مكتبه أو منضدته. وتبدأ يديه المجعد جلدهما بالتسلل إلى جسد مساعده الرقيق. لتنتثر أصابعه فيه انتشار الجراد في الحقول..

ابتسم متذكراً لذة تلك الليالي. حتى استعادت ذاكرته أمر النصفين..

ما زال لدى الفتاة!..

في جنيف. جلس مدير المركز ليضرب على لوحة المفاتيح في حاسوبه. لم ينطق كلمة واحدة. فيما راحت كارين تراقب ما يقوم به دون أن تنفوه بكلمة..

”الملك.. التقى..“. كان يتمتم وهو يطبعها على مترجم غوغل. وضعها باللغة العبرية ليطلب ترجمتها إلى الانكليزية. ضغط على ”دخول“ فظهرت النتيجة: (The pious king).

ابتسم المدير. ونظر إلى كارين التي لم تفهم شيئاً ما يقوم به. استدار بكرسيه نحوها وقال بصوت هادي: "حضن من رخام. وملك تقي. هل يذكرك هذا بشيء سيده شخصيتليه؟".

افلتت كارين خصلة شعرها وقالت: "ليس تماماً أيها المدير". نظر المدير لها مطولاً. ثم قال: "كلمة (بيوس) يجب أن تذكرك بالأسماء الرومانية. فمعظمها كان ينتهي بحرفي الواو والسين. انطونيوس. يوليوس. سيناتوس. أليس كذلك؟".

هزت كارين رأسها وقد ازداد اتساع عينيها. "أما الحضن الرخامي". أكمل. "فهو إشارة أخرى إلى أن هناك ربطاً بين ما تريد أن تقوله الفتاة والرومان القدماء. فمعظم ما بنته الحضارة الرومانية كان من الرخام. والآن. أصبح لدينا إشارتان عن حضارة روما: بيوس والتي تعني التقي في اللغة اللاتينية. وبقيت كما هي في اللغة الانكليزية. والحضن الرخامي الذي يشير إلى العمارة الرومانية..".

"أيها المدير". قالت كارين. "خليلٌ موفق. لنعد الآن إلى النص الذي أرسلته الفتاة". لم يحرك المدير عينيه. وبقي ينظر إلى كارين. قال: "لا داع. لقد حفظته عن ظهر قلب!".

ابتسمت شخصيتليه بتصنع وهي تقاوم نظراته الراكزة عليها. قال بشفاهٍ تتحرك ببطء:

بين الاتجاهات الأربع..

حيث الحضن الرخامي للملك التقي..

لتمل إلى اليسار..

واستمع للجدران..

فإن لها فم.. وأذان..

صمت لوهلة، ثم قال: "هل عرفت الملك التقى الآن؟".

طقطقت كارين عظام رقبته وقالت متحاشيةً النظر إلى عينيه: "ملك روماني على الأغلب". فغر المدير فاه وانطلق ضاحكاً. ثم قال لها: "كارين، بيوس هو بيوس!".

ارتفع حاجبا شخيتيليه وقالت: "هل تعني أن ذلك هو اسمه؟".

"بلى"، قال وهو يخفي ابتسامته، "أنتونيوس بيوس هو الملك التقى!".

تراجع خط الزمن في ذهن كارين إلى الوراء، فهي تعرف أن هذا الاسم لم يكن غريباً على كم المعلومات الذي في رأسها. فاسم أنتونيوس بيوس ليس اسماً تسمع به للمرة الأولى في حياتها، سيما وهو يرتبط بالحضارة الرومانية التي كانت على صلة من المشاكل والعداء مع شعب صهيون القديم.

نهض المدير من كرسيه، وبدأ حذاؤه يطقطق على أرضية الغرفة اللامعة، كتف يديه إلى الوراء وراح يتحدث:

"أنتونيوس بيوس، حكم الامبراطورية الرومانية كواحد من أفضل أباطرتها، يعده التاريخ من ألمع أسماء تلك الامبراطورية، فهم يأخذون عنه كونه مسالماً، وبأنه واحد من المتسببين بعهد من الازدهار والعمران في الحضارة الرومانية. أما بيوس، فتعني التقى، المبارك، وهو لقبٌ لم يحصل عليه أنتونيوس إلا بعد وفاته، إذ سمي بذلك تقديراً لدوره في ازدهار الامبراطورية".

"أنتونيوس بيوس!، قالت كارين، "وما قصة الحزن الرخامي؟".

قال المدير: "إنه إشارة إلى إحدى المدرجات الرومانية التي بنيت في عهده كارين، فكل المدرجات الرومانية تتخذ شكلاً نصف دائري، لذا سينطبق عليها وصف (الحزن الرخامي)، كما أنها مبنية من الرخام، أما أي مدرج منها وهي عديدة، ولأن بطلتنا في عمان، فلا شك أنها تقصد المدرج الذي في وسط العاصمة الأردنية.

”تقصد المدرج الروماني في وسط المدينة!“

”بلى“. قال المدير، وجلس على أريكة في مكتبه، وأكمل قائلاً:

”بين الاتجاهات الأربع، حيث الحضن الرخامي للملك التقى، لتملّ إلى اليسار.. اتصلي الآن بديفيد، وقولي له أن يتجه بحذرٍ إلى المدرج الروماني في وسط المدينة، وليذهب إلى جانبه الأيسر، هناك أمر تركتها الفتاة له!“

”هذا جنون أيها المدير!“، انتفضت كارين، ”كيف يمكننا إرساله إلى هناك في هذا الظرف! المدينة تغرق بوابل أمطارٍ كثيفة، لن يكون هناك أحد في المدرج سواء، سيثير هذا شكوك قوات..“

”افعلي فحسب!“، قال المدير بلهجةٍ غاضبة، ”لقد درينا ديفيد لسنواتٍ من أجل مهمات كهذه يخدم من خلالها إرثنا المتناثر على وجه الأرض! حان موعد قطف ثمار تدريبنا سيده شخيتيليه!“

زمت كارين شفيتها، وخرجت من مكتب المدير نحو غرفة الكومبيوترات بخطواتٍ غاضبة، دخلت الغرفة فوراً، ونادت على مساعدتها الجالس أمامها، وعندما التفت إليها تاركاً شاشة حاسوبه، قالت له:

”اتصل بديفيد ايتان فوراً.“

الفصل 39

كانت كارين شخيتيليه تضع سماعة لا سلكية وجُوب أروقة غرفتها. فيما كان الهاتف يرن في عمان. فُتح الخط أخيراً.

”ديفيد؟“ قالت.

”أجل سيدة شخيتيليه، تحدثي!“ قال ديفيد وهو ينتظر أوامرها.

”اسمع سيد ايتان. المدير يطلب منك أن تذهب فوراً إلى المدرج الروماني وسط العاصمة، قرب المدينة القديمة، وعندما تدخل إليه، اذهب إلى الطرف الأيسر منه. هناك رسالةٌ ما تركتها الفتاة، هذا وفق ما فهمناه من الرسالة القصيرة التي أرسلتها هي إليك.“

لم يفهم ديفيد العلاقة بين الرسالة القصيرة وما تطلبه كارين. لكنه يعرف أن عليه تنفيذ الأوامر فحسب.

”طيب! لكن أي رسالة سأجد هناك وقد أغرق المطر كل شيء؟“

”لا أعلم، تفحص المكان جيداً، الطرف الأيسر هو ما يجب أن تصل إليه، قد لا يكون ما تركته هناك رسالة، لا نعلم ماهية ما تركته هناك ديفيد.“

”علم.“ قال ايتان وهو لا يمتلك أدنى فكرة عما يجب أن يجده هناك.

تفحص مقتنياته جيداً، ثم هم بالخروج من مخبأه في شقة وسط العاصمة الأردنية، خرج منها إلى خارج المبنى الذي تقع فيه شقته، كانت السماء قد اظلمت تماماً ولم ترها إلا عروق البرق الشديد الذي يحولها إلى نهار بين الفينة والأخرى، استحال كل شيء مبلاً عن آخره، وغرقت الشوارع بمطر لا تستوعبه مستقبلات مياه الأمطار.

كان ديفيد يخطو نحو الشارع باحثاً عن سيارة أجرة تقله إلى وسط البلد. فيما شعر بأن مياه المطر تنساب من رأسه الأصلع إلى جسمه كله. بدت ملابسه السوداء تلمع لما عليها من المياه.

راصفاً سيارته في شارع صغير. كان إبراهيم بانتظار أوامر ناحام. لا يعلم كيف ستنتهي هذه الليلة، الثامنة والربع مساءً. لم يبق لإبحار ستاركيت سوى أقل من عشر ساعات. يجب أن يتم خلالها انتزاع قطعتي الرقيم من كلارا. وتصفية حسابه معها.

شعر بالغباء الشديد لما أولاه من ثقة لها في شقيقته. حين تركها مع نصف الرقيم وحدها في غرفة المعيشة. ليكون فريسة سهلة ليد كلارا الرشيق وخطواتها السريعة. شد على قبضة يده وضرب مقود سيارته بغضب. كيف تركها لتفعل في ذلك الزقاق الضيق. حين استقلت سيارتها وهمت بالفرار. كان عليه أن يكسر زجاج سيارتها ويقبض على رقبتها حتى الموت..

نظر إلى شاشة نقاله. لم يتصل ناحام بعد.

كانت عشر دقائق قد مرت منذ استلم ديفيد ايتان تعليمات كارين من جنيف. بدا متحمساً للوصول إلى المدرج الروماني وهو يستقل سيارة أجرة يقودها شاب. ووفق خارطة نقاله. يقع المدرج الروماني على بعد أقل من كيلومتر واحد منه الآن. بدا الجو مشحوناً بكمية مطر وبرق وظلام. ستكون المهمة أشق إن كان هناك مانعة من حماية المدرج الأمنية. إذ أن هناك عدداً من رجال الأمن السياحي المسؤولين عن مداخل الموقع كموقع أثاري مهم.

دقائق أخرى. وأعلن سائق سيارة الأجرة نهاية الرحلة: "المرج على يسارك". قال السائق بلهجة بدت فلسطينية أكثر من كونها أردنية.

ترك ديفيد خمس دنانير مع الفكة للسائق. وترجل من السيارة.

ضرب البرق سماء العاصمة عمان. وضع ديفيد ايتان كفيه في جيوبه. وهم بعبور الشارع نحو أكبر مبنى أثري في العاصمة. إذ لا يفصل بين السوق القديم والمرج سوى شارع ضيق بأجاهين. عبره ايتان وترك مدخل المدرج على يساره. بدا كأنه لن يدخل إليه. استغل وجود شجرة صغيرة جانبية في الشارع. وانخفض ليربط شريطه حذائه تحت المطر. في الحقيقة. كان ايتان يسحب حربته الملتوية من تحت بنطاله. رمى بها إلى الشجرة المجاورة لسياج حديدي منخفض. تأكد من اختفائها بين الأغصان. ونهض واقفاً.

أعاد اتجاهه إلى الورااء نحو مدخل المدرج الروماني. ونظر إلى منظره المهيب.

كانت الأمطار تضرب نحو 40 متراً من الرخام المتراكم على بعضه مشكلاً المدرج الرخامي الرهيب. لتنسب مياهها من طابق إلى آخر صانعةً شلالات صغيرة فيه تصب جميعها في أرضيته الرخبية. أما الساحة الفسيحة التي أمامه. والتي يفصل بينها وبين ديفيد سياج حديدي منخفض. فكانت تلمع مع كل ضربة برق تأتي من السماء. لتمنح المشهد رهبةً أشد. ورعباً أكبر.

نظر ديفيد إلى الكشك الصغير الذي يكون عادةً مكاناً للشرطة والموظفين المكلفين بحماية المكان وقطع التذاكر. لم يبدُ ثمة أحد هناك. كانت أضوية إنارة كبيرة موجهة إلى ساحة المدرج عقبةً كبيرة أمام ايتان. لكنه ودون أن يطيل التفكير. وضع يده على السياج المنخفض. وقفز إلى داخل الساحة. تلفت يميناً وشمالاً. لم يبدُ أن هناك أحداً في الموقع. سار بمحاذاة السياج تحت المطر المجنون. ليصل إلى نهايته. حيث تنخفض الإنارة الكهربائية هناك. ثم انعطف يميناً وبدأ

يقترّب من المدرج الروماني الهائل الذي أصبح أمامه.

لم يكن أمام ديفيد سوى جدار مرتفع يحول بينه وبين المدرج بعد أن اجتاز الساحة المقابلة. وفي هذا الجدار، ليس هناك سوى باب خشبية كبيرة تدخل مباشرةً إلى المدرج. حيث يجد من يجتاها نفسه على المسرح، مقابلاً للمشاهدين من كانوا يجلسون على مساطب المدرج قبل قرون .

في تل أبيب. كان ناحام ينظر إلى ساعة على الجدار، الثامنة والنصف مساءً بتوقيت عمان الآن. لم يبق على إبحار ستاركيت سوى تسع ساعات ونصف. نظر إلى يساره. كان جهاز كومبيوتر محمول ملقّى على الأريكة وقد فتحت شاشته. نظر إلى ما بدا عليها وابتسم. ثم تلمس الخيط الأحمر مربوط على معصمه. وتمتم مع نفسه:

"أيها الزوهار، أنا قادم".

تركت كارين شخصيتيه غرفة الكومبيوترات وتوجّهت إلى غرفتها. جلست على الأريكة وعادت لمشاهدة بي بي سي. اشعلت سيكارتها وبدت في قمة التوتر. ماذا سيجري لديفيد ابان وسط هذه الظروف في عمان؟ ماذا لو ألقى القبض عليه وهو يحاول التسلل إلى المدرج الروماني ليلاً تحت وابل من المطر؟ ماذا لو فقدنا ديفيد؟ من سيتم العملية من بعده! هل الفتاة واثقة بما تقول؟ هل أنها فعلاً تمتلك تكلمة الزوهار؟

وعاود ذهنها السؤال مجدداً: من أين حصلت على البريد الإلكتروني الخاص بزبائن المركز المقربين؟!

كان شريط البي بي سي ما يزال ينقل ذات الأخبار التي تركته عليها. كل شيء بدا يسير طبيعياً. حتى شريط البي بي سي. ليست هناك سوى عاصفتين الآن. في

ذهنها. وفي العاصمة الأردنية!

قف!

صاح رجل أمن يرتدي رداءً من النايلون المضاد للمطر.

التفت ديفيد ايتان نحوه. بدا الرجل مقرباً من ايتان وهو يحمل بيده مصباحاً كهربائياً.

توقف ديفيد في مكانه. واستدار نحو الشرطي. اقترب الأخير منه وقال بلهجة أردنية: "ماذا تفعل هنا؟ كيف دخلت إلى هذا المكان؟".

ابتسم ديفيد واقترب من رجل الأمن. "الذكريات سيدي. الذكريات!". قال وهو يمسح رأسه الأصلع من مياه المطر.

"أية ذكريات! أعترف كم الساعة الآن؟ كيف دخلت إلى هنا؟ ألا ترى كثافة المطر؟".

"المطر. آه. هو الذي أتى بي إلى هنا سيدي. وجن جنوني بسببه. لقد تذكرت فتاتي حينما كنا هنا ذات يوم وأمطرت السماء علينا. لم نغادر المكان حينها. ورقصنا تحت المطر على المسرح الروماني معا كأننا نرقص أمام يوليوس قيصر. أصبح كل هذا من الماضي!".

كان رجل الأمن يقف أمام ديفيد ويشير بمصباحه نحوه مستمعاً إليه. فتش بعينه وبضوء مصباحه مظهر الشاب. لم يكن يبدو عليه أنه ملتح أو متدين. فعمان ما تزال تستذكر العمل الإرهابي الذي تعرضت له في العام 2007. حين نفذ إسلاميون عمليات تفجير في العاصمة عمان أودت بحياة عدد من المواطنين بينهم المخرج الشهير مصطفى العقاد. لتتحول تلك التفجيرات إلى هاجس لدى قوى الأمن الأردني. أما من يقف أمامه الآن. فهو شابٌ أصلعٌ يبدو متأثراً بالملابس والمظاهر الغربية. ويتحدث عن الغرام والذكريات.

اقترب رجل الأمن من ايتان أكثر. وضع مصباحه بين أسنانه. وتلمس ملابس ديفيد مفتشاً إياه. رفع ديفيد يديه إلى الأعلى وبدأ يغني أغنية المطربة العربية الشهيرة وردة الجزائرية. فيما راح رجل الأمن ينخفض بتفتيشه إلى ساقيه..

"أيام. بنعدا..

ولو فينا نردا..

كنا ردينا أوقات..

صارت هلاً ذكريات..

لكن يخسارة الحياة..

تمرق ما فينا نردا...!"

وقف رجل الأمن منهياً تفتيش ديفيد وأخرج المصباح من فمه. نظر إلى وجه الشاب العاشق. ثم أشار له برأسه ليكمل جولته في المسرح. قال له: "ادخل يعطيك العافية!"

الفصل 40

كان ديفيد ايتان قد اجتاز البوابة الخشبية المنغرسية في قلب السور الرخامي فاصلاً بين الباحة الخارجية ومسرح المدرج الروماني. رفع رأسه ناظراً إلى الأعلى. وامتلأت عيناه برهبة المدرج الهائل الشامخ أمامه.

كان يقف تماماً على مسرح المدرج. وينظر إلى مقاعده المترامية فوق بعضها من أمامه وهي ترتفع بنحو ثلاثين متراً. فيما بدت المياه تتهاوى من مدرج إلى آخر نحو الأسفل لتتجمع على أرضية باحة المكان. ولتبتلعها فتحة جمع مياه الأمطار المغروسة في وسط أرضية الباحة.

زار ايتان هذا المكان سابقاً. وفي تلك المرة. كان يستمع إلى دليل سياحي يسرد تفاصيله إلى زوار أجنب حينها. يتذكر ديفيد أن ذلك الدليل قال في جملة ما قاله أن هناك علامة على أرضية المدرج بشكل صليب تشير رؤوسه الأربعة إلى الاتجاهات الأربعة للمكان. وأن من يقف عليه ويصيح سيرتد عليه صوته بشكلٍ مدو. أما من يرفع صوته وهو على مسافة من ذلك الصليب فلن يرتد عليه من صوته إلا بعضه. شعر ديفيد بخيانة ذاكرته له. فلم تسعفه الأخيرة تذكر كل ما قاله ذلك الدليل العجوز عن المكان. أو لأن السواح الأجانب الذين كان يستعرض المكان لهم أعجبوا بما قاله الدليل وراحوا يغنون ويصرخون في المكان واقفين على ذلك الصليب الصغير. فامتنع الدليل عن إكمال سرده.

تلقت ديفيد حوله ليتأكد من ابتعاد رجل الأمن. دس يده في جيب سترته الداخلي وأخرج نقاله. حاول جاهداً منع وابل المطر من أن ينهمر على شاشته. وفتح رسالة الفتاة المكتوبة بالعبرية..

حيث الحضن الرخامي للملك النقي..

لتمل إلى اليسار..

واستمع للجدران..

فإن لها فمٌ.. وأذان..

أعاد ايتان الجهاز إلى جيبه، وبحث عن الصليب المحفور على أرضية باحة المدرج ليستطيع تمييز اليسار الواقعي للمكان. لكن مياه الأمطار كانت تغطي أرضية الباحة بارتفاع جعل من الصعب إيجاد الصليب. غرف ديفيد المياه المتجمعة بحذائه لإبعادها عن صليب الاتجاهات. مستعيناً بنور المصابيح الكبيرة الموضوعة أعلى المدرج، نظر إلى فتحة ابتلاع المياه وكان مكانها متوسطاً للباحة، وراح يستدل منه على مكان الصليب الصغير. فيما نعتت ملابسه تماماً بمياه المطر الذي لا يبدو أنه سيعطيه فرصة إكمال مهمته هذه الليلة. فجأة، برقت السماء بنور البرق الساطع، وانعكس النور على أرضية باحة المدرج، فاصطادت عينا ديفيد خطين متقاطعين على الأرضية الرخامية البيضاء..

كان الصليب على مسافة خطوة واحدة منه إلى الأمام. خطاها ايتان ليضع قدميه على جانبيه، أصبح صليب الاتجاهات بين قدميه تماماً. كان ذلك الصليب أصغر من حجم حذائه وهو يشير بأسهمٍ مدبيةٍ إلى الاتجاهات الأربع للمكان. تيقن ديفيد بأنه يقف في منتصف المدرج الروماني تماماً..

لتمل إلى اليسار..

تمتم ايتان مع نفسه، واجه إلى حيث يشير السهم الغربي الذي يؤدي إلى اليسار تماماً. إذ يشير ذلك السهم إلى النهاية اليسرى من المدرج النصف دائري. خطا في المياه المتجمعة محدثاً جلبةً السير في بحيرة المياه المناسبة مياها تلك، وأصبح

مقابلاً للجدار. نظر إلى البناء الأصم الذي يشكل النهاية اليسرى لمبنى المدرج الروماني. وبدأ يبحث عن نص مكتوب أو رسالة ملتصقة أو أي دليل آخر قد تتركه الفتاة هنا. تفحص بعينيه الجدار وما عليه. لم يكن يبدو أن هناك ما يشير إلى أي أمر متروك هنا. دس يده في السترة من جديد. واستعرض الرسالة تحت وابل المطر..

استمع للجدران..

فإن لها فمٌ وأذان..

شعر ايتان بالغباء لفكرة الاستماع إلى جدار أصم كما تريد الرسالة. لكن تعليمات كارين شخيتليه يجب أن تنفذ. وقد أوعزت له بمهمة العثور على أي إشارة قد تكون الفتاة تركتها هنا - في الجدار الأيسر للمدرج الروماني-. اثنى ديفيد ركبتيه. ووضع أذنه على الجدار..

ثوانٍ.. واتسعت حدقتا عينيه.

الفصل 41

في شقة توفيق. كانت كلارا تحتسي القهوة المرة وهي تتصرف كما لو أنها في شقتها. إذ تركت ملابسها على مدفأة كهربائية لتجف. واكتفت بملبسها الداخلي متنقلةً بين غرف الشقة ومطبخها حافية. جلست على الأريكة وأمسكت كوب قهوتها. وعاودت فتح نقالها محاولةً الحصول على شبكة اتصال تتيح لها إعادة فتح البريد الإلكتروني الثاني الذي استلمته هذا اليوم. بدت دائرة الانتظار على شاشة النقال مزعجةً لها. لكنها في النهاية أعلنت عن فتح الملف المرفق بالرسالة الثانية..

عاودت كلارا النظر إلى تلك الرسالة الغريبة. وصارت تقرأها الآن للمرة الثانية بعد فتحها في شقتها هذا المساء.

تنقلت بعينها على ما ورد فيها، والتقطت صورة للشاشة لتحتفظ بها. لن تحتاج إلى خدمة الإنترنت السيئة بعد الآن لتقرأ تلك الرسالة من جديد.

مددت ساقها على طرف الأريكة، ونظرت إلى حقيبة النصفين. وحقيبة المال. ارتسمت على وجهها نصف ابتسامة. وشعرت بالأسف لقتلها عماد الحسين عصر اليوم.

على جانب الشارع. كانت سيارة إبراهيم البي أم دبليو الحمراء ما تزال هناك. شعر الأخير بالضجر. لم ترد حتى الآن تعليمات من سيده ناحام بشأن التحرك نحو كلارا. تفحص التطبيق السري للتأكد. لا رسالة حتى اللحظة. اتكأ على مقعد سيارته، فيما باتت ماسحات المطر على زجاجها تتحرك كبندول ساعة قديمة.

أخرج ديفيد ايتان نقاله بسرعة. وراح يسجل ما يستمع إليه من صوت صادر من الجدار. كانت أغنية شبيهة بالإعلان التلفزيوني يتصاعد صوتها من الجدار الروماني. لصق ايتان أذنه بالجدار ليحصل على صوت أوضح وسط ضجيج الأمطار والرعد

الهائل الذين يخيمان على سماء عمان.

بدأت الأغنية تعاد وتكرر من جديد. صوت إعلان تلفزيوني يحمل صوت مذيعة تسرد تفاصيل ما بطبقة صوت تظهر على مقطع موسيقي كالذي يظهر في الإعلانات الإذاعية والتلفزيونية، ارتعب ديفيد ما يسمعه. فالجدار يصدر صوتاً بشكل حرفي. كما له فمٌ وأذان بالفعل. دون ديفيد في نقاله ما كان صوت المذيعة تقوله. ذلك النص الذي يستغرق سرده بصوتها نصف دقيقة فقط. ليعود التسجيل لعرضه من جديد.

للمرة الأخيرة. كان ديفيد يسمع ما يقوله صوت الفتاة. ويطابقه مع ما قام بتدوينه في نقاله. لقد اكتمل النص أخيراً بلا أخطاء. نهض واقفاً فتلاشى الصوت غائراً وسط ضجيج المطر الهادر. نظر إيتان إلى الجدار الذي أشعره بالرعب. واستدار عائداً للخروج من باحة المدرج، إلى الباحة الخارجية. حيث سيعود إلى الشارع المقابل للمكان.

كان ديفيد يسير في الباحة متجهاً نحو البوابة الخارجية. تلفت ليجد رجل الأمن. لكن الباحة كانت خالية من أي فرد قد يتواجد هنا. ضرب البرق السماء كسكين تخترق القماش. وارتعد الجو بصوت رعدٍ مدو. أسرع إيتان الخطف إلى الخارج وأصبح قريباً من السياج الخارجي المنخفض. تلفت يمينا ليعثر على الشرطي. ولم يكن هناك إلا الجدران وبعض الأشجار. ثم نظر إلى يساره. ليرى الشرطي ذاته في كابينة الحراسة. التقت عيناهما بعيني بعض. تصنع ديفيد ابتسامة للرجل. لكن عيني الشرطي لم تنزاح عنه. أحس ديفيد بخطب ما. وبدأ دماغه يحلل بسرعة ما قد يكون قد حدث عندما كان ملتصقاً بالجدار. لكن سلسلة أفكاره انقطعت فجأة. عندما ابتسم الشرطي أخيراً. ولوح له بيده مودعا.

أكمل ديفيد طريقه نحو باب السياج. كان مفتوحاً بشكلٍ جزئي. اجتازه
 أخيراً إلى الشارع تاركاً وراءه المدرج الروماني وباحته برمتها. استدار إلى اليسار
 بمحاذاة الشارع الفاصل بين المدرج والسوق القديم. ثم توقف لوهلة كرصاصةٍ
 علقت في الهواء. انخفض لربط شريط حذائه. وبينما هو منخفض، سحب
 سكينه الملتوية من بين أغصان الشجرة الجانبية الناقعة بالمياه. وأغمدتها
 تحت بنطاله..

ومضى.

الفصل 42

باريس.

من الأرض البعيدة..

يأتي النداء..

امشوا وراء قلوبكم..

النجاة في السفينة المحطمة..

كان البروفيسور ميشيل ليون يتكي كوعه على الطاولة التي وضع عليها الرقيم الغريب. ويحاول فك شفرة الأسطر المحفورة في طينه بيأس. شعر بأنه يغرق في الغموض كلما قرأ سطراً إضافياً منه. ولعل الروفيسور جاك روند كذلك، إذ نظر إليه ووجد أنه يزم شفتيه وهو يحاول عصر مخه لإيجاد تفسيرٍ لما يقرأه على اللوح.

”لو استمرينا بفرضيتنا..“ قال روند. ”بالقول بأن كارثةً يشوبها فيضانٌ ما قد حلت ببابل. فإنه هنا يطالب البابليين بالهروب من المدينة على متن سفينةٍ محطمة. تلبيةً لنداءٍ أحدهم. وقد يقصد به دعوةً ملكٍ آخر لهم باللجوء إلى بلاده!“

عاود البروفيسور ليون النظر إلى روند بعد أن أنهى كلامه. وشعر بأن الأخير يفترض افتراضاتٍ لا تشكل أية نسبةٍ صحيحةٍ قياساً بغموض المكتوب على اللوح. سحب نفساً وقال: ”أية سفينة بروفيسور؟ ليس هناك بحارٍ حيط ببابل! روند.. كلما ازداد تعقيد هذا النص شعرت بأن أهميته تتصاعد. لكننا إن قمنا بتحليل المكتوب على اللوح بشكلٍ صحيحٍ ومقنعٍ فسنكون قد فكينا شفرة العمر في مجال الآثار! لا شك أن ما عليه سيكمل فراغاً تاريخياً مجهولاً عن نهايات بابل وأقولها!“

حك البروفيسور جاك روند ذقنه وقال: ”بروفيسور ليون، أخبرتك وأخبرك الآن. هذا الرقيم يتحدث عن كارثةٍ حلت ببابل في آخر مراحل قيامها. صدقني! ليس بالضرورة أن يكون الحديث عن سفينةٍ مشيراً إلى وجود بحر. قد يكون في ذلك إشارة إلى استخدام شعبٍ أو جيشٍ أو قوةٍ ما للذهاب بحمايتها بعيداً عن بابل وقد أسماها هنا بالسفينة!“.

لكن ميشيل لم يكن قد بدا مقتنعاً تماماً بما يقوله روند. عاود النظر إلى الرقيم. وغاص في خربشاتهِ من جديد.

كان قلبُ ديفيد ايتان يخفق بشدةٍ وقد استرجع في سرِّهِ الصوت الغريب الذي سمعه من حجارة الرخام المبني منها المدرج الروماني. سار تحت المطر الكثيف وقد أصبحت شوارع المدينة شبه مقفرةٍ بفعل الظلام والمطر. تذكر اللحن الذي صدر من الحجر. كان لحن عزفٍ شبيهٍ بذلك الذي يوضع في خلفية الإعلانات التلفزيونية البائسة. ينخفض أحياناً لإفساح المجال أمام صوتٍ مذيعةٍ لتتلو تفاصيل المنتج الإعلاني. إلا أن الصوت النسائي الصادر من الحائط لم يكن يسرد كلاماً عن منتجٍ إعلاني. فقد كان يتلو عباراتٍ غريبةٍ سمعها ايتان بوضوح. لكنها كانت غامضةً في محتواها.

حدث ديفيد خطواته تحت وابل المطر نحو مجمع تجاري صغير. استدار عن الشارع باتجاهه وخطا إلى الداخل. كانت الأنوارُ في المجمعٍ تخفت تدريجياً أيداناً بنهاية يوم العمل. لقد أغلقت بعض المحال مبكراً اليوم لقلّة الزبائن بفعل البرد والمطر. لكن آخر أنوار المتجر الذي دخله ايتان لم يطفأ. فصاحب المتجر أراد أن يبيع ايتان ما يريد قبل أن يغلق متجرهُ تماماً.

وقف ديفيد أمام إحدى الثلاجات الخاصة بالمشروبات الباردة. نظر إلى الأسفل ليرى انسياب المياه عن ملابسه حتى بنطاله فحذائه. لقد كان ناقعاً تماماً. وشققت قطرة ماءً طريقها عن صلعته حتى أرنبه أنفه. لتتهوي إلى الأرض أمامه.

كان يريد أن يحظى ببعض الجفاف ليخرج نقاله. فالمياه في الخارج ستفسد جهاز النقل إن استخدمه تحت المطر. شعر ديفيد بأن صاحب المتجر ينتظره لبيعه قبل الإغلاق. إلا أنه لم يلتفت له. وراح ينظر إلى جهازه قارئاً للنص الذي دونه على شاشته نقلاً عن صوت المذيع الصادر عن جدار المدرج الروماني.

تنقلت عينا ديفيد على النص. بدأ أكثر رعباً من تجربة الاستماع إلى مذيعه تتحدث عبر جدار أصم. وضع إصبعه على الشاشة ليقوم بنسخ المحتوى لغرض لصقه في تطبيق إرسال النصوص. حيث أراد تحويله إلى كارين في مركز جنيف. لكنه سمع نحنحة من الخلف. إذ بدأ أن صاحب المتجر قد بدأ بفقدان صبره. تجاهل ايتان الرجل. وحاول نسخ النص من جديد. إلا أن شاشة النقل لم تكن تستجيب للمسات أصابعه المبللة. حاول ديفيد تنشيفها بمعطفه. إلا أن الأخير كان قد نقع تماماً. تلفت ديفيد حوله في المتجر. ليجد علبة محارم على رف قريب. تناولها بيده وسلخ غلافها البلاستيكي عنها بأسنانه. وسحب منها محرمتين. فثلاث وأربع. وبدأ ينشف كف يده بها..

تصاعدت نحنحة الرجل من الخلف. إذ يبدو أن غضبه قد تنامي لأفعال هذا الزائر الغريب الأطوار الداخلة بلا حية في هذا الوقت. والمولي وجهه إلى ثلاجة المشروبات. انطفاً نوراً آخر في المتجر. كانت إشارة أخرى من صاحب المكان بضرورة مغادرة هذا الزائر لغرض الإغلاق. لكن ايتان استمر بعمله. إذ قام بنسخ النص الذي دونه في نقاله ولصقه في تطبيق إرسال النصوص الفورية. مستعداً للضغط على "إرسال". إلا أنه وقبل أن يضغط على ذلك الزر..

انطفاً نور المتجر الأخير.

الفصل 43

كانت كارين شخصيتيه تشعربقلقها يتنامى مع كل دقيقة تمر دون وصول اتصال أو رسالة من عميلها في عمان. سرحت بخيالها إلى احتمالين معاً. هما احتمال الحصول على تكملة الزوهار المقدس أخيراً في زمن تعيش هي فيه وبمساعدها. فالقاباليون انتظروا لقرون تلو القرون رؤية اليوم الذي يكتمل فيه كتابهم هذا. ليعبد الطريق أمامهم أمام نحو مناجاة الرب ورؤيته للتضرع إليه ودعائه أن ينزل الماشاح سريعاً. لقد أثبت بنو إسرائيل من القاباليين طول صبرهم وأملهم الطويل في إتمام كتاب يعتبرونه الأقدس بعد التوراة..

أما الاحتمال الآخر الذي جعلها تدخن السيارة تلو الأخرى. فهو احتمال حدوث مكروه لديفيد ايتان. إذ أن الظلام قد بدأ يخيم على العاصمة الأردنية القابعة أصلاً تحت غضب السماء المنصب بوابل المطر وعصف الرياح. طقطقت كارين أصابعها قلقاً على مصير ايتان. وبدأت تحضر طريقة توجيه اللوم لمدير المركز الذي أمر برمي ديفيد بهذه الخطوة. فإن حدث للعميل أي مكروه. لن يلام إلا المدير وحده. في الغرفة المجاورة لغرفة كارين. أصدر الكومبيوتر صفيراً خافتاً معلناً وصول رسالة نصية غريبة.

كانت ما تزال ماسحات المطر في سيارة إبراهيم تتحرك يميناً وشمالاً. تسلل إلى قلب الشباب شعورٌ بتخلي ناحام عنه في هذه المهمة. فالعجوز لم يتصل حتى هذه الساعة. وكلاهما يعرفان إن سفينة ستاركيت ستبحر في موعدها رغم الظروف الجوية. وإن عليهما الحصول على النصفين بأسرع ما يمكن. إذ أن طريق الوصول إلى ميناء العقبة حيث ترسو ستاركيت انطلاقاً من عمان لا يقل عن ثلاث ساعات براً. طقطق إبراهيم عظام رقبته ضجراً محاولاً طرد فكرة تخلي العجوز عنه عن رأسه. وعاود النظر إلى نقاله من جديد فاحاً تطبيق المراسلة السري.

لم يأت شيء من العجوز بعد.

قرب المدرج الروماني وفي الشارع الموازي له. بدت خطوات رجلٍ أصلعٍ تسيّر متناغمةً مع رنين معادن صغيرة يبدو أنه يحملها في جيبه. لقد خرج ديفيد إيتان من المتجر بعد أن اشترى علبةً بالنعناع من صاحب المتجر القليل الصبر. وقد دفع ثمنه وثمان علبة المحارم التي أفسدها لتنشيف يديه. فيما بقيت قطع الفكة المعدنية ترن في جيبه الأيسر.

عاود إيتان النظر إلى شاشة نقاله محاولاً حمايتها من مياه المطر للتأكد من أن النص قد وصل إلى مركز جمع تراث اليهود الشتات في سويسرا. بدت الإشارة تؤكد أن النص قد تم تسليمه. بعد معاناةٍ مع الإرسال بسبب تذبذب الإنترنت بفعل العاصفة.

الفصل 44

في مقره بتل أبيب. كان ناحام يتحدث عبر الهاتف مع لبنى من داخل مركز الاتصالات. أبلغته بأن الشخص المدعو ديفيد ايتان قد أرسل رسالة نصية باللغة العبرية إلى عنوان مجهول في سويسرا. العميل ذاته الذي كان على آخر لائحة الأشخاص الذين اتصلت بهم كلارا، الشخص المطلوب منها متابعتها.

أبلغ ناحام لبنى بضرورة تزويده بالرسالة التي أرسلها ايتان إلى سويسرا. قائلاً لها بأن عملية خطيرة على وشك أن تحدث. وأنه الشخص الوحيد القادر على الإمساك بزمام الأمور قبل أن تفلت. فقط إن تعاونت هي وزميلها في مركز الاتصالات معه.

لم تجرؤ لبنى على سؤال ناحام المرعب بالنسبة لها عن سبب عدم إبلاغه للسلطات الأردنية بماهية ذلك الخطر. فهي تعلم بأن العجوز يكره الأسئلة في مثل هذه العمليات. بل أغلقت الاتصال معه وحوّلت إلى الغرفة المجاورة. حيث يجلس زميلها على جهاز كومبيوتر. الجهاز القادر على الاحتفاظ بأخر نشاطات

نقال كلارا..

وديفيد ايتان.

”العجوز يطلب نسخة من آخر رسالة تم إرسالها من ايتان إلى سويسرا!“. قالت لبنى لزميلها بصوت خافت.

”تم. حوّلنا الآن من مطاردة اتصالات ورسائل كلارا إلى مطاردة ايتان!“. قال منزعجاً.

”إنه يقول بأن ما يجري هو مقدمة لخطر حقيقي. لم يزد أكثر من ذلك!“.

”حسناً. ثوانٍ وسأقوم بإرسالها إلى هاتفك. عودي إلى مكانك لبنى. لا أريد إثارة شبّهات في هذه الليلة التي لا تريد أن تنتهي!“.

تحركت لبنى سريعاً إلى غرفة خدمات المشتركين. يبدو أن هذه الليلة لا تريد أن تنتهي فعلاً. فهي مطوّقة بطلبات ناحام العجوز من جانب. وكثرة اتصالات

المشتكين من مشاكل خدمة الاتصالات من جانب آخر، جلست على مقعدها. وبعد ثوانٍ رن هاتفها معلناً تسلم رسالةٍ من زميلها الآخر..

فتحت لبني الرسالة تمهيداً لتحويلها إلى ناحام، لكنها لم تفهم منها شيئاً كذلك، لقد كانت بالعبرية أيضاً.

ماشياً في طريقٍ مقفرٍ وسط المدينة الغافية تحت المطر، كان ديفيد ايتان يحاول الإمساك بخيط الاتصال مع كارين في سويسرا عبر اتصالٍ دولي، أخيراً استطاع الحصول على بادرة اتصالٍ واضحٍ في ظل مشاكل الاتصالات المزعجة هذه الليلة في عمان.

”ديفيد! هل أنت بخير؟“، قال صوت شخيتيليه.

”بأفضل ما يكون كارين، هل استلمت الرسالة الأخيرة مني؟“.

”أجل استلمتها وقمت بتحويلها إلى مدير المركز، أخبرني، ماذا جرى في المدرج؟ أين عثرت على هذا النص؟“.

رد ايتان وقد مرت سيارةٌ وحيدة في الشارع المجاور له: ”أوه كارين، كاد قلبي أن ينتزع من مكانه بسبب ما سمعته في المدرج، لقد كان الجدار الأصم يتكلم!“.

”ما الذي تعنيه بقولك ديفيد؟ يجب أن أخبر مدير المركز بالطريقة التي وجدت بها النص الذي أرسلته لي لتتعرف على طريقة تفكير الفتاة في تسليمنا القطعة!“.

توقف ديفيد تحت سقفٍ في جانب إحدى المباني بجوار الشارع، قال: ”كارين، هل تصدقين إن قلت لك إنني وضعت أذني على جدارٍ أصم في الناحية اليسرى من المدرج الروماني لأستمع إلى صوت فتاةٍ تتحدث من خلاله؟“.

لم تجب شخيتيليه، فقد كان ما قاله ديفيد لا يعدو كونه مزحة.

”ماذا قلت؟“

أجاب ايتان: ”لقد وضعت أذني على الجدار. فاستمعت إلى صوت فتاة شبيهة بفتيات الإعلانات وهي تتحدث بصوتها على خلفية موسيقية تلفزيونية. سردت الفتاة النص الذي قمت بكتابته لك. كانت تتحدث بالعبرية.“

سمت كارين قليلاً ثم قالت: ”قلت إن الصوت صادرٌ من الجدار؟“

أجاب ايتان: ”بلى كارين. والآن دعينا نسابق الوقت. سأشرح لك التفاصيل لاحقاً. أبلغيني بتفسير النص الذي أرسلته لك من أجل إتمام المهمة.“

أجابت كارين فوراً: ”حسناً حسناً. انتبه لنفسك جيداً.“

أغلقت شخيتيليه الخط. ووضع ديفيد ايتان نقاله في جيبه مسترجعاً صوت فتاة الجدار.

في شقة توفيق ارتدت كلارا ملابسها بعد أن نالها بعض الجفاف. وانتعلت حذاءها الموحد بعد أن هيأت صندوق النصفين وحقبة المال واضعةً إياها قرب باب الشقة. ألقت نظرةً سريعةً على نقالها. كانت مكاملةً قد وصلت إلى جهازها من سويسرا. إلا أنها لم ترد عليها. وضعت النقال في جيبها والتقطت مسدسها الكاتم للصوت. أخرجت مفتاح سيارتها من جيبها واستعدت للخروج من الشقة فعلياً هذه المرة.

لقد أوفى توفيق بدينه تجاهها بإيوائه لها في شقته اليوم.

في تل أبيب. كان عدد من الشيوخ قد دخلوا إلى دار الرابي العجوز. بدا يتلو بعض التراتيل وقد غمر قلبه الأمل في اكتمال كتاب الزوهار. وفي تلك الأثناء، كان أربعة من كبار الطائفة القابالية يلجون غرفته واحداً تلو الآخر كأشباح وقورة بلحاهم الشبيهة بغزل البنات الأبيض. كان العجوز مغمض العينين وهو يتمتم بتلك التراتيل. فيما جلس الأربعة أمامه في تلك الغرفة الخافتة الإنارة.

شعر العجوز بأنهم جميعاً أصبحوا جالسين في حضرته. ففتح عينيه ونظر إلى وجوههم.

كانت وجوه الشيبة الأربعة صماء إلا من ملامح الاستغراب. فاستدعأؤهم بهذا الوقت من قبل كبير الطائفة يبدو غريباً. بدوا وكأنهم بانتظار أولى الكلمات التي ستنتال من شفاهه.

”مرحبا بكم أيها الشيوخ!“. قال العجوز.

تمتم الشيبة الأربعة بعبارات ترحيب خجولة. ”لقد دعوتكم لأمر كبير يحدث الآن فيما نحن نجلس هنا بهدوء!“. قال العجوز. فيما تبادل الأربعة النظرات فيما بينهم.

”أترون أننا جميعاً هنا نعيش على أعتاب قبورنا؟ بلحاياتنا وشعورنا البيضاء؟ لو قدر لنا أن نموت قبل هذه الليلة فيا لتعس الحظ! يا لتعسه إن لم نكن سنشهد ما أراد الرب أن نشهده. شكراً للرب لأنني أعيش هذا اليوم العظيم!“.

كانت نظرات العجائز الأربعة تطالب بالمزيد من التوضيح من كبير الطائفة. ”سيدي. هلا أخبرتنا عن سر سرورك الكبير هذه الليلة؟“. قال أحد الأربعة.

أخفض كبير الطائفة رأسه وبدأ جسمه يهتز. كان صوت نشيجه الشائخ يتصاعد في المكان. فيما شعر الأربعة الآخرون بعظمة الموقف.

”الزوهار أيها الاحبة! الزوهار. لقد عثر أحدهم على تكملته!“.

صَعَقَ الرِّجَالَ الأُرْبَعَةَ بِمَا قَالَه العَجُوزُ. وَنَهَضَ أَحدهم عَلَى قَدَمِيه مَسْتَنْفِراً لِمَا سَمِعَ. تَبَادَلُوا النِّظَرَاتَ بَيْنَهُم كَأَزْهَارِ عِبَادِ الشَّمْسِ. وَرَكَزَتِ كَلِمَاتُ العَجُوزِ فِي مَسَامِعِهِمْ كَكُرَّةٍ صَغِيرَةٍ فِي قَعْرِ حَفْرَةٍ.

”مَاذَا تَقُولُ أَيُّهَا الكَبِيرُ؟!“. قَالَ أَحدهم.

”بَلَى يَا شَيْمُونُ. لَقَدْ عَثَرَ أَحدهم عَلَى تَكْمِلَتِهِ مَحْفُورَةً بِرَقِيمٍ جَاءَ مِنْ بَابِلَ إِلَى الأُردُنِ. أَجْدَادُنَا. أَبْنَاءُ حَزْقِيَالِ لَمْ يَدْعُونَا لَوَحْدَانَا. لَقَدْ دُونَ أَحدهم تَكْمِلَةَ الزَّوْهَارِ عَلَى رَقِيمٍ بَابِلِيٍّ حِينَمَا كَانُوا مَسْبِيينَ هُنَاكَ. سَنَرَى مَا رَأَى حَزْقِيَالُ المَبَارَكُ آخِرًا. سَنُطَالِبُ اللّٰهَ بِمَا شَاحَنَا المَقْدِسُ!“.

”وَأَيْنَ هُوَ الآنَ؟!“. قَالَ شَيْمُونُ.

”إِرَادَةُ الرَّبِّ لَا تَرِيدُ أَنْ تَرِينَا إِيَّاهُ بِهَذِهِ السَّهُولَةِ. إِنَّهُ هُنَاكَ فِي عَمَانَ الآنَ. مَطَارِدٌ مِنْ يَدِ إِلَى أُخْرَى. يَعْانِي شِرَاهَةَ البَشَرِ لِلْمَالِ وَحُبَّهُمْ لِلْحَيَاةِ بِذَلَّةٍ أَكْثَرَ مِنْ حَيَاتِهِمْ حَتَّى عِزَّةِ مَا شَاحَنَا العَظِيمِ. إِنَّهُ هُنَاكَ يَا لَهْفِي. إِنَّهُ مَطَارِدٌ يَا انْكَسَارِي!“.

قَالَ العَجُوزُ الوَاقِفَ بَعْدَ أَنْ عَاوَدَ جُلُوسَهُ: ”سَيِّدِي. مَا الَّذِي يَجْرِي بِالضَّبْطِ؟ أَقْلَقْتَنَا عَلَى مَصِيرِ القَابَالَا بِرِمْتِهَا!“.

رَدَّ كَبِيرُ الطَّائِفَةِ: ”لَقَدْ تَأَكَّدَ نَاحِمُ العَجُوزِ بِمَا كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى رَقِيمٍ وَصَلَهُ مَكْسُورًا إِلَى نَصْفَيْنِ. رَأَى بِأَمِّ عَيْنِهِ. ذَلِكَ الرَقِيمُ البَابِلِيُّ يَحْتَوِي عَلَى نَصٍّ يَتِمُّمُ كِتَابَ الزَّوْهَارِ بَعْدَ كُلِّ رِحْلَةٍ بَحْثْنَا عَنْهُ لآلَافِ السَّنِينَ. لَكِنْ مَسَاعِدَةٌ لَهُ خَانَتِهِ. وَتَرِيدُ بِيْعَهُ لِحَسَابِهَا. شُكْرًا لِلرَّبِّ. فَمَنْ تَرِيدُ بِيْعَهُ لَهُ هُوَ مَرَكُزُ جَمْعِ تَرَاثِ اليَهُودِ الشِّتَاتِ فِي جَنيف!“..

تصاعدت أصوات الشكر والراحة من العجائز الأربعة. لكن الكبير أكمل: "لقد حرك أحدهم هناك لالتقاطه من الفتاة. لكن الليلة لن تمر بسلام إن تحركت غريزة البشر بالطريقة التي تفقدنا آخر أمل لاكتمال كتابنا المقدس. إخوتي. أما أن نحصل على تمة الزوهار هذه الليلة. أو أننا سنفقدده إلى الأبد. ويحي على الحريديين. كم قلوبهم مطمئنة!".

طأطأ الأربعة رؤوسهم بحزن. فكبير الطائفة يتحدث عن خطر حقيقي..

"سيدي". قال أحدهم. "دع مشيئة الرب تدبر الأمر. أنا واثق من أنها لن تخذلك. ولن تخذل القابالا الذين سعوا لآلاف السنين لإتمام كتابهم. لكن أخبرنا. هل نعلن هذا على مجمع رؤساء الطوائف؟".

كانت عبارة العجوز قد تفجرت وسط المجتمعين كقنبلة يدوية..

"لا!". قال شيمون. "لا يمكن ذلك حتى نتأكد!".

رفع كبير الطائفة رأسه ومسح دموعاً اغرورقت بها عيناه ثم قال بصوت شابه بعض الحزم: "سنعلنه الليلة. بمجرد وصوله إلى الأيادي الخيرة. سنكسبُ حرب الماشاح لنا. وسيخسر الحريديون!.."

الفصل 45

داخل مركز جمع تراث اليهود الشتات في أطراف جنيف. كان مدير المركز متكأً برأسه على مسند كرسيه الدوار خلف مكتبه. فيما كانت كارين تسرد له ما قاله ديفيد ايتان عن الجدار الذي ينطق بصوت الفتاة سارداً نصاً عبرياً أرسلته ايتان إليها قبل قليل.

”قلت بأن صوتاً صدرَ من الجدار الأيسر؟“ قال المدير.

ردت كارين وهي تشبك أصابعها واقفةً أمامه: ”بلى. لقد كان ايتان يخفي تلعثمه لما سمعه. يبدو أن ذلك أشعره بالرعب!“

حدق المدير في سقف الغرفة وهو ما يزال يدير كرسيه يميناً وشمالاً..

”أنتونيوس بيوس!“ تتمم مبتسماً.

”سيدي؟ هل لبيوس علاقة بالجدار الناطق؟!“ قالت كارين محاولةً إثارته للرد.

أعاد المدير ترتيب جلسته على الكرسي ووضع يديه على المنضدة أمامه وقال: ”كارين. هذه الفتاة تعلم كيف تلعب! لقد فقدنا بصماتها لتونا!“

لم تميز كارين قصد المدير بلفظة (بصماتها). فلم تعي إن كان يقصد أثرها أم بصمات يديها. وخشيت من أن تكون الأولى ما يقصده المدير.

”كيف؟“ رد الرجل بصوتٍ واثق: ”بصمات يد الفتاة كانت بمتناول أيدينا كارين. وأخشى أن يكون ديفيد غير قادر على الدخول مجدداً إلى المدرج الروماني تحت هذا الظرف وفي هذه الساعة في عمان. سأشرح لك كيف أن هذه الفتاة حذقة في الأعيابها..“

نهض المدير ماشياً في غرفته وقد وضع يديه إلى الخلف..

”لقد بني المدرج الروماني من حجارة صماء في حال النظر إليها. لكن هذه الحجارة تتمتع بتجاويف في داخلها على هيئة قنوات دقيقة. إن اقتربت منه ستجدين فيه نتوءات وأخاديد صغيرة للغاية. وثقوبٌ منتشرة على طول وعرض الحجارة الهائلة المبني منها. هذه الأخاديد والثقوب تعمل على نقل الصوت من اتجاهٍ لآخر. فهي شبيهةٌ بالمغارات الصغيرة جدا الممتدة في داخل الحجارة..“

”وما علاقة ذلك بالبصمات؟“ قالت كارين وقد جلست على أريكةٍ مجاورة..

”قال ايتان بأنه استمع إلى صوتٍ صادرٍ من الجدار الأيسر للمدرج صحيح؟“

ردت كارين: ”بالضبط!“

”حسناً. في هذا المدرج المنضبط كنصف دائرة. إن ذهب أحدهم للحديث مع الجدار من طرف نصف الدائرة الأيمن. فإن أخاديد الحجر ستنقل صوته إلى الطرف الأيسر مباشرةً وبصوتٍ واضحٍ تماماً!“

”لكن المسافة بين الطرفين تزيد عن ثلاثين متراً!“ قالت كارين وقد اتسعت عيناها.

”بالضبط. رغم بعد المسافة بين الطرفين لنصف الدائرة. لكن الصوت سيصل واضحاً كأنه صوتٌ متصلٌ على هاتفٍ نقال. لقد وضعت الفتاة جهاز تسجيل على الطرف الأيمن. وقامت بدفعنا للاستماع للطرف الأيسر من المدرج حيث سيصل صوت الجهاز!“..

التفت المدير إلى كارين وأكمل: ”لو ذهب رجلنا الآن إلى هناك لوجد جهاز تسجيلٍ على يمين المدرج. يعمل تحت المطر على إصدار الصوت الذي سمعته. فينتقل إلى الجانب الأيسر الذي دفعنا للاستماع إليه النص الذي قامت الفتاة بإرساله إلينا..“

استرجعت كارين الرسالة الواردة من الفتاة..

بين الاتجاهات الأربع..

حيث الحضن الرخامي للملك التقى..

لتمل إلى اليسار..

واستمع للجدران..

فإن لها فمّ.. وأذان..

”فمّ وأذان!“. قالت مستغربة..

”بلى!“. قال المدير. ”فهذه الجدران فمّ تتحدث به. وأذانٌ تسمع بها ما تنقله عبر أخاديد حجارتها“.

”وهل سنجازف بإعادة ديفيد إلى المدرج ليعثر على جهاز التسجيل؟“.

زم المدير شفثيه وقال: ”وددت لو أن كان بإمكانني ذلك. على الأقل سنحصل على بصمات الفتاة ونتعرف إليها عن طريقها إن امتلكننا نسخةً من بصماتها في الدوائر المتعاونة معنا. لكنني أعتقد أن علينا المضي باتجاه الخطوة التالية. فلا وقت لدينا الآن“.

شعرت كارين بأن ثقلاً كبيراً زال عن صدرها. فلن يرمي المدير بديفيد في مجازفةٍ أخرى. نهضت من مكانها ووقفت أمام حاسوب المدير ثم قالت له: ”دعنا نحلل الرسالة التي أرسلها ديفيد نقلاً عن فتاة الجدار الآن!“.

في غرفته بتل أبيب. كان ناحام يقرأ النص الذي بعث به ديفيد ايتان إلى سويسرا. والذي وصله عن طريق لبنى في مركز الاتصالات بعمان..

ضاق اتساع عينيه خلف نظارتهما وهو يقرأ النص. ثم ابتسم.

في عمان. خطت كلارا بحذر إلى خارج شقة توفيق. أقفلت الباب ووضعت نسختها من المفاتيح في أحد جيوبها. كانت تحمل صندوق النصفين إلى جانب حقيبة المال. تلمست مسدسها الذي برزت منه ماسورة الكاتم للصوت من تحت حزامها. أخفته بسترتها القصيرة وتوجهت نحو درابزون السلالم. نظرت إلى أسفل السلم من الدرابزون متأكدةً من أن إبراهيم لا يقف هناك. فهي تعلم إن لقاءها به إن حدث هذه المرة فسيعني نهايتها. كان المبنى يبدو خالياً وهادئاً تماماً من أي صوت. خطت كلارا بهدوء إلى السلم وبدأت تنقر بخطواتها على الدرجات. نزلت برويةٍ كقطعةٍ بخطواتٍ خرساء. وراحت تنخفض أكثر فأكثر في المبنى عبر السلالم. حتى وصلت إلى الدور الأرضي المعتم بفعل إطفاء الأنوار. نظرت باتجاه الباب الحديدي المغطى بالزجاج المنقوش. لم يبدُ أن أحداً يقف خلفه. تحركت باتجاه الباب وقامت بفتحه. لتلفحها نسمةٌ شديدة البرودة من الخارج. كانت سيارتها السوداء ذات الدفع الرباعي في مكانها بالزقاق المجاور للمبنى. فيما بدت السماء وقد كفت مطرها لوهلةٍ مستعدةً لهجومٍ مائي جديد..

بخطواتٍ شديدة الحذر. ويدٍ على مقبض مسدسها تحت السترة. تحركت كلارا نحو السيارة. خطت سريعاً نحوها وفتحت الباب. وضعت الصندوق والحقيبة فيها..

ثوانٍ أخرى. وانطلقت بالسيارة بعيداً.

قريباً مما حدث. كان إبراهيم يراقب تماماً ما جرى..

الفصل 46

بابٌ من مياه..

فتحها مفتاحٌ من خشب..

وحشٌّ زاحفٌ على بطنه يأكل الوحوش..

قبر المفتاح..

وحيث اختفى صاحبه..

كانت عينا مدير مركز جمع تراث اليهود الشتات تمر من خلف نظارتيهما على تلك الكلمات. ظاهرةً على حاسوبه..

بدأت شفاته تكرر النص العبارة بعد العبارة. فيما وقفت كارين إلى جانبه وهي تنتقل بعينيها على النص ذاته. لم يكن أمامهما إلا أن يجعلوا العميل ديفيد ايتان ينتظر خليلهما لتلك الرسالة التي أرسل بها إليهما..

نقلًا عن الصوت الصادر من جدار المدرج الروماني..

في غرفته بتل أبيب. كانت عينا ناحام تمران على النص ذاته. بعد أن أرسلته له لبنى كنسخةً عن آخر رسالة بعث بها ديفيد ايتان إلى سويسرا. حين وصلت إليه كآخر جهة تواصلت معها كلارا..

نظر ناحام إلى الرسالة أمامه. وشعر بإعجابٍ غريبٍ بذكاءِ كلارا التي يطاردها الآن عميله الأقوى في عمان: إبراهيم..

نظر العجوز إلى الساعة أمامه: العاشرة وخمس دقائق ليلاً بتوقيت عمان. أقل من ثمان ساعات على انطلاق ستاركيت.

كانت كلارا تقود سيارتها السوداء ذات الدفع الرباعي نحو أحد مخارج العاصمة الأردنية. نظرت مجدداً إلى المرآة الداخلية. لا يبدو أن إبراهيم وسيارته البي أم دبليو الحمراء يطاردانها. بدت عمان قائمةً الظلام بفعل السماء التي أطفأت أنوار النجوم بغميمها الكثيف. فيما كانت السيول ما تزال تنزلق من الأماكن المرتفعة نحو الشوارع المنخفضة كشلالاتٍ لا يكبحها بناءٌ ولا أشجار.

نظرت إلى انعكاس أضواء الشارع في طبقة المياه التي غطت التعبيد وهي تقترب نحوها لتختفي تحت سيارتها الواحد تلو الآخر. كانت تبدو كسكة قطار تمرّ تحتها بقطعها الحديدية الأفقية. استرجعت كلارا تلك الذكريات مجدداً. وتذكرت كيف كان عطر ناحام الفاخر يقتحم رئتيها في مكتبه الهاديء حد التسبب بالجنون. مرت أمامها تلك الصور الثقيلة بثوانها. ورأت كيف كانت وجنتاه تنزلقان فوق عظام وجهه حين يبتسم ابتسامته المثلثة. وتغور عيناهُ أكثر فأكثر كلما اتسعت تلك الابتسامة التي تكرهاها. ذلك كان يحدث. حين يبدو بؤبؤاهُ كأنهما يخران ساجدين نزولاً من عينيها. إلى شفاهها. ثم رقبتها وحتى صدرها. كأنهما شيطانان جاءا لقبض روحي نهديها الشابين..

سرت رعشة القرف بجسمها وهي تتذكر لمسات أصابعه لخصرها. وتناهي إلى أسماعها صوت همساته الشبيهة بفحيح ثعبانٍ عجوز. وشعرت كما لو ودت أن تنتشل دماغها من مستنقع تلك الذكريات الموحلة في روحها. فجأة. انبثق نورٌ هائج من جانب الطريق أعادها إلى الانتباه على الشارع والصحو من غيبوبتها المزعجة تلك. نظرت كلارا إلى عداد السرعة. لقد تجاوزت السرعة المحددة في القيادة. فأصابتها وهج كاميرات مراقبة الطريق..

”بم تفكر؟“

قالت كارين للمدير.

لتعيد عينيه للنظر إلى النص المكتوب..

بَابٌ مِنْ مِيَاهٍ..

فتحها مفتاحٌ من خشب..

وحشٌّ زاحفٌ على بطنه يأكل الوحوش..

قبر المفتاح..

وحيث اختفى صاحبه..

شعر المدير وكأنه يواجه امتحانا قاسياً، فالعميل ديفيد ايتان بانتظار ما سيقوم بتحليله وإرساله إليه في ظرفٍ خطيرٍ في العاصمة الأردنية، فيما كانت كارين تقف إلى جانبه وكلها أملٌ بأن يقوم هو بحل الأحمية التالية التي وضعتها الفتاة -حاملة تكملة الزوهار- في طريقهم..

”أي باب تلك المتكونة من مياه! ويفتحها مفتاحٌ من الخشب؟ وما علاقتها بالوحش الزاحف آكل الوحوش؟. كارين، هل تعتقدين أن فتاتك تعبت معنا؟“

”فتاتي؟!“. قالت كارين مستهجنة. ”أرجو أن تكون أكثر دقة حضرة المدير، فقد كنت على علم بما حدث هذا اليوم برمته، لا تلقي اللوم عليّ حين يستعصي الأمر!“. رفعت ذقنها وقد كتفت ذراعيها. نظر المدير إلى الأعلى حيث تقف وراءه وابتسم. ”لقد حللتُ معضلتين حتى الآن كارين، نص الملك التقي، وتفسير سبب صدور الصوت من حجارة المدرج الروماني. هلا تنازلتِ عن كبريائك لتفكري في حلٍ للأحمية الجديدة، سيده شخصيتييه؟“

ابتسمت كارين بتصنع. وانخفضت نحو أسمع المدير وهمست قائلة: «أنت أكثرنا ذكاءً. ولو كنت أذكى. لكنتُ الآن مكانك!».

كان النعاسُ قد بدأ إبراهيم بالهجوم. فانتظاره طال داخل سيارته ولم يحرك ساكناً. لكن أجفانه الغضبي ما قامت به كلارا اليوم كانت تقاوم شعوره المتنامي بسرقة غفوةٍ قصيرة. نظر إلى ساعته. كانت قد بلغت العاشرة والربع..
فجأة، أصدرَ جهاز نقاله نغمةً غريبةً معلناً تلقي النظام الخاص اتصالاً..
ناحام يتصل بك.

الفصل 47

باريس.

من الشرق إلى الغرب..

إلى الغرب إلى الغرب..

يسير القارب بصارتيه..

في بحرٍ من الشر..

كسعفةٍ تقتلعها الريح بعيداً..

ردد البروفيسور ميشيل ليون تلك الكلمات وقد قرأها على الرقيم الغريب الموضوع أمامه حتت سقف إحدى مختبرات جامعة السوربون. شعر بالعرق البارد يغرق كفيه حتت قفازين يرتديهما. فقد استعصى ما هو مكتوب على هذا الرقيم عليه وعلى زميله البروفيسور جاك روند. يجب أن يستفيد من كل لحظة يكون فيها هذا الأثر أمامه في السوربون. فالسيد شوفنمان لن يبقيه هنا إلى الأبد..

”ماذا تقول في هذا بروفيسور؟“. قال روند.

مسح ميشيل جبينه بكم صدريته البيضاء وقال: ”إنه يعيد عبارة (كسعفةٍ تقتلعها الريح بعيداً) مرةً أخرى. ولا أعلم لماذا استعان بوصف القارب بأن له صارتين. ولماذا التوجه إلى الغرب أصلاً؟“.

تنحج البروفيسور روند وقال: ”هل يعقل أن بابليين تم نقلهم عبر البحر المتوسط بقارب؟ أو أن ملكاً أو شخصاً عظيماً هرب من بابل الواقعة حتت هذا الدمار ليعبر ذلك البحر؟“.

”إلى أين سيذهب؟“ قال ميشيل.

”الخطر يدفع الإنسان إلى أي ملجأ بروفيسور. فالحياة غالية.“ رد روند.

”لنرى ما سيكون في السطور التالية يا جاك. لقد بدأت أفقد صبري معها.“ قال ميشيل وقد بدا متعباً للغاية.

كان حذاء المدير ينقر على أرضية المكتب روحاً ورجعاً. وهو يردد النص الوارد من ديفيد ايتان.

بَابٌ مِنْ مِيَاهٍ..

فتحتها مفتاحاً من خشب..

اشعلت كارين سيجارةً وقالت: ”لو قال إنه من الكونكريت. لقلنا إنه سدٌّ مائي يغلق على المياه كبوابةٍ من أسمنت!“..

توقفت خطواتُ المدير. التفت لها وقال: ”برافو كارين. يبدو أنك تفكرين بالاتجاه الصحيح. فقد جاهلتِ التفكير بالباب إلى التفكير بالمياه بشكلٍ لا يقبل مجالا للشك من أن الرسالة تقصد مياه نهرٍ أو بحيرة!“.

”أو بحرٍ أو محيطاً.“ قالت كارين متململة.

”أو بحراً.“ رد المدير بجدية. ونظرت له كارين وقد ألغت مجةً للفاقة سيجارتها .
..”ماذا؟“..

تحرك المدير إلى مكتبه. وعاود النظر إلى النص المكتوب بالعبرية:

(بَابٌ مِنْ مِيَاهٍ.. فَتَحَهَا مِفْتَاحٌ مِنْ خَشَبٍ). "البحر!". قال.

"وأبي بحر؟". ردت كارين..

"أبي بحر فتحه مفتاحٌ من الخشب كارين؟".

"هل تقصد بشكلٍ فنتازي أم حقيقي؟".

رد المدير بمكر: "بل بشكلٍ ديني!".

استرجعت كارين ما يقوله وغارت بأعماق ذهنها باحثةً عن بحرٍ فتحه مفتاحٌ من الخشب. أو فتحته..

"عصا؟؟".

لاحت عينا المدير بابتسامةٍ مصطنعة..

"هل تقصد عصا موسى حين شقت البحر الأحمر؟!". قالت وقد قفز قلبها إلى حنجرتها..

"نعم!! كيف أغفلنا ذلك! انظري للتأكيد". أمسك المدير قلماً وبدأ يشير إلى النص على الشاشة ويقراً:

بَابٌ مِنْ مِيَاهٍ..

فَتَحَهَا مِفْتَاحٌ مِنْ خَشَبٍ..

وَحَشٌّ زَا حَفٌّ عَلَى بَطْنِهِ يَأْكُلُ الْوَحُوشَ..

استدركت كارين قائلة: ”والوحش الزاحف هو..“..

”حين تحولت إلى نعبان وأكلت نعبين سحرة فرعون!“ قال هو وقد اتكأ على كرسيه متظاهراً بالسيطرة..

”رباه!“ قالت كارين بإعجاب. هل ما زلت تشك بأن هذه الفتاة تلعب معنا بعد كل هذا الإحكام بخطواتها؟“..

لم يجب المدير. وراح يحملق في آخر سطرين من النص..

قبر المفتاح..

وحيث اختفى صاحبه..!

”نعم سيدي!“ قال إبراهيم وهو يرد على اتصال ناحام..

”أرجو أن لا أكون قد تأخرت بالرد عليك إبراهيم. لكن اسمع. كلارا تنتهج طريقاً ملغماً بالألغاز لترشد عميلاً لدى مركز جمع تراث اليهود الشتات في سويسرا إلى مكان تدعي بأنها خبأت فيه النصفين. زودتني لبني بجميع تفاصيل الرسائل الاتصالات..“ تقطع الصوت لوهلة ثم عاد. ”اسم العميل ديفيد ايتان. يبدو أنه يهودي أيضاً. عليك أن تسبقه بخطوة بأي ثمن. يبدو مدرباً جيداً للقيام بمثل هذه المهمات. أنت عميلي الذي أعتمد عليه. فيما يكون ايتان عميلهم الذي يعتمدون هم عليه. كلارا الآن مراقبة من قبلي بشكل ممتاز.“

”سيدي! لماذا تضع كلارا كل هذه العقد لإيصال النصفين؟ ماذا لو سلمته لهم وانتهى الأمر؟!“..

”لن تفعل. كلارا عملت معي طويلاً وهي أذكى من أن تواجههم وجهاً لوجه تحت مرآي المتمثل بك. عمان مدينة صغيرة. سنجدها بأي حال. لن تضع نفسها بهذا الموقف“..

”لقد غادرت شقة توفيق أمام عيني قبل قليل دون أن أحرك ساكناً. ما هي الخطوة التالية سيدي؟“..

سحب ناحام نفساً عميقاً ثم قال: ”لقد أرشدتهم إلى المدرج الروماني. حيث سلمتهم رسالة أخرى هناك. الرسالة مع عميل السويسريين الآن. لحسن الحظ أنها لدي أيضاً!“..

”وماذا تقول الرسالة؟“. قال إبراهيم وقد شعر بأن المهمة بدأت تزداد صعوبة..

”حمل لغزاً آخر يا إبراهيم. سنعرف الوجهة التالية لكلارا قريباً“..

(نهاية أعمال بلدية عمان الكبرى).

قرأت كلارا تلك اللافتة الموضوعية على جانب الطريق وهي تقود بسرعة باتجاه الخروج من العاصمة الأردنية. برقت السماء بوميضٍ يندُر بانكفاء المزيد من الأمطار فوق الأردن. لم تعبأ الفتاة للافتات السرعة على الطريق. بل راحت تقود سيارتها بسرعةٍ جاوزت الـ 120 كيلومتراً في الساعة. كانت ماسحات المطر تعمل بأقصى سرعتها في سيارتها مزينةً ألتاراً من المياه عن الزجاج الأمامي. فيما رقصت حبات المطر على سقف السيارة محدثةً دويماً متواصلًا..

لم تكن صور ناحام وهو يستل رجولته قبل أن يغمدها فيها تفارق ذهنها. ولا صوته المتحشرج وسعالته المتقطعة تغيب عن جمجمتها. تذكرت كيف أنه أنهى ممارسته الليلية معها ذات ليلة. ثم قام ليشعل غليونه مبتعداً عنها وقد تركها على الكنبه بوسط طريق حاجتها. وكيف أنها شعرت بنفسها ملقاةً وسط الطين والوحل. رغم أنها كانت في مكتب سيدها الأنيق للغاية..

اغرورقت عيناها ببلورات من الدمع جعلت النظر إلى الشارع أصعب. بعد أن غطت بلورات المطر الزجاج بمطر السماء الهائل..

الفصل 48

العاشرة والنصف ليلاً..

سبع ساعات ونصف على إبحار ستاركيت..

”وماذا الآن؟“ قالت كارين.

”مفتاح الخشب الذي فتح باباً من المياه!“. قال مدير المركز.

”مم. الوحش الزاحف الذي يأكل الوحوش!“. ردت كارين وهي تضع ساقاً على ساق وتنظر إلى الأرض.

نهض المدير من كرسيه كعادته في التفكير. وراح يجول مجدداً في غرفته ثم قال:

”موسى وعصاه يا كارين. العصا التي فتحت باب المياه ليعبر بنو إسرائيل فراراً من المصريين. أين كان ظهورها الأخير؟“..

بدا سؤال المدير امتحاناً لكارين أكثر منه تساؤلاً. فمدير مركز مع تراث اليهود الشتات لا تخفى عنه معلومات تخص ديانة شعبٍ هو مسؤول عن مركز جمع تراث شتاته..

حاولت كارين الاستذكار. ثم وضعت ساقها وقالت بنبرة فرحة لإيجاد الحل: ”في الأردن! في الأردن نعم!“..

ابتسم المدير وقال: ”وفي أية بقعة؟“.

وقبل أن يجيب شخصيتييه أكمل قائلاً: ”لقد اتفقت الديانات الثلاث على مكان ظهور موسى وعصاه للمرة الأخيرة قبل أن يموت ويدفن في مكانٍ مجهول. إنه المكان الذي أراد الرب فيه أن ينهي حياة نبيه“..

عدلت كارين جلستها وقالت: ”حيث يقبع الجبل الكبير. نسيت اسمه!“..

جَبَلُ الْإِلَهِ نَبِيُّو!"..

"صَحِيحٌ!". قَالَتْ كَارِينُ وَقَدْ تَوَهَّجَ أَمْرٌ مَا فِي رَأْسِهَا. "هَنَّاكَ حَيْثُ يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ
إِنْ نَبِيَّهُمْ قَالَ إِنَّ مُوسَى قَدْ مَاتَ وَدُفِنَ عِنْدَ الْكُثَيْبِ الْأَحْمَرِ!"..

"وَقَالَ الْيَهُودُ إِنَّ اللَّهَ أَرَى مُوسَى الْأَرْضَ الَّتِي وَعَدَهُ وَقَوْمَهُ بِهَا عِنْدَمَا كَانَ عَلَى جَبَلِ
نَبِيُّو ذَاكَ. حَيْثُ مَاتَ عَلَيْهِ بَعْدَ تِلْكَ الْبَشْرَى وَدُفِنَ فِيهِ. أَيُّ بَعْدَ نَجَاتِهِمْ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ
وَعُبُورِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ بِال...".

"الْمِفْتَاحُ الْخَشْبِيُّ الَّذِي فَتَحَ بَاباً مِنْ مِيَاهُ!". قَاطَعَتْهُ كَارِينُ وَقَدْ صَفَقَتْ يَدَاهَا..

ضَحِكَ الْمَدِيرُ قَصِيراً ثُمَّ أَخْفَى ضَحِكْتَهُ قَائِلاً:

"صَعِدَ مُوسَى مِنْ أَرْضِ مَوْأَبَ إِلَى جَبَلِ نَبِيُّو إِلَى قِمَّةِ فَسِيحَةِ جِئَاهُ أَرِيحَا. فَأَرَاهُ الرَّبُّ
جَمِيعَ الْأَرْضِ. وَقَالَ لَهُ إِلَى هَنَّاكَ لَا تَعْبُرُ". أَحْنَتُ كَارِينُ رَأْسَهَا وَهِيَ تَتَذَكَّرُ هَذَا النَّصَّ
مِنْ سَفَرِ التَّنْبِيَةِ. وَأَكْمَلَ الْمَدِيرُ قَائِلاً:

"هَذِهِ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي أَقْسَمْتُ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطَاهَا.
قَدْ أَرَيْتُكَ إِيَّاهَا بَعَيْنِيكَ. وَلَكِنَّكَ إِلَى هَنَّاكَ لَا تَعْبُرُ. فَمَاتَ هَنَّاكَ مُوسَى. عَبْدُ الرَّبِّ. فِي
أَرْضِ مَوْأَبَ. بِأَمْرِ الرَّبِّ. وَدَفَنَهُ فِي الْوَادِي فِي أَرْضِ مَوْأَبَ. جِئَاهُ بَيْتِ فَعُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ
قَبْرَهُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا..".

"إِذْنًا. نَبَعَثَ دَيْفِيدَ إِلَى جَبَلِ نَبِيُّو!". قَالَتْ شَخِيتْلِيهِ..

هَزَّ الْمَدِيرُ رَأْسَهُ وَقَالَ:

"بَلْ إِلَى مِفْتَاحِ الْخَشْبِ الَّذِي فَتَحَ بَاباً مِنْ مِيَاهُ..

إِلَى عَصَا مُوسَى الشَّاخِصَةِ فَوْقَ الْجَبَلِ!".

في مركز الاتصالات. كانت مناوبة لبنى قد انتهت منذ أكثر من نصف ساعة. فمناوبتها الليلية تنتهي في العاشرة ليلاً، لكن توجيهات ناحام لها بأن تبقى في المركز غيرت الجدول. فقد طلب منها الاتصال بزميلتها التي تستلم منها المناوبة. وتخبرها بأن هناك مشكلة بين افراد اسرتها تدفعها للهروب من المنزل البقاء في المركز. فرحت زميلتها لعرضها. فلن تذهب إلى مركز الاتصالات لتتسلم المناوبة من لبنى هذه الليلة. خصوصاً وأن البلاد تتعرض لموجة أمطار جعلت الشوارع عبارة عن أنهارٍ تستقبل السيول الهاوية من الأراضي المرتفعة..

كانت لبنى تجلس خلف جهاز الرد على الاتصالات. بدأت الشكاوى تقل تدريجياً مع اقتراب منتصف الليل. فالناس أوقفوا اتصالاتهم الضرورية تمهيداً للنوم حت وابل المطر. طقطقت عظام رقبته وقد شعرت بخدرٍ في رأسها من التعب. لكن هاتفها الخاص رن على منضدتها. لم يكن ناحام هذه المرة. بل كان زميلها في غرفة تسجيل المكالمات..

تركت لبنى مكتبها متوجهةً إلى غرفته. طلب منها أن تغلق باب الغرفة وراعاها. وما أن فعلت. حتى قال لها بصوتٍ خافت:

”السويسريون اتصلوا بديفيد ايتان. لقد أمروه بالتوجه إلى مدينة مأدبا!..“

”وبعد؟!“. قالت لبنى مستغربة..

”قالوا له إن عليه التوجه إلى تمثال عصا موسى هناك. فوق قمة جبل نيبو. لعله يجد شيئاً خبأته كلارا هناك!“..

شعرت لبنى بأن معلومة كهذه يجب أن تصل إلى العجوز فوراً..

”هل من شيءٍ آخر؟“.

هز زميلها برأسه نافياً. ثم قال: ”أخبري العجوز في تل أبيب بذلك حالاً!“.

الفصل 49

العاشرة و 45 دقيقة ليلاً في عمان.

كانت دورية الدرك الأردني تمر في حي جبل لوييدة في العاصمة عمان وهي تسير ببطء بأنوارها التي بدت ككشهابٍ ناعس. لقد قضى الشرطيان في داخلها ساعتين بهذا الواجب وهما يتحاشيان المرور في هذا الشارع لانخفاضه عما جواره من الأراضي وشدة وارتفاع السيول المائية الواردة إليه. كانت سيارتهما تسير ببطء وهي تعبر وسط المياه الداكنة بفعل الظلام. تتأهب الشرطي على اليمين متملماً من المهمة الروتينية التي يقوم بها مع زميله الجالس خلف المقود. إذ حتمت المياه عليهما إبطاء السرعة لمنع وصول البلل إلى مقابس السيارة الكهربائية. وبينما كانت ماسحات المطر تبارز المياه يميناً وشمالاً على زجاج السيارة الأمامي. برقت السماء بشدة. فلمع النور على المنظر أمامهما برمته. ولفتت أنظاره سيارة صالون متوقفة على جانب الطريق وقد فتحت منها نافذة السائق..

ضرب الشرطي على ركبة زميله بجواره وأشار له نحو السيارة. قال زميله الضجر: ” يبدو أنها تعطلت وسط هذا الفيضان الموحل!“. لكن السائق لم يقتنع بقول زميله. فتوجه بسيارة الشرطة ببطء باتجاه السيارة المتوقفة. توقف بجانبها وأخرج مصباحاً يعمل بالبطارية من جعبة بجواره. أشعل النور ووجهه باتجاه نافذة السائق..

فجأة. اتسعت عيناه ورمى المصباح جانباً. تناول جهاز الاتصال وضغط على الزر ليطلق نداءً لبقية الدوريات أخبر فيه:

إن أحدهم تم قتله بالرصاص.

كانت كارين شخصيتلية تذرع غرفتها ذهاباً وإياباً وهي تحادثُ عميلها ديفيد ايتان:

"يجب أن تستقل سيارة سريعة يا ديفيد. لا تلتزم بأية إشارة. سندفع نحن الغرامات. توجه إلى مادبا حيث تقف عصا موسى فوق جبل نيبو بأقصى سرعة. فالقالباليون يتوجهون إلى مجمع رؤساء الطوائف في تل أبيب لإبلاغهم عما يجري عن طريق عقد اجتماع هام بخصوص ما لدى الفتاة. لقد أبلغناهم بما يحدث وقلنا لهم إننا بصدد التوصل لتلك القطعة!"..

كان ديفيد يستمع إلى شخصيتليه وهو يقف في شارع لا يظهر عليه سوى تعبيده الأسود وقطرات المطر المنهالة عليه من السماء. لم يبدُ أن سيارةً ما ستصل إلى هنا قريباً..

"حسنًا كارين لا بأس. سأتدبر الأمر وأتصل بالسائق!"..

أغلق ديفيد الخط. واتصل فوراً بأحد مساعديه مخبراً إياه بأن عليه التوجه إليه فوراً لمهمة خاصة بمركز جمع التراث. قال رفيقه بأنه سيكون عنده في غضون دقائق..

شارفت الساعة على بلوغ الحادية عشرة ليلاً. ولم يبق على إبحار ستاركيت سوى سبع ساعات فقط. كان ناحام واقفاً في غرفته بتل أبيب وهو يتأمل لوحة سقوط أورشليم على الجدار. عندما رن هاتفه الملقى على مكتبه..

"بلى لبني!..". قال العجوز.

"سيدي. لقد ورد اتصالٌ من جنيف قبل قليل إلى ديفيد ايتان!"..

"وماذا فيه؟". أجاب بصوتٍ يحاول الاتزان..

”أخبرته امرأة يناديها باسم كارين بأن عليه التوجه إلى مأدبا. وأن عليه الوصول إلى جبل نيبو حيث تنتصب عصا موسى هناك“. كانت لبنى تقول ذلك متصنعةً فهم ما تقول. فهي لم تفهم ما يعني إرسال عميل إلى عصا موسى فوق الجبل بهذا الجو الماطر وفي عتمة الليل. لكنها كانت تؤمن بأن عليها إخبار ناحام بكل ما سمعت..

كما سمعت!

هز ناحام رأسه وقال: ”شكراً لبنى. استمري بالمراقبة.. وداعاً“.

أفضل العجوز الخنط. وباشر الاتصال بعميله إبراهيم..

كان شيمون فاغراً فاهُ غير مصدق لما قاله الرابي كبير الطائفة. فيما كان زملاؤه الثلاثة الآخرون يشعرون بالفرح المشوب بالقلق الشديد لما يقوله. لقد عثر أحدهم على تكلمة الزوهار المقدس. لكنه ما زال بخطر شديد..

”سيدي“. قال الرابي الثاني. ”إلى أي درجة يقبع الرقيم الآن تحت سماءات الخنط؟“..

هز الرابي الأكبر رأسه متحسراً وقال:

”لن تنقذه إلا إرادة الرب. عمان اليوم تحت هدير غيث السماء. ليغسل الرب ذنبها بمطره إن هي أضاعت زوهارنا المقدس..“. ثم احتد صوته وقال: ”أيها السادة. ما إن يكون الرقيم بأيدي ناحام. حتى نعلن أمام كل مجمع رؤساء الطوائف انتصار طائفتنا وإكمال الزوهار. وليكن ذلك هذه الليلة..“.

تمت العجائز الأربعة بكلمات الأمل. وأحنى الرابي الأكبر رأسه ليتلو دعاءً ينجي الرقيم بنصفه..

”إلى مادبا إبراهيم، سأبعث لك بنقطة عليك أن تصلها بأي ثمن. إنه تمثال عصا موسى فوق جبل نيبو!“. كان صوت ناحام يعلو وينخفض على مسامع عميله. لم يسمع الأخير بجبل نيبو أو تمثال عصا موسى من قبل. استفسر عن ماهية التمثال. لكن ناحام لم يكن يمتلك وقتاً للشرح..

”سأبعث لك بموقع العصا على نظام تحديد المواقع. سر باتجاهه فحسب! لقد أرسلوا عميلهم إلى هناك، يجب أن تسبقه“..

”وأين هو الآن؟“. قال إبراهيم وقد شعر بإن عليه أن لا يخذل العجوز هذه المرة..

”متوجه إليها. أسرع يا إبراهيم!“، قال ناحام ذلك وسكت لوهلة، ثم أفضل الخط..

بدا إبراهيم يفكر بكل الاحتمالات التي من الممكن أن تحدث إن سبقه عميل السويسريين إلى هناك. قد يفقد ذلك العجوز صوابه، ويغضب منه إلى الدرجة التي تشفي غليل كلارا إن سمعت بذلك، لكنه في الوقت نفسه، كان يفكر بإمكانية التغلب على خصمه هذا، وأي انتصارٍ ونشوةٍ قد يحمل ذلك لناحام..

”شيفح لهستوريا!“، قال في نفسه وقد سحب نفساً وأطلقه، بدا قوله لهذه العبارة بوجه ناحام كحلْمٍ بعيد المنال..

قطع صوتٌ أصدده نقاله شريط الخيالات تلك، معلناً وصول رسالة تحمل نقطة موقعٍ في مادبا عليه بلوغها..

بأسرع ما يمكن..

الفصل 50

الحادية عشرة وخمس دقائق ليلاً بتوقيت عمان.

في الشارع الخالي من المارة، توقفت سيارة فورد صالون على جانب الطريق. فتح ديفيد ايتان الباب فوراً واستقلها ركباً. ضغط زميله على دواسة البنزين لتنتقل غير عابئة بكم المياه الذي تناثر عن إطاراتها. كان الطريق أمام ايتان واضحاً:

بلوغ عصا موسى فوق جبل نيبو. الاتجاه: مادبا.

شعر ديفيد بالدفء داخل السيارة بعد قضائه وقتاً لم يكن يسيراً بانتظار اتصال كارين شخصيتليه الأخير. وبدا الضباب يغطي زجاج السيارة الأمامي من الداخل لشدة برد الجو في الخارج. كانت أنوار شوارع عمان تبدو كأطفالٍ ضلوا الطريق في الزحمة. إذ لم يكن يبدو من المشهد سوى الليل والمطر والعواصف..

لم يكن ديفيد وزميله يعلمان بأنهما يسيران على تعبيدٍ ستسير عليه بعدهما بدقائق إطارات بي أم دبليو حمراء يستقلها شخص آخر يذهب بالاتجاه نفسه. فقد كانت سيارة إبراهيم تشق طريقها بسرعة باتجاه مادبا أيضاً. وضع إبراهيم جهاز نقاله على لوحة السيارة المقابلة له واستمر بالسير باتجاه الموقع الذي أرسله له ناحام مستنداً على معلومات لبنى الأخيرة. وشعر بالتعب وهو يقود سيارته بعد انتظارٍ طويلٍ لتعليمات سيده. إضافةً إلى صعوبة القيادة ليلاً في طرقٍ محدبةٍ ومقعرةٍ كطرق الأردن وحتّى وابلٍ مطر لا يتوقف. وبينما هو يمسك المقود بقوة جعلته يبدو كجزءٍ منه. تذكر ما قامت به كلارا به طيلة هذا اليوم المثير للغضب. فلولا خيانتها لناحام العجوز لما حدث ذلك كله. قال ذلك لنفسه وقد شعر ببصيص ألمٍ ما يزال يضرب خصيتيه بسبب ضربهما من قبل كلارا. توهج الشر في نفسه كالجمر المنفوخ. وازداد وهجاً وهو يتذكر خداعها له وسرقتها للنصف الذي كان بحوزته فيما كان يعد لها القهوة..

ضغط على دواسة الوقود ضارباً العلامات المرورية التي تحّد من السرعة العالية عرض الحائط. مؤملاً نفسه بأن العجوز سيدفع ثمن المخالفات من أجل رقيمه الطيني المكسور. شقت البي أم دبليو الحمراء الشارع كسهم من حديد. فيما ازداد طرق وابل المطر على سقفها..

تقاطرت سيارات الدرك الأردني على موقع الحادث في لوبيدة بقلب العاصمة. وازدان الشارع بالأنوار الزرقاء والحمراء المنعكسة عن سقوف تلك السيارات. لقد أظهرت المعاينة الأولية لمسرح الجريمة بداخل السيارة وحولها أن الجثة تعود لرجل الأعمال الأردني عماد الحسين لجلّ التاجر الراحل قبل يومين خليل الحسين. وأظهرت التحقيقات الابتدائية أنه أُغتيل برصاصتين أصابتا رأسه من مسافة قريبة جداً..

كان العميد عبد الله مصطفى ذو الاثنين وأربعين عاماً يقف متخصراً تحت المطر قبالة جثة عماد الملقى نصفها الأعلى على المقعد المجاور للسائق وقد تخرّ دمها عليه. التفت إلى بقية أفراد الشرطة والضباط بجواره وقال:

”قوموا بمسح للشارع. أي مبنى يضع كاميرات مراقبة على هذا الزقاق ادخلوا إليه. واطلبوا من السكان تزويدنا بالتصوير. لينتهي رجال الأدلة الجنائية عملهم وانقلوا الجثة إلى المشرحة“..

استدار نحو سيارته المركونة بين سيارات الشرطة الأخرى. فتح الباب وأمسك جهاز الاتصال وأداره. ثم قال:

”ليتوجه أحدكم إلى قاضٍ خافر. أريدُ تصريحاً منه لاتخاذ إجراءٍ فوري!“..

في تلك الأثناء. كانت سيارة كلارا قد ابتعدت تماماً عن العاصمة الأردنية. وبدت الأنوار حولها تخبو شيئاً فشيئاً. إذ لم يبقَ أمامها سوى أنوار الشارع المنتصبة

كالمشائق المضيئة، الشارع العريض المؤدي إلى وجهتها يكاد يخلو من السيارات الأخرى. كانت تقود مركبتها وسط صحراءٍ يشطرها هذا الشارع إلى نصفين..

راود ذهنها مجدداً ما قامت به هذا اليوم. وتساءلت إن كان أحدهم قد عثر على جثة عماد الحسين. ربما ينطلق إنذار الأمن الأردني في أية لحظة في محاولة العثور على القاتل. تشتت ذهنها بين أن يلقي القبض عليها بتهمة القتل وبين البريدين الإلكترونيين الذين تسلمتهما اليوم. الأول الذي يحتوي الجداول والعناوين. والآخر ذو السرد المطول. راجعت كل ما جرى مساء هذا اليوم حتى هذه اللحظة. وشعرت بأنها بدأت تتحول إلى شخص آخر. شخصٌ يقتلُ بدم بارد ويسرق الآف الدولارات إلى جانب أثر عراقي بنصفين أخبرها بمدى أهميته سيدها العجوز..

شعرت بضيقٍ في صدرها لذكراه من جانب. ومن تذكر جرماتها بحق عماد الحسين من جانبٍ آخر..

الأمن الأردني..

جثة عماد..

مدت يدها نحو راديو السيارة وفتحته. أدارته نحو الراديو الحكومي الرسمي. فلعل اسم الحسين يردُّ في نشرة أخبار منتصف الليل..

”كم الوقت إلى هناك؟“. قال ديفيد لزميله.

”ساعة واحدة تقريباً بهذا الجو. هذا إن لم نحترم كاميرات مراقبة السرعة!“.

أرجع ديفيد نفسه إلى الورا بمقعده. وشعر بصقيع يتسلل إلى أرنبتى أذنيه. لقد تشعب جسمه بالمياه اليوم وأصيب بعواصف البرد الأردني الحاد حتى لم يعد يشعر بأطرافه. لكنه كان يفكر دائماً بأن مهمته تستحق..

تكملة الزوهار التاريخي المقدس..

تصاعدت موسيقى خافتة من زوايا السيارة واضعةً وزناً ثقيلاً على جفنيه. كانت المدن المنخفضة إلى جانب الطريق الذي تسير عليه السيارة تفقدُ نورها تدريجياً. ازدادت سرعة السيارة. وشعر ديفيد بأنهما قد أصبحا خارج عمان. أغمض جفنيه أخيراً واستسلم لغفوة عميقة..

على بعد ميل واحد فقط إلى الوراق. كانت البي أم دبليو الحمراء تشق طريقها هي الأخرى باتجاه مأدبا. تصاعد عداد السرعة البرتقالي فيها شيئاً فشيئاً ليبلغ المئة وعشرين كيلومتراً في الساعة. تنقل إبراهيم بعينه بين الطريق وهاتفه حيث تظهر عليه الخريطة. ما زال الطريق إلى جبل نبيو بعيداً. نظر إلى نقاله من جديد وإلى الساعة الإلكترونية في الشريط العلوي فيه خديداً..

ربع ساعة عن منتصف الليل..

ست ساعات وربع على إبحار ستاركيت..

الفصل 51

كان فريق التحليل الجنائي يلتقط الصور تحت المطر لجثة عماد الحسين وهي على حالها ملقاةً على مقعد السائق وقد انحنى نصفها الأعلى على المقعد المجاور. بينما كان العميد عبد الله مصطفى ينظر إلى وجه الجثة مع كل وميض يصدر من كاميرات فريق التحقيق الجنائي. بدا رأس عماد مصاباً بالرصاص لدرجة أن نصفه العلوي قد دمر تماماً. تساءل العميد عن المدة التي بقيت بها الجثة هنا دون أن تثير انتباه أحد. فالدّم المتخثر بجانبها يوحي بأن الجريمة قد وقعت منذ ساعاتٍ ليست بالقليلة.

كانت الأمطار تخف تدريجياً قبل أن تعلن صولتها الجديدة. شعر العميد عبد الله بصليل البرد يدك عظامه وهو بانتظار أن ينتهي فريق التحليل. لم يرد التوجه إلى سيارته لينعم ببعض الدفء بينما رجاله يطوقون المكان تحت هذا الجو القاسي..

”اكتمل التصوير سيدي!“. قال ضابطٌ برتبة نقيبٍ يحمل كاميرا بيده وقد غطاها عن المطر..

”ما خليك الأولي؟“. قال عبد الله متظاهراً بعدم الشعور بالبرد.

”الجثة أصيبت برصاصتين من مسافة لا تزيد عن نصف متر. هذا واضحٌ من نفاذية الرصاصتين برأس الضحية. فهناك أخدودين في الجمجمة من الأمام والخلف يشيران إلى مرور الرصاصتين. لم يحاول القاتل إطلاق المزيد من النار. فليست هناك ثقوب لرصاصٍ إضافي في بدن السيارة قد يكون القاتل أطلقه وأخطأ به هدفه. ما يعني أن القاتل متمرس على القيام بمثل هذه المهمات. كذلك سيدي. للأسف لم تتمكن من أخذ طبعات حذاء القاتل بسبب المياه المرتفعة المنسابة على الشارع. أما بالنسبة لموعد تنفيذ الجريمة فهو لا يقل عن حدوثها قبل ست ساعاتٍ إلى ثمانية من الآن. وهذا واضحٌ من درجة اتساع بؤبؤ عيني الضحية. كذلك درجة تخثر الدم السائل على المقعد المجاور..“

”هل تعرض للضرب أو الخنق قبل أن يقتل؟“ قال العميد..

”أبداً. ليست هناك خدوش أظافر على رقبتة. كما ليست هناك بصمات أصابع عليها أو آثار ضغط. لم يجذب أحدهم قميصه فهو ما زال مكويًا بشكل جيد ولم يتم تعكيره. كذلك. لا يبدو أن القاتل قد مر مستعجلاً ليطلق الرصاص من سيارة أو دراجة مثلاً. بل كان يقف مسيطراً بينما بقي الضحية في سيارته وهذا واضح من اتجاه سير الرصاصات“..

”أنت تعلم بأن والده توفي قبل يومين؟“ قال العميد. وشعر النقيب كأن خيمة قد هوت على رأسه..

”صحيح؟؟“. أوماً العميد عبد الله برأسه وقال: ”هل نرفع الجثة؟“

أجاب النقيب: ”نعم سيدي. ولتذهب إلى المشرحة“..

نادى العميد عبد الله مصطفى على رجاله وقد أمر رفع جثة عماد الحسين. فتح أحدهم باباً خلفياً لسيارة إسعاف كانت تقف هناك. وأخرج كيساً بلاستيكياً مع سريرٍ نقال. اقترب من السيارة. وبدأت عملية رفع جثة الشاب..

في تلك الأثناء. كان رجال العميد قد أنهوا بحثاً في المنازل والمباني المجاورة للحصول على تصويرٍ لكاميرات مراقبةٍ قد تكون سجلت العملية. اقترب ضابطٌ شاب برتبة ملازم نحو العميد. كان رمشاهُ يصارعان مياه المطر. بينما اندفع بخارٌ كثيفٌ من فمه حين قال:

”سيدي. لا توجد كاميرات مراقبة في مباني هذا الشارع على الإطلاق!“

باريس.

”هل شعرت بتلك الهزة الأرضية اللعينة جاك؟“.

قال ميشيل ليون لرونه وقد جلسا لاستراحةٍ قصيرة بعد ساعات قضياها بمحاولاتٍ خليل النص المنقوش على الرقيم الغامض.

”أوه! كنت متوجهاً لشرب بعض الماء من المطبخ. ضغطتُ على جهاز المياه. وحين امتلأ القدر كان الماء بداخله يتراقص كالأفاعي الهندية. ظننتُ أني قد أسرفتُ بالكحول كثيراً الليلة الماضية!“.

ابتسم ميشيل وقال: ”رقصة الأفاعي تلك أصيبت بها مروحة غرفتي السقفية!..“.

”أليس غريباً أن تصاب باريس بهزة أرضية ميشيل؟ لم يحدث ذلك منذ زمن بعيد!“.

هز ليون رأسه وقال: ”العالم يتغير بروفيسور. هل تخيلت يوماً أن تذوب ثلوج القطب الشمالي مثلاً؟ أو تجف بحيرات كندا أو تغرق مدينة البندقية؟“.

”معك حق“. قال جاك وهو يمسح عينيه من تحت نظارته. ”خشيتُ على قوس النصر كثيراً بصراحة. لكنني شاهدته من بعيد صباح اليوم. يبدو أنه لم يتأثر“..

”أخشى أن الجندي المدفون تحته قد شعر بالهزة هو الآخر!“. قال ميشيل رافعاً حاجبيه..

”تناول قهوتك ميشيل. ولنعاود فك شفرات رقيمك اللعين..“.

أجاب ليون: ”سابقى هذا النص معانداً حتى نمسك خيطه الأول. عندها سيبوح بأسراره جميعاً دفعةً واحدة..“.

الفصل 52

الثانية عشرة منتصف الليل بتوقيت عمان..

في مكتبه بتل أبيب. كان ناحام يحني رأسه مسنداً إياه على يديه. شعر كما لو كان قفصه الصدري مغلقاً على جذوة نار لاهبة. كلارا في مكان ما. وإبراهيم يطارد الغازها المرسله إلى عميل السويسريين. والنصفان ما زال بعيدا المنال..

وستاركيت ستبحر بعد ست ساعات فقط..

رفع رأسه ونظر إلى الخيط الأحمر على معصمه. أغمض عينيه وتمتم قائلاً:

"لابد لماشاحنا أن يأت". ثم تلى ما جاء في سفر أشعيا: "عندما سيملك الماشاح. سيتطلع إليه قادة جميع الأمم ليكون قائدهم!".

سحب نفساً وأضاف من السفر نفسه: "سيكون المسيا من نسل الملك داود ومن نسل الملك سليمان..".

اتكأ العجوزُ مسنداً رأسه على كرسيه. ونظر إلى ساعة يده. شعر بأنه جنديٌ كلفه الرب بمهمةٍ كبيرة هذه الليلة..

مهمةٌ تكتب التاريخ برمته. أو تنسفه برمته!

فجأة. رن هاتفه المحمول بجانبه وقد بعثر أفكاره كلها. نظر ناحام إلى الهاتف. فتح الخط وأجاب: "بلى سيدي!".

كان صوتٌ مرتعش يتحدث من الطرف الآخر..

"ناحام. أخبرني يا أخي. قلبي يتوهج ويخبو. ماذا يحدث الآن!.."

"سيدي الرابي الأكبر. أقسم لك أنني أتابع كل شيء. ما زال الخطر كبيراً. لم يعثر

عميلي على النصفين بعد..

سمع ناحام صوتَ بكاءٍ عجوز. كان الرابي الأكبر ينشج نشيج الأطفال. ويئن كالثكلي..

”سيدي! أنت رجلٌ مؤمن بإرادة الرب. إذا أراد الرب أن نعثر عليه الليلة فسيفعل. أما أن..“

”لا تكمل يا ناحام!“. قال العجوز مقاطعاً نوبةً بكائه. ”لا يسمعك الربُ تتحدث بما لا نريد. كلي أمل بأن الرب العظيم سيعيد إلينا أملنا الكبير. ادعُ معي يا ناحام. ادعُ معي يا أخي!..“

نظر ناحام إلى شريط الكابالا الأحمر بيده وأغمض عينيه. ثم قال بصوتٍ مطمئن: ”سأفعل سيدي. ارحُ أنت والشيوخ. أي خبر يأت سأؤفيك به..“

أفقل الرابي الخبط كامتاً نشيجاً لا يكاد يتوقف. ووضع ناحام الهاتف بجانبه. وراح يحملق في لوحة سقوط أورشليم على الجدار..

في مكتبها بمركز الاتصالات والمطل على شارع مجاور في عمان. شعرت لبنى بوجود أنوار زرقاء وحمراء تنعكس على الستارة المجاورة لكتفها الأيسر. تصاعد خفقان قلبها بشدةٍ لم تشعر بها من قبل. اقتربت الأنوارُ أكثر. بل وتسلسل صوت صافرات سيارات الدرك إلى مسامعها بشكلٍ مربع..

فتحت الستارة ونظرت إلى يسارها نحو الشارع. كان العرق البارد قد بدأ يتدفق من ثناياها كلها. نظرت إلى موكب سيارات الدرك وهي تقترب من المبنى. ضغطت بقدمها على الأرض متمنيةً أن يضغط سائقي السيارات على البنزين ليستمر الموكب بالمرور دون التوقف بباب المبنى. لكن الموكب كان يخفف سرعته تدريجياً..

حتى توقف تماماً بباب مبنى مركز الاتصالات..

هل اكتشفوا اتصالاتي بناحام؟

راح قلب الفتاة يضرب قفصها الصدري كدما. فعقوبة التجسس على المكالمات ستودي بها إلى زنانة ضيقة لسنوات طويلة. أما تسريب المكالمات إلى شخص يهودي خارج البلاد فقد يطيح برأسها تماماً..

ورأس زميلها في الغرفة المجاورة..

جَاهَلت رنين الهاتف على المنضدة وهي ما تزال شاردة الذهن والبصر وتنظر إلى السيارات. فتحت أبواب السيارات الأولى معاً. وترجلَ منها ضباطُ الدرك. كان أحدهم يحملُ رتبة عميدٍ رأتها من لمعان البرق المفاجيء. إذ بانَت النجوم الثلاث والنَّجْم الملكي على كتفيه. عدل العميدُ قيافته غير مهتمٍ بوابل المطر. وهم بدخول المبنى..

شعرت لبنى بأن دمها راح يختض فزعاً. حاولت الاتصال بزميلها الآخر. لكنها لم ترد لفت الأنظار. ما زال الهاتفُ على منضدتها يرن. نظرت زميلتها الأخرى لها باستغراب. فلبنى لا تشرد الذهن هكذا إلا ما ندر..

عندما تتعرض إلى مشكلة كبيرة فقط!

”لبنى!“ قالت زميلتها..

التفتت الفتاة لها وقد بان الشحوب بوجهها..

”نعم!“ أجابت متصنعةً أن كل شيءٍ على ما يرام. أشارت زميلتها لها بحاجبيها ناظرةً إلى الهاتف الذي ما زال يرن. ابتسمت لبنى ورفعت السماعة. وراحت ترد بتلغثم على متصلٍ كثير الشكوى من خدمة الإنترنت التي توفرها شركة الاتصالات هذه الليلة..

كان الجدار الذي يفصل بين موظفي قسم الاتصالات والممر الذي يحتوي بمنصفه على مصعد مؤلف من الزجاج الضبابي. إذ راحت لبنى تجيب على المتصل وتنظر إلى الزجاج متمنيةً أن لا يفتح باب المصعد ويخرج منه عناصر الدرك. فيما واصل المتصل شكواه التي يجب عليها الإجابة عليها دون تامل..

استطاعت رؤية تغير الأرقام الضوئية الحمراء أعلى باب المصعد. أحدهم بداخل كابينته وهو يرتفع صعوداً. تمت ألا يتوقف المصعد في الطابق الثالث الذي يقع فيه قسمها. كادت تنهي الإجابة على شكوى المتصل لتغلق الخط وتتفرغ لترقب الكارثة القادمة. لكن المتصل عاود الشكوى من جديد معيداً إياها إلى المربع الأول..

ثوانٍ. وأصدر المصعد صفيراً ناعماً. وفتح بابه عن جسمٍ مشوق يرتدي قيافةً نيلية اللون..

كتلك التي يرتديها عناصر الدرك الأردني.. تماماً.

”كم بقي من الوقت لنصل؟“. قال ديفيد لزميله السائق بعد أن أفاق من غفوته..
 ”ربع ساعةٍ وسنكون فوق جبل نيبو ديفيد. خفض توترك. سنصل على أية حال!“
 ”هل تعلم بأن بإمكان أية دوريةٍ إيقافنا هنا فوراً لتجاوزنا السرعة المقررة وعدم احترام كاميرات المراقبة؟“

”لن يفعلوا. الطريق طویل ومفتوح. كم دوريةً من الممكن أن تتواجد هنا تحت وابل المطر هذا؟“. قال السائق مصارعاً بعينيه الزجاج الأمامي الذي يبتل تارةً ويجف أخرى بفعل ماسحات المطر..

”الأردنيون من عشاق القهوة. عيونهم لا تنام يا رجل. كإمها وضع فيها الحصى.“
 قال ديفيد متثائباً.

”هل تعلم بأن كاميرات مراقبة السرعة قد انفجرت بوجهي ثلاث مرات منذ أن غفوت؟“.

ضحك ديفيد وهو يحك صلعته ثم قال: ”ستغضب كارين لدفع تلك الغرامات!..“

ضحك السائق لوهلة، ثم قطع ضحكته فوراً، رفع إصبعه ليشير إلى شيء في الخارج ثم قال:

”ديفيد، تلك هي عصا موسى!..“

نظر ديفيد ايتان إلى حيث أشار صاحبه، كان على مسافةٍ ما زالت بعيدة إن بان ضوءٌ ساطعٌ من فوق جبل مرتفع، لم يتمكن ديفيد ايتان من رؤية تفاصيل ذلك الشيء الذي يشعُّ سناءً، لكن الأمل بالوصول إليه قريباً عاد إلى قلبه، وحرك هرمونات الإنارة بداخله..

تمتم قائلاً: ”موسى أبو الأنبياء، من جاء قبلاً ومن جاء بعده!..“

سمع زميله ما تتم به، هز رأسه قائلاً: ”شلوشاعسار عيقاريم! (الأصول الثلاثة عشرة)“، إذ تذكر تلك العبارة لكثرة ترديدها في الثقافة الدينية اليهودية التي تناقش دائماً تلك الأصول المنقولة عن موسى بن ميمون، الرجل الذي حدد عقائد الدين اليهودي بثلاثة عشر عقيدة..

نظر ديفيد إلى ساعته، ورفع رأسه معاوذاً النظر إلى قمة جبل نيبو المتوهجة تحت المطر..

الفصل 53

سرت القشعريرة عميقةً في دمِ لبني وهي تشاهدُ ضابطاً برتبةٍ عميدٍ يدخل القاطع الزجاجي الذي يتجمع خلفه موظفي مركز الاتصالات على مساطب طويلة واحداً جنب الآخر. دخل العميدُ بزيه النيلبي وهو يحملُ ورقةً بيده. رفع عينيه فالتقتا بعينيها من دون باقي الموظفين السبعة الجالسين إلى يمينها. كانت جُلُسُ في نهاية الصف بجانب النافذة. شعرت بأن صعقةً كهربائيةً قد اقتحمت دماغها لذلك الاتصال البصري بينها وبين العميد. حرف الضابطُ عينيه وغير اتجاهه نحو غرفة مجاورة. كان شرطيٍّ آخر يسيرُ خلفه حافراً بحافر. دخل العميد الغرفة وأغلق الجندي الباب من ورائه. وبقي واقفاً أمام الباب..

كان دماغٌ من الرعب قد بدأ يضربُ عنقَ لبني صاعداً إلى رأسها. ازددت ريقها بصعوبة. وشعرت بأن أصابعها لم تعد قادرةً على الحركة. تصاعد المغص في بطنها ونز العرق بدفقات جديدة من مساماتها. لم تعد قادرةً على التفكير بشيء. تقافزت الأفكار برأسها مبعثرةً. هل تتصل بأهلها؟ أم تنتظر حتى توضع الأصفاد بمعصمها؟

كيف لهذه الليلة أن تنتهي!

تسارعت أنفاسها وهي تسمع صوتاً صادراً من غرفة زميلها الذي يوفر لها تسجيلات المكالمات. صوتُ انسحابِ كرسي على الأرضية..

ماذا يجري له في الداخل؟

ثوانٍ. وارتعدت فرائصها لصوتِ مقبض الباب وهو ينفتح. خرج العميدُ بوجهٍ مستبشر. شكر زميلها صاحب القسم المسؤول عن التنصت والتسجيلات. أدار وجهه وخرج..

نحو المصعد..

نظرت إلى الشاب الذي كان وجهه شاحباً هو الآخر. رمقها بنظرةٍ غاضبةٍ ثم دخل غرفته وأغلق الباب، شعرت لبني بأن هناك خطبٌ ما، لكن لماذا لم يعتقل العميد كليهما؟

سرت دفقةً أخرى من الأسئلة في خلدتها، وأحست بأنها لن تتحمل أكثر. ضغطت على قدميها ونهضت واقفة، فشعرت بدوار الرعب يلف دماغها، لكنها خاملت ومشت نحو تلك الغرفة، فتحت الباب ودخلت فوراً..

”ماذا حدث؟!“. قالت بصوتٍ هامس، فيما كان زميلها يسند رأسه على راحتي يده..

”كدتُ أموتُ رعباً“. قال، ثم سحب نفساً وأطلقه وأردف:

”هناك جريمةٌ قتلٍ حدثت..“

وهم يريدون سجل مكالمات الضحية قبل موته فحسب!..“

الفصل 54

الثانية عشرة والربع ليلاً بتوقيت عمان.

خفف إبراهيم سرعة البي أم دبليو الحمراء وهو ينظر إلى الخارطة الظاهرة على شاشة نقله. رفع عينيه ليرى انتصاب عصا موسى فوق جبل نيبو الذي لم يعد يبعد سوى مسافة قريبة عنه. برقت السماء على المكان. فكان أن رأى طريقاً بدأ بالتصاعد إلى الأعلى قائداً باتجاه الجبل. فيما كانت المياه تنحدر منه إلى أسفله.

رصف سيارته جانباً وعاود النظر إلى الخارطة. عليه الصعود إلى أعلى الجبل لمسافة قصيرة قبل أن يتمكن من السير مشياً باتجاه عصا موسى. إذ تقع العصا على نهاية الخافة العليا للجبل. ويجب السير لها على الأقدام لنحو 200 متر من موضع ترك السيارات الذي حدده جهاز تحديد المواقع. فكر إبراهيم قليلاً قبل الشروع بالنزول في المكان. أغمض عينيه وهو يفكر بما يمكن أن يحدث. فعميل السويسريين متجهٌ إلى هنا. ولم يكن يعلم ما إذا كان قد وصل قبله، أو أنه سيصل بعد لحظات..

رفع جفنيه ونظر مجدداً إلى الطريق المتصاعد المؤدي إلى الجبل أمامه. ثم غير مكان ناقل السرعة. وضغط على دواسة الوقود.

سيرصف سيارته في النقطة النهائية المحددة على الخارطة..

على بعد 200 متر فقط.

في تلك اللحظات. كان محرك سيارة ديفيد ايتان وزميله قد انطفأ. معلناً الركوب في مرآب المكان. والذي يقع قريباً من قمة الجبل..

ترجل ديفيد لوحده من السيارة تحت وابل المطر. وكان ما زال يشعر بالنعاس لطول الطريق ودفع السيارة. لفحته نسمة برودة تكاد تقطع شحمة الأذن لحدتها. وابتل رأسه برذاذ مطرٍ ما لبث أن اشتد ليتحول إلى وابل فجأة..

أبرقت السماء بوميض جامح، ونظر ديفيد إلى المبنى الذي يعلو قمة الجبل. لم تكن عصا موسى تتضح من هناك، فالمبنى الذي يبدو قديماً ينتصب شامخاً فوق نيبو مانعاً رؤية العصا من هذه الزاوية. نظر ديفيد من حوله ليعثر على رجال أمن أو موظفين. كان المكان يبدو مهجوراً لولا أشعة المصابيح الوهاجة المسلطة نحوه عالياً. استدار نحو المبنى الأثري وبدأ خطواته الأولى باتجاه العصا..

في ذات اللحظات، كان إبراهيم يقترب صعوداً من مرآب المكان. لم تكن العصا تبدو من ناحيته هو الآخر. فقد كان المبنى الأثري معتماً على رؤيتها. حاول شم رائحة واصل قبله حين بدأت البي أم دبليو الحمراء التي يقودها ترتفع على الطريق لتكشف عما يقف على أرضية المرآب المرتفعة. تكشف المنظر من أمامه شيئاً فشيئاً. فلفتت أنظاره سيارة صغيرة. لم يرمَ بداخلها. لكنه حين نظر إلى اليسار قليلاً باتجاه المبنى الأثري. وعندما أبرقت السماء ببرق لم يكن شديداً للغاية. رأى شاباً أصلاً يرتدي معطفاً طويلاً..

وهو يتجه صوبَ مكان العصا.

بسرعة، أمسك إبراهيم هاتفه، ونقر على شاشته ليتصل بناحام عبر التطبيق الخاص. وفي تل أبيب. رن الهاتف المحمول للعجوز ليرد عليه فوراً. "ماذا هناك إبراهيم؟"

"سيدي. لقد وصل عميل السويسريين قبلنا!.."

بلع ناحام ريقه، وراحت السيناريوهات تتقاذف أمام مخيلته. وفكر سريعاً في حال اشتبك عميله الشاب بعميل السويسريين في مكانٍ أثري وما يمكن أن يحدث إذا تدخلت أي قوة أمن تتواجد لحراسة المكان..

سيفتضح الأمر برمته..

”كيف عرفته؟“ قال ناحام.

”ماذا سيفعل شابُّ أصلعٍ بمعطفٍ أسودٍ طويلٍ هنا تحت هذا المطر سيدي؟“. أجاب إبراهيم.

فكر ناحام بما سمع. وشد قبضته العجوز حتى بدأت ترتعش..

”حسناً إبراهيم. اهدأ. اربص سيارتك قريباً من العصا وحاول النزول إلى المكان. كن حيث يكون ديفيد ايتان. لكن دون أن يعرف من أنت. تظاهر بأنك هناك لأجل الصلاة إن أحس بك رجال الأمن!“.

تدفق الدم في رأس إبراهيم حتى وصل إلى قمة رأسه. فرجما يشعر ايتان بمن يلاحقه كظله..

”سيدي. أفضل أن لا يراني البتة! سأراقبه عن كثب“.

تمتم العجوز موافقاً. فأغلق إبراهيم الخط وسحب نفساً عميقاً. ثم تقدم بسيارته أكثر نحو المرآب. وربص سيارته بجانب سيارةٍ أخرى من طراز فورد غامقة اللون. أطفأ المحرك وفتح الباب. وعندما نظر إلى يساره حيث الفورد المركونة. صعق قلبه لما رأى..

كان أحدهم في تلك السيارة خلف المقود..

وهو ينظر نحوه بشكلٍ مرعب.

باريس.

الطوفان العظيم تفاقه سفينة..

هناك عند الصارية..

يقف باب اخماده..

وإن له مصراعين..

كان ميشيل ليون وزميله جاك روند قد وصلا إلى الثلث الأخير من النص المحفور على ذلك الرقيم الغامض. لقد مضى نصفُ النهارِ وهما يحاولان ترجمة النص وفك شيفرته. لكن دون أن يجدا الربط المناسب بين مفردات النص..

”عاد للحديث عن الطوفان ميشيل!“ قال روند وهو يشعر بالضجر.

”لا تيأس جاك“، قال ميشيل. ”أنت عالمٌ آثارٍ ويجب أن تتحلى بالصبر“.

”هل عاود الحديث عن طوفانٍ كطوفان نوح أم هو يقصد الطوفان الذي فسرته أنا!“.

”فسرته كد؟“. رد ميشيل.

”كسيلٍ من الحروب والقتل الذي أعتقد أنه مر ببابل!“.

”لا تتعنت برأيك روند. قد يكون المقصودُ أمراً ثالثاً لا علاقة له بكل هذا“.

أجاب جاك: ”ميشيل. هل من الممكن أن ندع هذا الهراء ليومٍ آخر؟“.

”لا يمكن. السيد شوفنمان قد يطلب رقيمه بأي لحظة. ورغم أننا نمتلك صورةً له ولما عليه من نص لكن دراسته وهو بأيدينا سيكون أفضل“.

رفع جاك روند حاجبيه وأطلق زفيراً متملماً وقال: "الواحدة والنصف ظهراً ميشيل!"

التفت ليون لرفيقه وقال: "أذهب لتناول الغداء. سأبقى أنا هنا أمام هذا الشيء!"

كان السائق المرافق لديفيد ايتان ينظر بشزرٍ من داخل سيارته إلى إبراهيم الذي أزاح نظره عن عينيه رغم ما شعر به من الصدمة. إذ ترجل مغلقاً باب البي أم دبليو كأنه غير معني بنظرات ذلك الشخص الذي قرع طبول قلبه رعباً. مشى إبراهيم متجاوزاً السيارتين وامتجهاً نحو المبنى الأثري وسط المكان في الأعلى. خطأ ماشياً في الطريق المتصاعد المؤدي إلى هناك بخطىٍ حاول أن تبدو ثابتة. فقد كان يحاول اللحاق بالشباب الذي اعتقد أنه ديفيد لما رآه من ملبسه للمعطف الأسود وصلعته البائنة تحت البرق. لكن الظلام كان يخيم على مساحات الطريق المتصاعد بينما يتكاثف نور المصابيح على نقاطٍ أخرى منه. بدأ أمامه طريقٌ طويلٌ محاطٌ بصفيين من الأشجار يعلو في نهايته شيء من البناء لم تتبين تفاصيله أمامه. مشى إبراهيم في ذلك الطريق المكسوة أرضيته بحجرٍ أسود. دقيقةٌ واحدة تحت المطر. وأصبح على يساره ذلك الشيء. نظر نحوه فرأه كاملاً. كان يبدو كجذع نخلة لكن من الحجر. بل كان أقرب إلى المسلة منه وهي تنتصب كجذع شجرة ميتة. رفع بصره ليرى وجوهاً مخيفة تبدو بارزة من ذلك الجذع الحجري. أما إلى الأسفل. فقد كانت كتابةٌ باللاتينية قد حفرت عليه في خطوطٍ عمودية عديدة. استمر ماشياً بجانب ذلك البناء وحاول تجاوزه. لكن عينيه راحتا تنظران إلى تفاصيله الباقية. حتى أصبح أمامه بخطواتٍ فالتفت إليه مستغلاً برق السماء. فقرأ كلمات مكتوبة عليه بالعربية (الله محبة.. دعوة.. السماء.. ورسالة.. الأنبياء). وإلى جانبها. كان نقشٌ في قلب الجذع يبدي طبع ثلاث كفوفٍ متفاوتة الأحجام. كما أحدهم وضع كفه على عجينٍ فانطبعت فيه..

شعر إبراهيم بالغرابية لما رآه على ذلك الجذع. وجوه صارخة. وأكف مطبوعة. ومفردات بالعربية واللاتينية. لكنه تركه وراءه. واستمر ماشياً باتجاه مكان عصا موسى..

أعلى قمة جبل نيبو.

على بعد خطوات أمامه. كان ديفيد ايتان بمعطفه الأسود وصلعته الناعمة كلياً بياض المطر قد تجاوز مبنى صغير يقع على يمينه. فقد مشى بطريق منحرف بجانب المبنى محاولاً تجاوزه. وعندما فعل بعد خطوات. رأى المبنى بشكل أقرب. كان شبيهاً بالكوخ وقد توسطت واجهته دائرة تظهر شكلاً أشبه بالزخرفة الإسلامية. بدت باب المبنى موصدةً. فيما خلا المكان من أي زائر عداه..

سمع ديفيد صوت خطواته وهي تضغطُ الطين من تحت أقدامه. حتى وصل إلى حافة القمة حيث سور من الحديد يحيط بالمكان الهائل الارتفاع ذلك..

ليشمخ أمامه بارتفاع خمسة أمتار..

نصبُ عصا النبي موسى..

الفصل 55

تحت مطر كثيف يحمل سكاكيناً شبحيةً من البرد. كان ديفيد ايتان ينتصب واقفاً أمام نصب عصا موسى الشامخ أعلى قمة جبل نيبو. بدا النصب عبارة عن قطع حديدية صغيرة لحمت ببعضها لترتفع مشكلةً هيكل العصا المنغرسه عند الزاوية الأخيرة من قمة الجبل. فيما بدا عليها ثعبانٍ من الحديد أيضاً وقد التف لأربع لفاتٍ في الثلث الأعلى من هيكل العصا. وتفرعت شعبتان منها باتجاهين كأنهما شاربا ملكٍ هندي. جاعلةً العصا تبدو وكأن طير نورسٍ يحط أعلاها. بينما كان مبنى الكنيسة القديمة وراء ظهر ايتان. وبدا المكان يشع بنور الأضواء الصفراء الكبيرة التي تنيره.

نظر ديفيد إلى القاعدة التي تنغرس فيها العصا. وكانت من الحجر الذي تبنى منه كل مباني الأردن. وقد غطته لافته كتب عليها باللغتين العربية والانكليزية:

وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان. لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل لتكون له الحياة الأبدية..

يوحنا 3:14-15

وفيما راحت أنظار ايتان تحمقاً في كل المكان بدءاً من رأس العصا نحو حذائها الحجري. جلجل قلبه صوتٌ من الورا..

”قف!“..

شعر ديفيد بأعضائه كلها ترخ في تلك اللحظة، لكنه حافظ على هدوئه واستدار ببطء، ليرى رجلاً لا يبدو منه إلا عيناه وقد ارتدى عباءة شمعية من تلك المضادة للمطر. ويحمل بيده مصباحاً شبيهاً بمصباح الشرطي الذي أوقفه عند المدرج الروماني، إلا أن نور المصباح تلالس وسط أنوار المصابيح الكبيرة التي تنير المكان..

”عفواً“، قال ديفيد بهدوء..

”ماذا تفعل هنا؟ وكيف دخلت؟!“، صاح الشرطي بنبرة غاضبة..

خطا ديفيد بهدوء وابتساماً مصطنعة نحو الشرطي لكن الأخير بادره بصوت عال: ”لا تتحرك! سألتك كيف دخلت إلى هنا؟“..

أحنى ايتان رأسه إلى الأرض وهزه بما يشبه عدم الرضا، ثم نظر إلى الشرطي وقال: ”يا أخي، تذكر الرب في ساعة كهذه ومكان كهذا وحت هذا المطر الكثيف لا يتكرر كثيراً في بلاد كالأردن، المطر جاء أخيراً، وجئت هنا لبعض الشعور بالصفاء!“.

لم يبدو أن الشرطي قد اقتنع بما قاله ايتان، فوضع مصباحه اليدوي في حزامه تحت المطرية واقترب من ذلك الأضلع الغريب الأطوار، وأشار له برفع يديه إلى الأعلى، ثم بدأ بتفتيشه.

مرر الشرطي كفيه تحت أبطي ديفيد، ثم نزل بهما نحو خصره كقطارين يسيران على جنبيه، تفقد حزامه من الأمام والخلف، وبدأت مرحلة التفتيش المربعة بالنسبة لديفيد، فقد نسي ترك حريته الملتوية في السيارة مع رفيقه، وما زالت محكمة الربط بحزامها تحت بنطاله، قريباً من قدمه اليمنى..

مرر الشرطي يديه إلى فخذ ايتان الأيسر، وبدأ بالنزول نحو ركبته، فساقه، حتى وصل إلى كاحله..

شعر ديفيد بأن البرد المحيط به كله لا يمكن أن يطفئ الحرارة التي اشتعلت بصدرة وبدأت تزحف بالرعب إلى دماغه. فالشرطي عازمٌ على التفتيش بيديه حتى الوصول إلى الكواحل. وسيتحول إلى الساق اليمنى الآن. نازلاً بيديه صوبَ السكين الملتوية الرابضة هناك..

انتقل الشرطي بكفيه إلى الفخذ الأيمن لايتان. وبدأ كفاهَ النزول إلى الأسفل. إلى ركبته. ثم إلى بطة ساقه. وعندما بدأت يداه تصلان إلى تخوم الحربة تحت البنطال. اهتزت ساق ديفيد بعنف. ورافقتها سعلة قويةٌ منه. رفع الشرطي عينيه إليه. ووجهه يحك أنفه بعد أن عطس بفعل البرد كما يبدو. ركز الشرطي على عيني ايتان تحت حاجبيه الذين ارتفعوا. وترك المرحلة الأخيرة من التفتيش ونهض..

”كان ينبغي أن تمر على غرفة الحراسة قبل الدخول إلى هنا. لتمر بالتفتيش وتقطع تذكرة الدخول إلى هنا. رغم أن وقت الدوام الرسمي قد انتهى!“. قال الشرطي وهو يستعيد التقاط مصباحه اليدوي من حزامه..

”أسف أيها الأخ، لم ألاحظ تلك الغرفة. كم سعر البطاقة؟“. نظر الشرطي لديفيد وهو يتحدث بتلك الكياسة والهدوء كمن يقف في مكان عبادة بالفعل. حدجه بعينه لثوان ثم قال: ”أكمل طقوسك. دفتر البطاقات ليس معي..“

استدار الشرطي نحو غرفة الحراسة الواقعة خلف مبنى الكنيسة من جهة المرآب. وراح يسيرُ كالشبح تحت المنطقة التي لا تنيرها المصابيح الكبيرة. أما ديفيد. فقد شعر بزوال تلك السخونة على الفور. عض على شفتيه. والتفت صوب عصا موسى من جديد وهو يتمتم قاصداً كلارا: ”وماذا تركت هنا أيتها العاهرة!“.

على بعدِ خطواتٍ فقط. وفي خندقٍ واطئٍ يحيط بالباحة التي تضم عصا موسى ومبنى الكنيسة. كانت عينا إبراهيم تراقبان ديفيد ايتان عن مسافةٍ لا تزيد عن ثلاثين متراً فقط. فيما كان هاتفه المحمول ملتصقاً بأذنه في حديثٍ مع ناحام العجوز.

هز إبراهيم رأسه وقال: "حسناً سيدي! سأتركه ريثما يعثر على ما جاء لأجله".

في جنيف، كانت كارين شخيتيليه تذرع غرفتها كفأراً داخل صندوق. لم يرد شيء من عملها القابالي في عمان حتى الساعة. أطفأت سيكارتها الحادية عشرة منذ وصول الرسالة الأولى التي استقبلها المركز اليوم قالباً يومها رأساً على عقب. تلك الرسالة التي بعثت بها الفتاة مدعيةً احتفاظها بتكملة الزوهار التاريخية.

خطت بسرعة إلى غرفة المعلومات نحو رفيقها المتسمر خلف الحاسوب. وصلت إليه ووضعت يدها على المنضدة.

"هل وصلت رسالة أخرى إلى بريدنا السري؟"

تثأب الشاب وهو يضع يديه خلف رأسه. "لو وصلت لرأيتيني أدخل على غرفتك ركضاً!"

"اللعنة".

رمقها الشاب وقال: "لماذا؟ هل حصل مكروه لديفيد؟"

"انتظاراً اتصالاته هي المكروه بعينه!". قالت وهي ترفع حاجبيها.

"ديفيد مدربٌ بشكل ممتاز كارين. لا داع للقلق".

انتصبت كارين وهي تتخصر وهزت رأسها مجاملة. ثم استدارت عائدة إلى غرفتها وهي تنظر لساعتها..

الثانية عشرة و 35 دقيقة. بتوقيت العاصمة الأردنية.

بدا الطريقُ موحشاً وخالياً من السيارات. وكان سقف السيارة السوداء رباعية
الدفع يرتعد برقصات قطرات المطر على معدنه. تصاعدت أغنية (I am not
yours) لـ (Angus) و (Julia Stone) من أركان السيارة التي كانت تسير
بسرعة 120 كيلومتراً في الساعة..

أرخت كلارا رأسها على المقعد وراحت تدندن مع الأغنية..

Light me up a cigarette and put it in my mouth..
You're the only one that wants me around..
And I can think of a thousand reasons why..
I don't believe in you!
I am not yours anymore!

شعرت كلارا بالخندِر وهي تقود سيارتها على ذلك الطريق. لم يبدُ أن للطريق نهايةً
بعد. كانت ضربات البيانو في الأغنية تتناغمُ مع أنوار الشارع المتخاطفة من جابي
السيارة. وأصدر صوت المياه تحت الإطارات فحيحاً كفحيح الأفاعي..

الفصل 56

بدا إبراهيم مطلاً برأسه من الخندق الملاصق لمكان الكنيسة وعصا موسى وهو ينظر نحو غريمه الذي يراه لأول مرة ويتفرس في منظره من بعيد تحت أنوار الأضواء الصفرة العالية. كان ديفيد يحوم في المكان تارةً ويتظاهر بالمناجاة عند العصا تارةً أخرى. فلعل الحارس ينظر إليه من مكانٍ ما. كان يبدو كأنه يحصي ذرات التراب في المكان وهي تنقع تحت شراسة المطر..

”ماذا تركت هنا هذه المرة!“. تتمم ديفيد وهو يتفحص المكان. ثم التفت نحو مبنى الكنيسة خلف ظهره. كان الباب موصداً بمنظر طارد. مشى بضع خطواتٍ نحوها. وتفحص أركانها الصماء بعيني صقر. لم يبدُ فيه إشارة أو صورة أو علامة من الممكن أن تلهمه حول ما قد تتركه الفتاة في هذا المكان. خطأ مبتعداً عنها نحو السياج المحيط بالمكان. فاستوقفه بناء يعلو نحو متر واحد يقع إلى الأمام من مبنى الكنيسة. اقترب ديفيد نحوه متفحصاً. كان عبارةً عن مكعبٍ حجري يغطيه غطاءً من الحديد المحفور فيه شكل عنقود عنب بدت حباته كثقوب في الحديد. تلفت ديفيد مفتشاً عن الشرطي. ولم يكن يبدو أنه يقف قريباً تحت ذلك المطر المجنون. عاود النظر إلى الغطاء الحديدي وتلمسه بيديه وقد أدخل أصابعه في ثقب حبات العنقود. ثم أغلق قبضة يده ورفعها. وبعد أن تأكد من عدم وجود الشرطي قريباً. هوى بقبضته على الغطاء ضارباً إياه. قبل أن يضع أذنه عليه فوراً..

رن الغطاء الحديدي بصوتٍ ذي نفسٍ طويل. مفصلاً عن فراغ عميق يقبع تحته. أقطب ديفيد حاجبيه لما سمع. فتلك القطعة الحديدية تغطي حفرةً أشبه ببئر عميق ترد الصوت بالصدى. تلمس الحلقة المخصصة للقفل والمتصلة بالغطاء. أدخل إصبعه فيها وبدأ برفعها. إذ كان غطاء البئر ذو نقش عنقود العنب بلا قفل. فتحه إبتان عن آخره. ثم مد رأسه ناظراً لما هو بالداخل. وبدا أن الأضواء العالية المنتشرة في المكان لا تستطيع إنارة حفرة لا تزيد أبعادها عن ٣٠ سنتمترًا بكلا

الاجاهين. فاستعان بجهازه المحمول. وفتح مصباح كاميرته. واقترب مجدداً من جدران البئر مع نور المحمول هذه المرة. فاستنير نفق عمودي من الحجارة لم يبدُ أن له نهاية. لكن على أحد جدران ذلك النفق. وقريباً من متناول اليد..

بدا شيءٌ معلقٌ كأنه يطير بجناحي ملاك..

”أخبرني، أي جريمة وأي سجل؟“. قالت لبني وهي ما تزال تشعر بارتحاف ساقها.

رد الشاب. ”لقد قتل عماد خليل الحسين ابن التاجر المعروف خليل الحسين مساء هذا اليوم. تخيلي أن الشرطة تقدر موعد قتله قبل نحو خمس ساعات من اكتشاف جثته. قال العميد إن أحدهم قتله بالرصاص. وقد جاء بأمر قضائي مستعجل يطلب سجل المكالمات الخاصة به!“.

”قتل اليوم. وصدر الأمر القضائي اليوم. ويريدون سجل المكالمات اليوم أيضاً!“. قالت لبني مستغربة. فإجراءات كهذه قد تحتاج إلى أيام عديدة في الظروف الطبيعية..

”تخيلي أهمية القتل. لبني. أتمنى أن لا يكون (نون) متورط في هذه القضية. وإلا فنحن نتعامل مع برمبل بارودٍ قد يطيح بنا في أية لحظة!“. قال الشاب وهو يمسح جبينه قلقاً..

لم تفكر لبني بإمكانية إشراكها وزميلها في تلك الجريمة الغامضة. شعرت بالحرارة تخرج من أذنيها على هيئة بخار ساخن. وأحسست بعطشٍ مفاجئٍ في حلقها. لكن الشاب نظر لها وقال: ”لا تقلقي. فقد يكون نون بعيد عن هذه القضية. ستبين الأمور حالما نزودهم بالسجل الكامل للمكالمات. على أية حال. لن يحصلوا على السجل من هنا. بل من القسم المختص بالخوادم الحافظة للمعلومات. فدخولي من هنا غير شرعي. لست إلا حلقة وصل لبني!“..

لم تهدئ تلك الكلمات من روع الفتاة. وبقي الشعور بالرعب يلزمها وهي تستدير نحو مكتبها بعد أن أوماً لها الشاب بضرورة العودة إلى مكانها. نظرت من خلال الزجاج الشفاف في نهاية الغرفة. ما زالت البدلات النيلية تخوم هناك. بانتظار الحصول على سجل المكالمات العاجل..

تلمس ديفيد ايتان الشيء الغريب المعلق بجدار البئر العمودي أمام الكنيسة. كان عبارة عن لاصق ذي وجهين ملتصق بحجارة البئر من جانب وبقارورة زجاجية صغيرة من الجانب الآخر. ما أبقاها معلقة كأنها تطوف في الهواء وسط ظلمة البئر ذي الغطاء الحديدي.

تلقت ديفيد من حوله. ثم أمسك القارورة الزجاجية وانتزعها من الشريط اللاصق. كانت القارورة مغطاة بغطاء من المعدن. وبدت شبيهة بمرشة ملح الطعام إلا أنها كانت أكبر. أمسك الغطاء بإحكام وقام بتدويره. ففتحت القارورة مفصحةً عما بداخلها من ورقة ملفوفة حول نفسها. مد يده وأخرجها من هناك محاولاً حمايتها من مياه المطر. كانت أصابعه ترجف لشدة البرد العاصف وهو يحتك بجلده الناقع. وحت ضوء الأنوار الصفراء العالية. مرت عينا ديفيد على اسطر مكتوبة بالعبرية على الورقة. بدت كأنها مكتوبة بحبر مقدس وباليد..

قريباً مما يجري. ومن داخل الخندق المجاور. كانت عينا إبراهيم تراقبان كل حركة يقوم بها ديفيد ايتان هناك. فيما كانت أسنانه تصطك برداً وغيظاً في آن واحد..

ثوانٍ وأخفى ديفيد القارورة والورقة تحت معطفه الأسود. عائداً باتجاه سيارة رفيقه في المرآب القريب.

الفصل 57

في تل أبيب. وبغرفته ذات الصمت الهادئ والإنارة الخافتة. كان ناحام يستعيد ذكرياته مع كلارا..

تذكر كيف تجرأ للمرة الأولى محطماً حاجز العمر معها. حين كانت ساعات العمل قد انتهت. وتناقصت الأضواء المنارة في مكتبه. واستعاد كيف أنه كلفها بعمل إضافي يحتم عليها التأخر لأطول فترة ممكنة. ثم بعد ذلك. أرسل بطلبها إلى مكتبه. وعندما كانت أقدامها تخطو باتجاه غرفته. كان يتصنع النظر إلى لوحة أورشليم وهي تحترق المعلقة على الجدار وقد أمسك غليونه الذي لا يفارق يده. وحين ولجت الفتاة كأنها كوكب لامع يسير في مكتب أشبه بالسديم المظلم. كان عطرها يملأ المكان رغم ساعات الدوام الطويلة التي مرت عليها. نظر إليها وقد شعر بأن ماكنة قلبه عادت لتدير تروسها العاشقة رغم الزمن الذي وزع التجاعيد على وجهه ويديه كخارطة حكى مسيرة سنوات عمره الطويل..

حينها. اقترب منها وهي تقف أمامه ملبية طلبه باستقدامها. سألها بضع أسئلة عن العمل والمراسلات الأخيرة. وزحف بخطواته نحوها أكثر فأكثر. ثم أغمض عينيه وتظاهر بشم عطرها. لم تتراجع كلارا عنه حينها. لكن وجهها بدا ينذر بإشارات الاستغراب. رفع يده ووضعها خلف رقبتها. ما زال يتذكر كيف أنه شعر بحاجبيه يتهدلان أمامها كأنه يناغي طفلاً. لم تمنع وقتها لمساته. حتى اختلطت أنفاسه بأنفاسها وهي ما تزال متسمرّة أمامه. لم يحدث هذا بينها وبينه قط من قبل. لكنه يحدث الآن. ويحدث بشكل يبدو أن العجوز كان يتمناه ويتخيل حدوثه منذ وقت طويل. هكذا شعرت هي. قبل أن يقترب بلا وازع نحو عنقها. ويبدأ بشمه كمن يملأ رئتيه من عطره..

فجأة. انفجرت الصورة كلها في مخيلة العجوز. عندما رن المحمول بجانبه معلناً ورود مكالمة جديدة عبر التطبيق الخاص..

إبراهيم يتصل بك.

كانت أنفاس ديفيد ايتان المصحوبة بالبخار تملأ السيارة. بينما راحت شفتاه ترجفان بشدة لما قاساهُ من برد عمان القارس قرب عصا موسى. على قمة جبل نيبو المحاط بالبرد من كل جانب..

”ماذا فعلت؟“. قال رفيقه السائق.

”دعني أشعر ببعض الدفء يا صديقي“. قال ديفيد بصوتٍ مرتعش وهو يضع كفه على فتحات التكييف في السيارة مستجدياً بعض الحرارة. وما إن شعر بهدوء الثلج في يده. حتى مدها إلى داخل معطفه مستخرجاً القارورة منه. ووضعها بين أصابعه المرخفة بشدة..

رفع رفيقه من درجة التدفئة. فشعر ديفيد بروحه تسري في جسمه المتجمد من جديد. سحب نفساً قصيراً. ثم تلمس غطاء القارورة ليفتحها. ومد أصابعه بداخلها ساحباً اللفافة. بدأ بفردها محاولاً قراءتها تحت نور الضوء الصادر من سقف السيارة..

”قبل أن تقرأ!“. قال رفيقه وقد وضع يده على يد ايتان..

”ماذا؟“. قال ديفيد متمنياً عدم إخباره بالمزيد من المنغصات. فهذه الليلة الطويلة بدأت تغضبه بأحداثها وبردها ومطرها العنيد..

”بعد أن نزلت يا ديفيد. توقفت هذه السيارة بجانب سيارتي. وترجل منها شابٌ أصلع. يبدو عربياً.“

”وأيّن هو الآن؟“. قال ديفيد وقد التفت باتجاه السيارة الحمراء المجاورة.

”كان يسيرُ إلى الخلفٍ منك. لم أرد الاتصال بك لكي لا أفسد مهمتك. لم يخرج حتى الآن. لعله ما زال بالداخل.“

”الأمن الأردني!“. قال ديفيد وقد سحب نفساً. ”تبعني أحدهم لغرض المسائلة والتفتيش. كيف أفلت ذلك الشاب منهم؟“.

”لا أعرف ماذا جرى معه في الداخل ديفيد. لكن يبدو أنه عبر دون أن يلاحظوه“.

”لم يكن هناك سواي وسوى رجل الأمن. المكان صغير. أين يمكن أن يكون اختفى؟!“.

نظر السائق إلى يساره نحو مبنى الكنيسة الشامخ فوق القمة تحت المطر. لم يبدُ هناك أثر للشباب.

”حسناً. سيعود حتماً من هنا. فسيارته ما زالت بجانبنا!“.

التفت ديفيد من جديد نحو إشارة صاحبه. وتفحص البي أم دبليو الحمراء المصطفة إلى جانب السيارة التي هو فيها. لكنه تذكر الرسالة التي بين يديه. عليه إبلاغ كارين بما كتب عليها فوراً.

”راقبه حتى يعود. علي إرسال النص بأسرع ما يمكن. لا تغفل عنه“. قال ايتان لرفيقه السائق. وأفرد اللفافة بأصابعه. فتكشفت عن الحروف العبرية المصطفة في أسطر. وراحت عيناه تمر على ما كتب فيها من نص غامض..

الفصل 58

أورشليم وما حولها طمرها الزلزال طويلاً..

أرض موسى ظهرت من جديد..

بهية ملونة من تحت الأنقاض..

ارتفعت الأعمدة فوقها..

وبانت وصايا الله العشرة..

كانت كارين شخيتيلية تقرأ النص الظاهر على شاشة حاسوب المدير بعد أن قامت بإرساله إليها حاصلَةً عليه من العميل ديفيد ايتان في الأردن. زحفت الحروف العبرية للنص على الشاشة كديدان الأرض الملتوية بالتواءات مختلفة.

”ماذا تريد الفتاة من هذه اللعبة؟“ تمتم المدير وهو يتكي رأسه على مسند الكرسي. فيما راحت كارين تغمض عينيها وتسحب النفس تلو النفس. ثم قالت: ”أتمنى أن لا تكون هذه حلقة فارغة“.

”لا أبداً“. قال المدير بصوت خفيض. ”إنها تحاول إشعارنا بأهمية ما تملك. لذا وضعت كل هذه العراقيل قبل الوصول إليه“.

تركت كارين النظر إلى الشاشة وراحت تمشي في الغرفة وقد أظهرت جهاز نقالها. نظرت إلى النص على شاشته. وعاودت قراءته من جديد..

أورشليم وما حولها طمرها الزلزال طويلاً..

أرض موسى ظهرت من جديد..

”نعم سيدي، لقد أخرج قارورة زجاجية كانت بداخل شيء يشبه صندوقاً من الحجر، فتحها واستخرج ورقة من الداخل، لقد رأيته بعيني!“، قال إبراهيم لناحام عبر التطبيق الخاص بجهازه المحمول، فيما خفت السماء ضغطها المائي على ربي الأردن.

”إذن لم يعثر على الرقيم، ولكنه ما زال يسبقنا بخطوة، لا تقترب منه أبداً إبراهيم، دعه يتحرك، ثم قم بتبعه!“.

شعر الشاب الأردني بأن الفجر لن يطلع اليوم، فهذه الليلة هي الأطول في حياته.

”حسناً سيدي، أنا بداخل الخندق المجاور لعصا موسى الآن، لا أستطيع رؤيته من هنا، لكن سأحاول مراقبته من أقرب نقطة ممكنة“، قال إبراهيم وهو يمسخ الماء الذي انتشر على صلعته كانتشاره على حبة برتقال.

أغلق ناحام الخط، وقفز إبراهيم من الخندق إلى السطح، وبدأ يخطو باتجاه المرآب.

على مسافة لا تزيد من 150 متراً، كان ديفيد ايتان ورفيقه داخل السيارة بانتظار أوامر كارين، فيما بقيت الخنثية من صاحب البي أم دبليو الحمراء تخوم فوق رأسيهما.

أورشليم وما حولها طمرها الزلزال طويلاً..

أرض موسى ظهرت من جديد..

بهية ملونة من تحت الأنقاض..

ارتفعت الأعمدة فوقها..

وبانت وصايا الله العشرة..

”أي زلزالٍ وقع في أورشليم أبيها المدير؟“.

قالت كارين وقد جلست على الأريكة المقابلة لمكتبه.

”هناك زلزالٌ دمر بعض الأراضي المحيطة بالمنطقة قديماً جداً. كان ذلك قبل قرونٍ عديدة، لكن معرفة هذا لا تكفي لحل هذه الأحجية.“.

”وماذا تريد أن تقول بأن الزلزال طمرها طويلاً. لا أعتقد أن بقايا الزلزال يمكن أن تدوم لقرون تاركةً المدينة بلا سكان أو حياة.“.

سحب المدير نفساً وأطلقه ثم قال: ”عودتنا الفتاة على التفكير خارج الصندوق عند محاولة حل هذه الشفرات. لا يمكن أن نخبرنا بحقيقة تاريخية فحسب.“.

”ولكن يبدو أنها تشير إلى التاريخ الذي تلا دمار المدينة. عندما أعيد إعمارها..“.

لكنها استدركت وقالت: ”وقد تقصد بالزلزال أمراً آخر. ربما يكون مثلاً. هدم الهيكل على يد البابليين!“.

ارتفع حاجبا المدير لما قالت. لكنه عندما عاود النظر إلى النص على الشاشة. ترهلا من جديد.

”كارين. ماذا يمكن أن يفيد معرفة التاريخ الذي هدم به الهيكل على يد البابليين. لن يؤدي ذلك إلى شيء.“.

”ربما ليس التاريخ. ربما شيء آخر يتعلق به“. قالت كارين وهي تمسح رأسها بكفيها غائصة في التفكير.

”وربما يتعلق بالزلزال نفسه!“ قال المدير وهو يحاول حرف بوصلة التفكير عن تاريخ هدم الهيكل.

”كيف؟“ قالت شخصيتيه.

”الفتاة ترسم خارطة المطاردة الآن. يجب أن يشير النص إلى مكان جديد أكثر من أن يشير إلى رقم أو معلومة تاريخية. المعركة معركة أماكن الآن“.

”حسناً. ردت كارين. وماذا عسانا أن نفعل الآن؟“.

باريس.

ترك البروفيسور جاك روند غرفة خليل النص في السوربون متوجهاً إلى مكان قريب يقدم الوجبات السريعة. فيما بقي البروفيسور ميشيل ليون متمسراً بقلعة الرقيم الغريب.

”هيا. أعطني مفتاحك فقد أتعبتني!“، تمتم ليون وهو ينظر إلى الرقيم. فلم تتبَّق منه إلا أسطر قليلة ولم يعطِ أية إشارة تسمح له بفهمه.

أمسك ميشيل قلم رصاص. وراح يضع المفردات الواحدة تلو الأخرى على الورق ليكمل ترجمة السطر التالي من خرايش القطط المنحوتة على الأثر. وعندما أنهى وضعها. بدأ بقراءتها..

تصعد الأرواح عالياً..

ويقف الإله وسط الصراع..

شراع السفينة ما زال واقفاً..

والمتصارعون حوله..

تهجى ليون الكلمات من جديد ناطقاً إياها. ثم وضع خطأً بالقلم تحت النص بغضب. فلم يزل النص أمامه يلعبه لعبة القط والفأر..

”بالقسوة كاتبك!“. قال ميشيل وهو يفرك عينيه. ثم قرر إعادة قراءة النص بالكامل. من السطر الأول. لعله يجد الرابط الغامض.

أورشليم وما حولها طمرها الزلزال طويلاً..

أرض موسى ظهرت من جديد..

بهية ملونة من تحت الأنقاض..

ارتفعت الأعمدة فوقها..

وبانت وصايا الله العشرة..

”يجب أن يكون مكانا كارين..“. قال المدير. وأكمل: ”مكانٌ يحكي قصة الزلزال.“

ردت كارين: ”إنه يقول : أورشليم وما حولها. أي أنه يتحدث عن المنطقة برمتها. كيف يمكن أن يكون هناك مكان يسرد تفاصيل المنطقة كلها؟ بل إننا لا نعرف ماذا يقصد بما حولها. أي اتساعٍ من الأرض يقصد؟“.

”لنقل إننا نتحدث عن منطقة الأردن ولبنان والأرض المقدسة الآن. فالمنطق يقول إن درجة اتساع التفكير في تلك المرحلة التاريخية التي تلت الزلزال لا يمكن أن تفكر بأبعد من ذلك.“

شعرت شخصيتييه بمنطقية قول المدير. ثم قالت: "أنت تقول إن علينا التفكير بأي مكان يؤرخ ما حل بالمنطقة التي حددتها أو يسرد عنها خبراً".

"أو تأثر بها!". قال المدير. وشعرت كارين بأن هناك فرعاً جديداً في تلك المتاهة يفتح أبوابه على مصراعيها.

"مبنى تأثر بالزلازل؟ بالله عليك، إنه يتحدث عن مساحة كبيرة طمرها الزلازل برمتها!".

رد المدير وهو يشبك أصابعه: "لكن الأماكن التي دمرت بسببه وعاودت التواجد إلى الآن قد لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة".

نهضت كارين وعاودت النظر إلى شاشة حاسوب المدير على المكتب:

ظهرت من جديد... بهيئة ملونة من تحت الأنقاض... ارتفعت الأعمدة فوقها.. بانة وصايا الله العشرة...

"إذا كنا نسير وفق فرضيتك، فيجب أن يكون المكان كنيسةً أو معبداً. فظهور وصايا الله العشرة لا يمكن أن يحدث إلا في مكان عبادة يهودي أو مسيحي". قالت شخصيتييه وهي تشعر بالإثارة، فيبدو أن مساحة البحث قد ضاقت.

لكن المدير كان صامتاً تماماً، لم يجبها لثوانٍ غير اتجاه نظره نحو كارين قليلاً. ثم مد يده نحو فأرة الحاسوب ومفاتيحه.

الفصل 59

كان شعور بالمغص ينتاب لبني الجالسة في مكتبها في مركز الاتصالات. فرعب هذه الليلة لا يكاد يتوقف. رجال الأمن يحومون في المبنى ويبدو ذلك من خلف الزجاج الضبابي. فكرت بالإقلاع عن مساعدة العجوز فوراً وعدم اتمام المهمة حتى النهاية. لكنها استرجعت التفكير من جديد. فقد تورطت للتو. وليس أمامها إلا الاستمرار. فالزمن لا يعود إلى الوراء. والندم لا ينفع صاحبه أبداً. فكرت في أن تمر عملياتها ورفيقها بسلام ليتسنَّ لهما قبض المال من ناحام. وذلك هو القرار الأسلم الآن. فالتوقف إلى هذا الحد سيغضب العجوز. وسيغضب رجال الأمن أيضاً إن وجدوا أية علاقة بين مقتل عماد الحسين والأشخاص الذين يراقب مكالماتهم ناحام العجوز عن طريقها.

”سأستمر إذن“. قالت الفتاة محاولةً استجماع قوتها. قبل أن يرن هاتفها الخاص على المنضدة برسالة من رفيقها في الغرفة الأخرى..

”تعالى عندي فوراً“.

تزايد قلقُ لبني وهي تقرأ الرسالة. لكنها نهضت على مضض مستغلةً هدوء الاتصالات نسبياً بعد تجاوز الساعة الواحدة ليلاً بتوقيت عمان. خطت نحو غرفة رفيقها وأغلقت الباب.

”طلبتنى!“، قالت بصوتٍ منخفض.

”اسمعي لبني. يبدو أن الليلة لا تريد أن تنتهي. لقد بعث عميل السويسريين برسالة جديدة إلى سويسرا. تتضمن نصاً عبرياً آخر. لقد ترجمته عبر الإنترنت لكنني لم أفهم ما يعنيه. حاولي إرساله للعجوز دون أية إشارات أخرى. الوضع هذه الليلة خطير للغاية“.

شعرت لبني بالرعب أكثر. فما زالت تلقي بنفسها في فوهة الخطر بتجسسها

على المكالمات والرسائل لصالح العجوز الغريب الأطوار.

”ابعثها على هاتفي فوراً عبر الإنترنت“. قالت، ثم انحنت نحو الشاب: ”هل تعتقد أن للعجوز علاقة بمقتل عماد الحسين؟“.

”لا مجال لمناقشة هذا الآن لبني، كل ما أقوله هو أنني أتمنى أن لا يكون كذلك، سيكون تقرير مكالمات الحسين جاهزاً بعد قليل وسيتم تسليمه لهم، هذا يكفي الآن، عودي لمكتبك“.

نفخت لبني قلقاً وطقطقت أصابع يديها، ثم استدارت عائداً إلى منضدتها، تناولت هاتفها المحمول، واستلمت عبر تطبيق إنترنت نص الرسالة التي بعث بها زميلها..

ثوانٍ وكان النص قد وصل إلى تل أبيب، مصدراً رنيناً في نقال ناحام.

كان مدير مركز تراث اليهود الشتات يعتمر تركيزه وهو يقرأ ما يظهر على صفحة المتصفح، لقد كتب في مستطيل البحث (خارطة زلزال أورشليم)، ثلاث كلمات أراد التعرف على نتائج البحث الخاصة بها، أما كارين، فقد كانت منحنيةً إلى جانبه وهي تنظر إلى نتائج البحث ذاتها.

”زلزال.. خارطة.. أورشليم..“، همس المدير وهو يقلب النتائج، فهناك العشرات من المواضيع الخاصة بها، وهو يعلم بأن عميله ديفيد ايتان بانتظار أوامر الانتقال إلى النقطة التالية، وليس هناك وقتٌ ليضيع ابداً..

انتقل إلى خيار البحث عن الصور المتعلقة بكلمات البحث، فظهرت صور مشتركة لمكان واحد، لكنها من زوايا وأحجام مختلفة..

”مم، قلنا إننا نبحتُ عن مكان.. صحيح؟“. قال وعيناه تنتقلان على الصور..

”وماذا وجدنا؟“. ردت كارين وهي تكاد أن تدخل في الشاشة..

اختار المدير الصورة الأكثر وضوحاً وفتحها. فظهر موقع باللغة الانكليزية يحمل نصاً شريحياً طويلاً حول الصورة..

”فهمتُ ما تريد الفتاة قوله!..“

”ماذا؟. هل عثرت على المقصد؟“. أجابت شخيتليه..

”بلى هو!“. قال وقد امتلأت الشاشة بالنصوص والصور. وضع ذقنه على ظاهر يديه وراح يقرأ..

” خارطة مادبا، والمعروفة أيضاً بخارطة مادبا الموزائيكية، هي جزء من أرضية موزائيكية تعود للكنيسة البيزنطية المبكرة للقديس جورج في مادبا، الأردن... خارطة مادبا تظهر منطقة الشرق الأوسط. وجزء منها يحتوي على الجزء الناجي من أقدم رسم لخرائط الأراضي المقدسة وخاصة القدس... يعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادي... تم تدمير مادبا بسبب الزلزال، وهجرها من فيها بعد ذلك... أُعيد اكتشاف الفسيفساء عام 1884 أثناء بناء كنيسة أرثوذكسية يونانية جديدة في موقع الكنيسة القديمة...“

أنهى المدير قراءته، ثم التفت إلى كارين وقال: ”أعيدي قراءة نص الفتاة مرة أخرى“..

تراجعت شخيتليه وأخرجت نقالها، فيما عادت عينا المدير تبحث عن المزيد حول ما وجد..

قرأت كارين النص من جديد..

أورشليم وما حولها طمرها الزلزال طويلاً..

أرض موسى ظهرت من جديد..

بهيةً ملونةً من تحت الأنقاض..

ارتفعت الأعمدة فوقها..

وبانت وصايا الله العشرة..

”هو ذا!“. قال المدير وقد علت ابتسامته وجهه وقد اتكأ، سحب نفساً عميقاً وأكمل:

”خارطة مآدبا تظهر أوشليم وما حولها من مناطق وفق ما أقرأه على الشاشة الآن. وبهذا تحقّق السطر الأول. أرض موسى ظهرت من جديد. وهو يقصد ظهور الخارطة من جديد لتدل على أراضي شعب بني إسرائيل في عهد موسى. أما ما قاله في (بهيةً ملونةً من تحت الأنقاض) فهو يقصد بها إعادة الخارطة الموزائكية بألوانها بعد أن طمرت تحت أنقاض الكنيسة القديمة المنهارة فوقها بفعل الزلزال. وعن ارتفاع الأعمدة فوقها فهو إعادة بناء الكنيسة يا سيّدة كارين!“..

كانت عينا الأخيرة تنتقل بين المدير وشاشة نقالها. إذ تابعت كارين ما كان يقول سطرًا بسطرٍ مع النص المرسل بالعبرية.

”بقي سطر واحد أيها المدير!“..

”أعلم“. قال وقد وضع يديه أعلى رأسه. ”وبانت وصايا الله العشرة!“..

”والمعنى؟“..

”ليس مهماً الآن. أخبرني ديفيد بالتوجه إلى كنيسة مأدبا الآن. عليه أن ينتقل إليها فهي في المنطقة ذاتها. ريثما نفكر بمعنى السطر الأخير“..

”وماذا لو كان السطر الأخير ينسف كل تفسيراتك؟“. قالت كارين وقد بدت على وجهها علامات التعب.

”هكذا ستضيعين الوقت يا كارين. حتى وإن كان خطأً. فوقوف ديفيد ايتان عن الحركة لا جدوى منه. ليذهب إلى كنيسة الخارطة الآن!“. قال ذلك بصيغة حادة. فجلست كارين على الأريكة قبالتها دون أن تجيب. وراحت تكتب إلى ديفيد ايتان..

في مرآب جبل نيبو. كان ديفيد ورفيقه يراقبان عودة صاحب البي أم دبليو الحمراء. إلا أنه لم يبن بعد.

فجأة. رن هاتف ديفيد بصوت رسالة كان مضمونها ما أراد مدير المركز أن يوصي به ايتان..

(أجه إلى كنيسة الخارطة – مأدبا)..

قرأ ديفيد الرسالة ببطء. ثم زم شفثيه منزعجاً.

”ماذا؟“. قال رفيقه. فيما راح ديفيد يربت بنقاله على فخذه..

”علينا أن نتجه إلى مكانٍ يدعى كنيسة الخارطة. وهو في مأدبا أيضاً“..

”وماذا عن مراقبة صاحب البي أم دبليو هذه؟“. أجاب رفيقه فيما كان حاجباه يرتفعان.

”سنأكد من أنه يلاحقنا في حال رصدناه يتبع تحركنا إلى هناك. ليس هناك وقت لنضيقه رفيق. لنتحرك الآن!“.

”حسناً ولكن أخبرني الطريق“.

لم يجب ايتان. وبحث في برنامج الخرائط عن كنيسة الخارطة. وسرعان ما عثر عليه النظام..

”إلى اليمين رفيق. ليست بعيدة جداً، خمسة عشر دقيقة وسنصل!“..

قال ديفيد للسائق. فيما تحركت السيارة السوداء وفق الخارطة. قبل أن يفتح ايتان متصفحُه ويبحث عن معلوماتٍ حول المكان..

بعد أن غادرت سيارة الفوردي السوداء. اقترب ظل إبراهيم من سيارته الحمراء. فتح بابها وجلس خلف المقود. تنفس بسرعةٍ والبخارُ يعج من فمه. سحب نفساً عميقاً وهمس مع نفسه..

شيفح لهستوريا..

الفصل 60

كانت سيارةً كلارا مازالت تشقُّ طريقها نحو مكانٍ تبتغيه. صدمت بعض العواصف الناقعة بالمطر سيارتها من الجانب. فيما استمرت هي بالضغط على دواسة الوقود..

تذكرت من جديد رسالتي البريد الإلكتروني اللتين تسلمتهما هذا اليوم..

كيف دخلتُ هذه اللعبة بهذه السرعة!

نظرت إلى الساعة في لوح سيارتها. الواحدة والنصف ليلاً بتوقيت عمان..

«أنا أتبعهم الآن سيدي!». قال إبراهيم لناحام عبر التطبيق الخاص وهو يقود البي أم دبليو تابعاً سيارة العميل ديفيد ايتان. ورغم إبقائه مسافةً طويلةً بين السيارتين. إلا أنه ما زال يميزُ الأنوار الحمراء الخلفية لسيارة عميل السويسريين.

«إياك أن تشعرهم بوجودك. سيفشل كل شيء يا إبراهيم!». قال ناحام بعد سعلتين متتابعتين..

«فهمت ذلك سيدي. ولكن هل لديك أدنى فكرة عن مكان توجههما؟».

سكت ناحام لوهلة. ثم قال: «عليك أن تتبعهما فحسب. هما دليلك الآن»..

«علم سيدي». قال إبراهيم وهو يقتنص النظر إلى الأنوار الخلفية للسيارة السوداء من بين خفقات ماسحات المطر على زجاج سيارته..

أغلق ناحام الخط مع إبراهيم. وانتبه إلى ورود رسالةٍ جديدة من لبنى. فتح الرسالة ليرى نصاً عبرياً عليها..

أورشليم وما حولها طمرها الزلزال طويلاً..

أرض موسى ظهرت من جديد..

بهية ملونة من تحت الأنقاض..

ارتفعت الأعمدة فوقها..

وبانت وصايا الله العشرة..

تنهد العجوز بهدوء، ووضع نظارته ليتابع حروف النص على الشاشة..

داخل مركز جمع تراث يهود الشتات، كان المدير يشرح لكارين تفسيره لنص الفتاة الذي أرسله ديفيد، وما وجده من معلوماتٍ عن كنيسة الخارطة ما فهمه عنها..

”كانت هذه الكنيسة ختوي بأرضيتها على خارطة تغطي أرضيتها كلها، وهي تشرح جغرافيا الأراضي المقدسة كارين، لكن تقادما إضافةً إلى الزلزال دمر معظم مساحتها مبقياً على المساحة الحالية الصغيرة نسبياً بالمقارنة مع مساحة الكنيسة، وما بقي منها هو الأهم، إذ أنه يشرح تخطيط مدينة أورشليم في العهد الذي وضعت فيه الخارطة، إضافةً إلى الأراضي المجاورة حيث حوض نهر الأردن والبحر الميت ودلتا النيل المصرية وصحراء سيناء.“

”لكن كيف عرفوا إنها تعود إلى ذلك التاريخ الغابر بالتحديد؟“، قالت شخيتيليه.

”من خلال تفاصيل أورشليم على الخارطة، فهناك مبانٍ موضوعة في الخارطة بالإضافة إلى تصميم أسوار وبوابات المدينة بالطريقة التي كانت موجودة في مرحلة معينة، وأيضاً هناك تفاصيل أخرى ليست موجودة لأنها بنيت بعد الفترة التي وجدت بها الخارطة، وبين هذه وتلك، جرى تحديد الزمن الذي رسمت به الخارطة مع هامش خطأ صغير في السنوات، لكن هذه كله يشير إلى أنها رسمت في القرن الخامس الميلادي.“

صممت كارين لوهلة ثم قالت: ”من خلال تفسيرك، فإنه لم يعد لدي شك في أنها الهدف التالي الذي تريد الفتاة أن نصل إليه، لكن السطر الأخير ما زال مريباً بالنسبة لي.“

”يجب أن يصل ايتان إلى هناك أولاً، ثم يخبرنا بما رأى، فلعل ما سيراه يحمل التفسير الأوضح للسطر الأخير..“

”أتمنى ذلك“. تمتمت كارين، فيما كانت تشعر بتعاضم الخطر على العميل ايتان مع كل خطوة تستدرج بها الفتاة عميل المركز.

خلف مكتبها في مركز خدمة العملاء، شعرت لبنى بأن كل شيء يبدو مترابطاً مع بعضه، فلا يمكن أن يكون ناحام العجوز منفصلاً عن جريمة مقتل عماد الحسين عصر الأمس، إذ أن انقلابه على كلارا وطلبه التجسس على مكالماته يثير العديد من علامات الاستفهام حول سبب ذلك الانقلاب، التفتت يمينا لتري البدلات النيلية اللون خلف الحاجز الضبابي وهي تروح وتغدو، تمنى أن تتأخر شركة الاتصالات بتسليم سجل مكالمات عماد الحسين إليهم لأطول فترة ممكنة، لما شعرته من رعب التورط في القضية بتجسسها لصالح العجوز اليهودي..

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة وأربعين دقيقة، ما زالت النافذة بجانب لبني تعول بصوت العاصفة، فيما خفت هاتف الشكاوى حتى كادت مكالماته تنقطع بشكلٍ نهائي.

أربع ساعاتٍ وربع على إبحار ستاركيت.

خلف مقود البي أم دبليو الحمراء، كان إبراهيم يقود متتبعاً أنوار السيارة السوداء التي تقل عميل السويسريين ورفيقه، أثار انتباهه أن تلك السيارة دخلت إلى حي سكني ذي أرضٍ متموجة، نظر من نافذة السيارة ليرى من حوله الدكاكين المغلقة والمحال المظلمة، تتبع سيارة ايتان بحذرٍ مبقياً مسافةً ثابتةً بينهما. كانت العجلة السوداء تتعرج بسيرها بين الأزقة والشوارع كحشرةٍ سكرى، حتى بلغت طريقاً صاعداً إلى نهايته، إذ يجثمُ بناءٌ كبيرٌ عند تلك النهاية.

كانت مادبا مدينة أشباح في تلك الساعة المتأخرة، إذ هجعت الحياة فيها غافيةً تحت شراسة المطر وحدة البرد، واختفى سكانها منها تماماً، ولم يكن في الشوارع سوى بضع سياراتٍ مركونة بشكلٍ غير منتظم، خفف إبراهيم سرعة سيارته حتى توقفت، ثم أطفأ الأنوار الخارجية وانزوى بها إلى بقعةٍ مظلمة بجانب إحدى البنايات القديمة، فقد لمح أن السيارة السوداء قد توقفت إلى جانب المبنى القديم عند نهاية الشارع ذي التعبيد المتصاعد، ترجل العميل الأصلع من السيارة السوداء واقترب من جدار المبنى على يساره.

مستعداً للخوض في الجو البارد من جديد، كان العميل ديفيد ايتان ينظر نحو الجدار الترابي اللون له مستعيناً بنور مصباحٍ أصفر وهاج على جانب الشارع، رفع عينيه فبدا له سورٌ عالٍ تنطنطت من خلفه أغصان أشجارٍ ناقعة، بدا المكان كمنزلٍ مهجورٍ من القرون الوسطى وهو يحمل كل تلك التجاعيد التاريخية على أسواره..

تراجع ديفيد لخطوات قليلة نحو السيارة من خلفه ونظر للبناء من جديد. كان النور في باحة البناء الداخلي ينعكس عن برج عالٍ من الحجر وقد توسطته مجموعة أجراس حديدية. فيما شمش صليب كبير من فوق البرج متحدياً زخ المطر المتواصل. أما على البوابة المغلقة للمبنى فقد كانت هناك لافتة تعريفية كبيرة: كنيسة القديس جورجوس للروم الأرثوذكس.

كانت الكنيسة مغلقةً لتأخر الوقت. ولم يكن من الممكن النظر إلى ما بداخلها لظلمة المكان وارتفاع الأسوار. لكن ديفيد كان يشعر بأن على الليلة أن تنتهي. وقبل أن يفكر بخطة اقتحام سور الكنيسة. تلفت من حوله ليرصد البي أم دبليو الحمراء. إلا أن ظلمة المكان المحيط به والجو الغارق بالمطر أفسداً عليه الرصد. استدار خلفه ليتأكد ولو بصعوبة. وحاول أن ينصت بأذنيه إلى أي هدير محرك يتحرك في المنطقة. إلا أنه لم يكن بالإمكان السماع. فأصوات هدير البرق وحفيف الأشجار الناقعة وتراقص حبات البرد على التعبيد عملت كسمفونية هادرة عظيمة من حوله. عاد ديفيد إلى النظر نحو جدار الكنيسة من جديد ناقماً. ومقنعاً نفسه بأن أحداً لن يتمكن من تتبع مجيئه إلى هنا. فلعل رفيقه السائق كان مخطئاً بما قاله عن صاحب البي أم دبليو الحمراء حين رصفها إلى جانب سيارته فوق جبل نيبو. وانطلق متتبِعاً إياه.

في تلك اللحظات. كان إبراهيم يتخذ من تصاعد الشارع سائراً له. فوجوده بسيارته عند النقطة المنخفضة منه يوفر له الحماية من عيني ديفيد. ترحل ببطء من سيارته. وسار باتجاه ديفيد الواقف أمام مبنى كنيسة جورجوس متخذاً من مظلات المحال الخارجية غطاءً له من المطر وحجاباً مظلماً من أعين عميل السويسريين. وعند وصوله إلى نقطة يراه من خلالها. استقر في مكانه مراقباً عمل الأخير. مختلفياً في بقعة مظلمة..

نظر إبراهيم إلى ديفيد ايتان وهو يقف تحت المطر متأملاً مبنى الكنيسة، وأحس أن عميل جنيف لن يقوى على اقتحام مبنى كهذا في ساعة كهذه.

إلا أنه وبشكل مفاجئ، فتح باب السيارة السوداء ليترجل منها السائق. مشى بخطى سريعة نحو جدار الكنيسة ثم شبك يديه ببعضها، ثوانٍ وانطلق ديفيد نحو رفيقه عند الحائط، وضع قدمه على يدي زميله المشبكتين، ورفع نفسه إلى الأعلى، وثب سريعاً ممسكاً بحافة السور، وبحركة رشيقة، عبر ديفيد ايتان جدار الكنيسة قافزاً إلى باحتها الداخلية.

الفصل 61

بسرعة. عاد السائق إلى السيارة السوداء وقام بتشغيلها. اندفعت حَتّ مياه المطر نحو زقاق قريب لتختفي هناك. وأصبحت المنطقة المحيطة بالكنيسة خاليةً إلا من نور المصباح الأصفر.

في داخل باحة كنيسة الروم الأرثوذكس، كان ديفيد يتحسس أرضية الحديقة بحذائه. لقد غمر المطر التراب حتى أصبحت الحديقة موحلة للغاية. نظر أمامه ليرى باب الكنيسة المنغرس بقلب جدار أصم وقد علاه صليبٌ منحوت في الجدار. كان البابُ موصداً والباحة خالية. انزوى ايتان إلى جدار الحديقة في الظلمة وأخرج هاتفه النقال..

بعد ثوانٍ كان الهاتف يرن لدى كارين شخيتيليه في جنيف.

”نعم ديفيد؟ أين أنت الآن؟“. قالت كارين بصوتٍ تملأه الخشية.

”أنا في كنيسة الروم كارين. لقد وصلت هنا قبل قليل. أخبريني بما علي فعله“. رد ديفيد وقد بدا صوت هدير الرعد مسموعاً في اتصاله.

”سأناول الهاتف للمدير. هو من سيخبرك!“.

انتظر ديفيد لثوانٍ. حتى رد عليه صوت مدير المركز.

”مرحى ديفيد. أداؤك متميز حتى الآن في هذه المهمة“. قال المدير. فيما شعر ايتان بعدم جدوى الإطراء في مثل هذه اللحظات.

”شكراً سيدي. أعلمني بما يجب علي فعله!“.

”حسنًا. هناك سطرٌ غامضٌ أخير في رسالة الفتاة التي عثرت عليها في جبل نيبو. السطر يقول (وبانت وصايا الله العشرة). عليك أن تبحث عن أي شيء يشيرُ إلى وصايا الله العشرة في مبنى الكنيسة. أي شيء. أي رمزٍ لها أو لوحةٍ لو نحتٍ أو

صورة.

تغيرت ملامح ديفيد في الحال. فالمدير لم يدرك بعد أنه في باحة الكنيسة ولا يستطيع الولوج إلى داخلها.

”سيدي، الكنيسة مغلقة الآن. أنا في الباحة. هل هناك شيء هنا؟“. قال بصوت يكتم بعض الغضب.

”لقد تدربت على مهمات صعبة يا إيتان. حاول الدخول أو جد أي شيء له علاقة بوصايا الله العشرة. يجب أن نكمل ما بدأناه معاً أيها العميل.“

”سيدي!..“

”انتهى ديفيد. ابحث عما قلته لك، وأعلمني بما تجد هناك..“. أغلق المدير الخط. فيما شعر ديفيد بصعوبة المهمة بشكل حقيقي هذه المرة. خطأ بهدوء في أرضية الحديقة الموحلة متجهاً نحو باب الكنيسة. لم يكن يبدو أن هناك حرساً أو شرطة في باحة المبنى. ضغط بقدمه في الأرض فتكسرت من تحتها بعض الأغصان النحيلة الصلبة. تقدم أكثر نحو الباب الداخلي. لكن ما كان يعيق نظره لبوابة الكنيسة هو لافتةٌ ثبتت على عمودين من الألمنيوم تتوسط الباحة. اقترب ديفيد منها أكثر محاولاً تجاوزها. وما إن وصل قريباً منها حتى انتابه الفضول لرؤية ما وضع عليها. أصبح خارج الحديقة وقد وقف على أرضية من الحجر. نظر إلى اللافتة الكبيرة. كانت بيضاء وقد رسم عليها بعض التفاصيل الداكنة التي لم يستطع تمييزها بسبب الظلمة. أخرج نقاله وفتح مصباح الكاميرا. وعندما توهجت اللافتة، كان واضحاً أن ما عليها هو رسمٌ لخارطةٍ بدائية. وقد جاور الرسم مجموعة من الكلمات العربية المقابلة لمجموعة أرقام..

بشكل مفاجئ؛ خرج أحد الموظفين من إحدى الغرف باتجاه الممر حيث ينتظر رجال الأمن الأردني..

كانت لبنى تراقب الحركة الغريبة التي دبت في الممر من خلف الزجاج الضبابي. فقد نهض عناصر الأمن واستعاد العميد مكانه بعد أن كان يذرع الممر جيئةً وذهاباً. حاولت لبنى أن تنصت بكل جوارحها لما سيدور بينهم من حوار..

”سيادة العميد. في هذا القرص المدمج يوجد السجل الكامل لمكالمات الضحية عماد الحسين لآخر أربع وعشرين ساعة قبل مقتله إضافة إلى شبكة الاتصالات التي قام بها هو ومن اتصل به خلال هذه المدة“..

كان الموظف يسرد للعميد تفاصيل محتويات القرص. فيما بقي العميد منصتاً. ثم قال:

”قلت حتى الاتصالات التي قام بها من اتصلوا به؟“..

”نعم“. رد الموظف. ”أرجو أن يكون هذا مفيداً“. كانت لبنى ما زالت منصتة بحذر..

سكت العميد قصيراً ثم قال: ”هل هناك أية اتصالات غريبة مسجلة على هذا القرص؟“..

وقبل أن يجيب الموظف. اختض دم لبنى لرنين اتصال مركز خدمة الزبائن حاملاً شكوى ليلية جديدة. ومضياً عليها فرصة الاستماع إلى أهم الأجوبة التي كانت تنتظرها.

”هل أنت جاد فيما تفعله بواحد من أهم عملائنا في عمان؟“. قالت كارين شخصيتليه بغضب لمدير المركز.

”هذه مهمتنا جميعاً. ديفيد ايتان ليس طفلاً علينا أن نشعره بالدلال فقط لأنه عميلٌ جيد. يجب أن يشعر بأنه لوحده هناك كي يبذل أفضل ما بوسعه“. رد المدير وهو يتكى على كرسيه.

”يا رباه. أنت ترسله إلى المهالك أيها المدير. ماذا لو ألقى الأمن الأردني القبض عليه الآن؟ ستذهب العملية كلها أدراج الرياح.“

”لن يحدث ذلك. وإن حدث. سيفلت ايتان نفسه من قبضتهم بالمهارة التي علمناها إياه. وإن لم يستطع. فشبكة علاقاتنا هناك ستطلق سراحه.“
نفخت كارين بغضب متحصرة. ”أيها المدير..“

”يكفي ذلك سيدة شخصيتليه. على ديفيد العثور على الوجهة التالية. أو العثور على الرقيم نفسه..“

وقبل أن ترد كارين. رن هاتفها المحمول..

ديفيد يتصل بك.

أخفت انزعاجها المتزايد من المدير لثوانٍ وفتحت الخط..

”نعم ديفيد؟“.

”سيدة كارين. هناك خارطة أمامي على لافتة بيضاء وضعت بباحة الكنيسة. وهناك مفتاح للخريطة أعلى يسار اللافتة. المفتاح مكوّن من مجموعة أرقام تقابل أسماء مدن مرسومة على الخريطة. كل رقم على الخريطة يقابله في المفتاح اسم البلدة أو المدينة. هل ينفع هذا بشيء؟“.

بقيت كارين منصتةً لوهلة، ثم قالت: "كم عدد المدن الموضوع أسماؤها وأرقامها على الخريطة والمفتاح؟".

رد ديفيد: "إنها، اثنا عشر..".

"عددها ديفيداً!، قالت كارين فيما انتبه المدير إلى كلامها.

"حسنٌ، القدس، بيت لحم، البحر الميت، نهر الأردن، أريحا، بئر يعقوب، البحر الأبيض المتوسط، جبل سيناء، نهر النيل، الكرك، دير القديس لوط، والخليل.."

فكرت كارين قليلاً وتذكرت السطر الأخير، وبانت وصايا الله العشرة..

نظرت إلى المدير وهي تجيبه: "ماذا يقابل الرقم عشرة على الخارطة في مفتاحها؟".

ثوانٍ، وأجاب ديفيد: "رقم عشرة يقابل.. الكرك!.."

"حسنٌ.. اخرج من الكنيسة حالاً!.."

الفصل 62

من مكانه داخل البقعة المظلمة. كان إبراهيم يشاهدُ ديفيد ايتان وهو يقفز إلى خارج سور كنيسة الروم بحركةٍ رشيقة. وما إن حطت أقدامه على الأرض. حتى انطلق راكضاً بالاتجاه الذي غابت به السيارة السوداء.

شعر إبراهيم ببعض الخطر من بقائه في المكان. فقد ظن من مشاهدته لطريقة قفز ديفيد وركضه أن رجال الأمن أو حراس الكنيسة قد شعروا به. انسل بهدوء كالأفعى نحو سيارته البي أم دبليو الحمراء في أسفل الشارع. كانت المياه تندفع من المكان العالي الذي هو فيه إلى نهاية الطريق المنخفض. جرى إبراهيم سيلها بخطواتٍ سريعة حتى وصل إلى سيارته. وبعد أن ركبها. شغل ماسحات المطر وراح يراقب..

ثوانٍ واندفعت السيارة السوداء خارجة من الزقاق الذي اختبأت فيه..

في تلك الأثناء. كانت كلارا قد خفضت سرعة سيارتها بعد أن دخلت مدينةً قديمة بدت كأنها غابة منازل عتيقة. كانت الشوارع تتموج تحت عجلات السيارة. فهي ترتفع حيناً وتنخفض آخر. فيما بدت البلدة كأنها منطقة متروكة منذ زمن لولا بزوغ أنوار صفراء عالية فوق ما بدا لها كأنه ركابٌ مرتفع. اقتربت بسيارتها بحذر وهي تشق الزقاق الأخير نحو وجهتها. أوقفت السيارة وراحت تنظر إلى الناحيتين من حولها. حتى لفتت أنظارها على اليسار باحةً واسعة تقابل عدداً من الدكاكين. حركت سيارتها لتركنها هناك. وبدت على يمينها درجات عرضية من الحجر تؤدي إلى مركز الباحة. حيث شمع من تحت الأنوار تماثل فارسٍ يمتطي جواداً وهو يشهر سيفه..

كان الأجدرك أن تعلميني بالتفاصيل التي أخبرك بها ديفيد قبل أن تطلبني منه الخروج من الكنيسة كارين. لا تتجاوزي حدود عملك سيدة شخصيتيه! قال المدير وقد بدت عليه أمارات الانزعاج.

”لم أجازو أي شيء، لكن ديفيد أخبرني بما رأى، ولم يكن هناك تفسير آخر للسطر الأخير من اللغز سوى ما أخبرني به.“ ردت وهي تجلس على الأريكة جلسة المنتصر.

”وما الذي رآه؟“ قال المدير.

”قال إنه عثر على خريطة رسمت على لافتة ووضعت في باحة الكنيسة. ولا بد أن اللافتة تحمل صورة عما تبقى من خريطة الكنيسة ما هو في داخلها الآن. ولأن ديفيد لا يمكنه دخول الكنيسة في هذا الوقت المتأخر فالصورة التي على اللافتة تكفي لمعرفة ما رسم على الخريطة الأصلية الموجودة في أرضية الكنيسة المغلقة.“

لم يجب المدير، لكن عينيه طلبتا المزيد من التوضيح.

”لذا، كان لابد أن يكون الحل في تلك اللافتة بدلاً من الخريطة الأصلية القابعة خلف الأبواب المغلقة، وبوجود اثني عشر رقماً على الخريطة يقابلها أسماء المدن التي تشير لها تلك الأرقام. ولأن السطر الأخير من اللغز يتحدث عن وصايا الله العشرة، خمنت أن السطر يشير إلى الرقم عشرة بذاته، لا إلى الوصايا، وما يقابل الرقم عشرة على الخارطة هو اسم (الكرك) في مفتاحها!“

ارتفع حاجبا المدير بإعجاب لما سمع، لكنهما عاودا التظاهر بالحنق.

”ثم؟“

”ثم أخبرت العميل إيتان بأن عليه المغادرة فوراً، فقد عرفنا إن الوجهة التالية هي منطقة الكرك!“

”وماذا هناك في الكرك سيده شخيتيليه؟“ قال المدير بصوتٍ مستفز.

”مكان واحد. واحد فقط. ولاشك أنه المحطة التالية.. قلعة الكرك التاريخية“..

وبشكلٍ لم تتوقعه شخيتيليه، رفع المدير يده وراح يصفق..

”مرحى للسيدة كارين وهي خل رموز اللغز العجيب!..“ تباطأت يدها في التصفيق

ثم قال: ”هل تعلمين كم هو حجم القلعة؟ أين سنبعث الآن فيها أيتها العبقرية؟“..

سحبت كارين نفساً وأطلقتته، ثم قالت: ”إن كنت تتفق معي على أن الكرك

هي المحطة التالية فيجب أن أخبر ايتان بالذهاب إلى هناك، أما ماذا سنجد فيها، فعيننا الوحيدة هناك هي ديفيد“..

صمت المدير قليلاً، ثم هز رأسه موافقاً..

ثوانٍ ورن هاتف العميل ديفيد ايتان باتصال من كارين..

”أجه إلى قلعة الكرك ديفيد!“..

ترجلت كلارا من سيارتها تاركةً حقيبة المال فيها مخفيةً تحت المقعد، فيما حملت

بيدها علبة نصفي الرقيم المعدنية بحذر وقد أخفت مسدسها تحت سترتها

القصيرة، أغلقت باب السيارة وتأكدت من أنوار المصابيح التي توهجت لوهلة

معلنةً أن السيارة باتت مقفلة.

التفتت وراها فبان تمثال الفارس الممتطي لجواده من فوق الدرجات العريضة

الصاعدة، كانت تعابير وجه الفارس تحت انهمار المطر وأشعة النور الأصفر توحى

بغضبٍ وتعابير رجولية للغاية، فيما اعتمر خوذة الجيوش الإسلامية في القرون

الوسطى، ورفع سيفه ببأس شديد في الهواء كمن ينقض على رقبةٍ سهلة

الاقطاف..

تحركت كلارا برشاقةً فوق أمواج المياه الواطئة تحت قدميها. وراحت تقترب من وجهتها الأخيرة في زقاقٍ قديمٍ مهالك لولا الجهود البلدية الأردنية في المنطقة. كانت تسير في واحدةٍ من أبعد النقاط عن مركز الأردن. وأقربها إلى حدودها الغربية. لنحو ثلاثمائة متر. سارت كلارا تحت المطر وهي تمسكُ بأهم عليّة الآن بالنسبة لمجمع رؤساء الطوائف من يهود العالم. استدارت إلى اليسار بحذر. ونظرت إلى شارع ضيق متصاعد الأرضية. لتدرك أنها في المكان الذي يجب أن تكون فيه في هذه اللحظات.

كان الممر قد خلا من وجود رجال الأمن الأردني الذين غادروا مبنى شركة الاتصالات قبل دقائق. شعرت لبنى بالدوار في رأسها. فيما تسلل البرد إلى أناملها على المنضدة. كانت تحاول السيطرة على ساقها اليسرى التي باتت ترتجف خشية أن يتضمن القرص الذي قدمته الشركة إلى العميد ورجاله يتضمن ما يمكن أن يكون ذا صلةً بناحام. صلةً تربط العجوز بمقتل رجل الأعمال عماد بن خليل الحسين..

لم ترد التوجه إلى غرفة زميلها الآخر. فهي لا تريد أن تثير الشكوك بتردها على مكتبه. لكن الخشية كانت تعصف بها كما لم تفعل طيلة حياتها. ليذهب العجوز إلى الجحيم إن كان له - أو لشركائه - أي صلةً بمقتل عماد الحسين. لكن التورط بتسريب المعلومات إليه قد يجعل منها متآمراً لمقتل رجل أعمال أردني على يد عصابة من اليهود ومساعدتهم.

أزاحت الستارة بجانبها قليلاً. ونظرت إلى عجلات الشرطة ذات الأنوار الملونة وهي تغادر باب شركة الاتصالات. سيحقق القضاء والأمن بجديّة في الموضوع. فاستقتالهم على التحقيق بهذه السرعة وفي هذا الوقت المتأخر من الليل لا يعني

سوى شيء واحد: أهمية عماد الحسين..

فجأة، صدر صوت أزيزٍ صادم قطع سلسلة تخيلاتها المرعوبة، رسالة جديدة عبر هاتفها المحمول على المنضدة..

فتحت لبني الشاشة وقرأت ما عليها: "لقد أرسلوا ديفيد ايتان إلى الكرك، أخبريه!".

الفصل 63

كانت السيارة السوداء متجهةً إلى الكرك بسرعة فافتت الـ١٤٠ كيلومتراً في الساعة بعد أن غادرت منطقة مأدبا. نظر ديفيد ايتان إلى نقاله بعد أن نقر عليه بضع حروف وقال: "سته وثمانون كيلومتراً فقط رفيق. لسنا متعجلين".

"أريد إزالة القلق عنك رفيق". قال السائق. "قبل أن تصاب بالحمى من هذه الليلة!".
"أغلق ايتان شاشة نقاله واتكأ على مسند المقعد..

"أفضل أن أصاب بالحمى على أن يرتطم رأسي بكيس هواء السيارة!".

ضحك رفيقه قصيراً. ثم شغل الأنوار الأمامية العالية، وضغط على شاشة نقاله لتظهر خريطة محدد المواقع. وانطلقت السيارة السوداء بطريقها إلى الكرك..

على مسافة قصيرة إلى الوراء. كان إبراهيم في سيارته البي أم دبليو الحمراء يحدث ناحام عبر التطبيق الخاص..

"حسناً سيدي، إلى الكرك إذن. أرجو أن تكون لبنى دقيقةً فيما تقول!".

باريس.

كانت الشمس تغادر موقع منتصف النهار ولم يبد النص قد حل نفسه بعد.

"لن تعود لشوفنمان دون فك أحجيتك!". همس ميشيل ليون مع نفسه. رفع نظارته عن عينيه ومسح العرق المتجمع تحتها. ثم عاد لتكملة قراءة النص..

في مكانٍ أخفت فيه الأرض الأسرار..

ينكشف السر..

ويسعى الناجون إلى هناك..

الجمال الثمانية تحمل صاعين من الحجارة..

لم يحرك ميشيل ساكناً وقد شد على شعره مقابلاً الرقيم على المنضدة، ابتسم قليلاً، ثم هسهس ضاحكاً. وبعد ثوانٍ من سحبه شهيقاً قصيراً، انفجر البروفيسور ليون ضاحكاً وهو ينظر إلى القطعة أمامه. ضحك كما لم يفعل ذلك من قبل. اصطدمت ضحكاته بجدران قاعة البحث وراحت تكرر قهقهاته في المكان على هيئة صدى. فيما سالت دمة رقيقة من عينه اليمنى..

”مستحيل!“، صاح وهو في حالة هستيريا..

”لا يمكن أن تفعل هذا بي!“..

تنهال مياه الأمطار على هضاب الأردن وصحاربه كسيمفونية بيتهوفن التاسعة عندما تبلغ أوجها في حركتها الأخيرة. يهدر صوت المطر مصطدماً بالأرض كمن يريد أن يحدث ثقباً في تضاريسها. وتُعول الآفاق بريح تنقل بين العراق وسوريا وفلسطين دون اعتبار للحدود بينها. فيما تبرق السماء في قمة موسيقاها ضاربة الجغرافيا بوميضها الوهاج المنعكس على زجاج المباني وأوراق الشجر. وعلى تعبيد الشوارع المتروكة وحدها خارج المنازل تصارع سيول المياه المنسابة من المرتفعات إلى البقاع المنخفضة. جارفةً معها كل ما لم يصمد. من أعقاب السجائر المسحوقه وبقايا المناديل الورقية الناقعة. وحتى السيارات!

كانت عمان قد أعلنت النفي في تلك الساعة لوصول مراحل المطر إلى درجاتٍ أُنذرت بالخطر الوشيك، وراحت تتحولُ إلى سيولٍ هوجاءٍ جَرَفَ ما بطريقها كقواربٍ من ورقٍ، وتهوي بها في أقربٍ منخفضٍ عرقل تراكم الأشياء فيه سيرها..

لقد انقلب الحال فجأةً. وتحولت المدينة النائمة إلى مدينة صافرات إنذارٍ مختلفة النغمة. صافرات عجلات الشرطة والإسعاف والدفاع المدني. وأطلت الرؤوس من الشرفات محاولةً التقاط الصور ومقاطع الفيديو لما يجري في الشوارع من سيلٍ عارمٍ تصنعه الطبيعة بلا رحمةٍ تدريجياً..

حتى بلغ ذروته تلك..

كانت تلك هي الساعة الثانية ليلاً بتوقيت عمان..

أربع ساعات على إبحار ستاركيت.

على الطريق الخارجي المؤدي إلى الكرك، كان إبراهيم يردد مع نفسه مستجمعاً قواه..

”شيفح لهستوريا!..“

لقد انقضى معظم المسافة تقريباً وبدأت أنوار منطقة الكرك تتضح من خلف زجاج البي أم دبليو الأمامي الذي كان يتلقى البخار من داخل السيارة، فيما تمطره السماء بوابلٍ من أمطارها من الخارج، وحتك ماسحات المطر عليه كعيدانٍ تريد إشعال النار..

خفف الشاب سرعة سيارته ليبقي على المسافة الآمنة بينه وبين سيارة عميل السويسريين أمامه من جانب. ولنع وصول المياه إلى مقابض السيارة الداخلية من جانبٍ آخر. فقد بدأت المياه في هذه البقعة بالوصول إلى مرحلة اللا متوقع..

ارتفعت المباني أمام إبراهيم بأنوارها، وعلى مسافة بعيدة منه ولكن في نطاق نظره، اشتد الضوء الأحمر الخلفي لسيارة ديفيد إيتان ورفيقه، معلناً تخفيف السرعة إلى حد بطيء، فأزقة الكرك القديمة ترحب براكبي السيارتين.

في تلك أبيب، كان ناحام العجوز ينظر إلى الساعة في مقره الهادئ البعيد عن صخب الأردن وما يجري فيها، ويقلب بيده مسبحةً قصيرة الخيط، فيما تشمخ من أمامه لوحة سقوط أورشليم الموزائيكية، وتنعكس نار مدفأة الخطب لأمعةً على شمعدان داوود الموضوع على المنضدة أمامه..

كسر العجوز صمت المكان بهمسٍ رتيب تصاعد من حنجرته ببطء..

طالما في القلب تكمن..

نفس يهودية تتوق..

وللأمام نحو الشرق..

عينٌ تنظر إلى صهيون..

أملنا لم يضع بعد..

أملٌ عمره ألفا سنة..

أن نكون أمة حرة على أرضنا..

أرض صهيون وأورشليم..

ابتسم ناحام مع الكلمة الأخيرة، أرض صهيون والقدس، ثم تتمم قائلاً:

”لترحمك الآلهة يا نفتالي امير، ولتسكن روحك السماء براحة، كما تريحنى بهذه الكلمات!“..

الفصل 64

تشمخ قلعة الكرك بين مبانٍ سكنيةٍ وجاريةٍ قديمةٍ تطوقها من جانبٍ واحد. فيما تنحدر الأرض من ثلاث جهاتٍ أخرى إلى عمقٍ يصل إلى عشرات الأمتار كسفوح جبلٍ تنتصب القلعة على قمته. ويرتفع الطاقم كله نحو ألف مترٍ عن مستوى سطح البحر.

أما إلى الغرب منها. فتمتد مساحةٌ لا منتهية من الأرض إلى أفق ضبابي شاسع يصل إلى ما تبقى من مياه البحر الميت. فيما تقع إلى الضفة الأخرى من ذلك البحر الأراضي الفلسطينية.

وبحجرها الشديد الصلابه ومنعتها الحصينة. تبلغ مساحة القلعة نحو خمسةٍ وعشرين ألف متر مربع بناها الملك (فولك) ملك مملكة بيت المقدس في القرن الثالث عشر. لتتوالى عليها السيطرة العسكرية من الصليبيين إلى الأيوبيين. إذ سيطر عليها صلاح الدين الأيوبي منتزعاً إياها من أيادي الفرنجة في أعقاب معركة حطين التاريخية. ثم آل حكمها إلى المماليك ثم العثمانيين. ثم العرب إبان الثورة العربية الكبرى. إذ أصبحت مركزاً للتحكم بطرق المواصلات بين الشام ومصر والحجاز.

كان كل ما حول القلعة مظلماً إلا من بعض أنوار الشارع. فيما هدرت الجداول الجارية من المناطق المرتفعة إلى الأدنى منها كسيلٍ من الطين والوحل الممزوج بمياه المطر حد النقوق. وراحت السماء تسقط ما بجعبة غيومها على كل شيء في آن واحد...

توقفت السيارة السوداء في أحد الأزقة القديمة المؤدية إلى البوابة الرئيسية للقلعة. كان ديفيد ايتان يتفحص مقتنياته الواحدة تلو الأخرى. مر بأصابعه على أسفل بنطاله للتأكد من وجود حريته الملتوية. ثم تأكد من نقاله في جيب معطفه الطويل. أغمض عينيه قصيراً ثم قال لرفيقه: "أتمنى أن تكون نهاية الرحلة هنا لنحصل على الأثر الكريه!".

هز رفيقه رأسه متمنياً له الحظ المتسم. وفتح ايتان باب السيارة خارجاً منها باتجاه القلعة..

على مقربةٍ من ذلك الزقاق. كان إبراهيم يتلقى تعليمات ناحام الأخيرة:

”إبراهيم. هذه المرة لن تدعهُ يسبقك، عليك بالدخول قبله بأي ثمن. القلعة واسعة. لكن يجب أن تبحث بشكل سريع!..“

شعر إبراهيم بخطورة الموقف هذه المرة. فالعجوز يريد سباقاً مع عميل السويسريين الذي يبدو خطيراً..

”مفهوم سيدي!“، سحب نفساً ثم قال: ”ولكن لماذا هذه المرة بالذات!“.

أجاب ناحام: ”عليك أن تتذكر أن هناك أقل من أربع ساعات قبل أن تبهر ستاركيت. لا يمكننا انتظار عميل السويسريين وهو يجمع الإشارات ويرسلها إلى جنيف ليقوموا بتحليلها لبعض الوقت ثم تبعث لنا لبنى بمحتوى الاتصال ثم نتوجه إلى حيث ما يتوجه هو. لا وقت لدينا لكل هذا. إذا كان الأثر هنا فعلياً أن نحسم الموضوع فوراً بالحصول عليه.“

”فهمتُ سيدي!“، قال إبراهيم بغير اقتناع كامل. إلا أنه أنهى المكالمة مع العجوز واطفاً محرك البي أم دبليو الحمراء، وترجل منها تاركاً إياها في زقاقٍ آخر قريب.

كانت الأمطار تشتدُّ حيناً وتخفُّ آخر. إلا أن ريح الشتاء كانت تعولُ خادشةً أي شيء في طريقها. انسل إبراهيم مسرعاً بحركة رشيقة ناقراً بقدميه على المياه التي راحت تغزو التعبيد كله، اقترب من القلعة أكثر بعد أن تأكد من ابتعاده عن السيارة السوداء التي بقيت في زقاق حدد مكانه. توارى مختفياً خلف أحد الجدران القريبة ونظر إلى البوابة..

كان ديفيد ايتان يقف هناك مسكاً نقاله. بدا ينظر إلى شاشته ويرفع رأسه نحو مدخل القلعة. تيقن إبراهيم من أن ديفيد ما زال غير متأكد من أن ما يقف أمامه هو بوابة القلعة الرئيسية التي تؤدي إلى ما بداخلها. فجأة، بدا ايتان منزعجاً من انهمار المطر على شاشة محموله. استدار مبتعداً عن بوابة القلعة نحو زقاق قريب. حيث أوى إلى ما تحت مظلة متجر صغير تقيه من قطرات المطر..

انسل إبراهيم مندفعاً نحو بوابة القلعة المرتفعة عن الأرض بنحو عشرة أمتار راکضاً على طريقٍ معبدٍ يؤدي إليها. ومستغلاً كون ايتان يولي ظهره نحوه تحت تلك المظلة. وبعد خطواتٍ صامتةٍ عديدة. وجد الشاب نفسه يقف أمام بوابة قلعة الكرك التاريخية. وإلى اليسار منه. كان مدفعٌ من بدايات القرن العشرين يشير بفوهته إلى الأفق. تجاهه إبراهيم راکضاً إلى داخل البوابة..

رغم كونه يقف ضمن بقعة ضوءٍ صنعها مصباحٌ كبير معلقٌ أعلى سور القلعة. إلا أن المرور إلى أول ممرات المبنى كان يعني الدخول إلى ظلام تام يخيم على مسالك القلعة تماماً. وجد إبراهيم نفسه في ممر لا يعرف طول له لشدة الظلام. وبدأ ينقل أقدامه خطوةً فخطوةً بحذرٍ شديد..

بعد دقيقة. كان ديفيد ايتان قد أطفأ شاشة نقاله واجه نحو بوابة القلعة ذاتها. وبدأ بالصعود نحوها بحذاءٍ موحد. حتى وصل إلى جانب المدفع القديم. لقد اتضحت له تفاصيل المبنى العتيق من خلال النقال. وراح يتبع ما رآه فيه قبل قليل خطوةً بخطوة. وحافراً بحافر..

صمت صوت هدير المطر عن مسامع إبراهيم وهو يسير في ممرٍ منخفض السقف وحالك الظلمة. لكن صوت جريان المياه كان يتسلل إلى مسامعه من أماكن عديدة لم يستطع الاهتداء إليها. أخرج نقاله وفتح مصباحه لثوان. ليذهل برؤية ممرٍ طويلٍ ومسقفٍ يمتد أمامه إلى غير نهاية. وأثناء إنارة المصباح للممر. لم يَرَ إبراهيم ما يثير الشك نحو وجود النصفين أو أية حاويةٍ أو صندوقٍ قد يكون مرمياً

هنا. أطفأ المصباح فوراً وقرر الاستمرار بالسير..

على مقربة منه إلى الخلف. كان ديفيد ايتان قد عبر البوابة إلى الممر الضيق ذاته. ليجد نفسه في ظلام دامس. وقد تناهت إلى مسامعه أصوات جريان مياهٍ من أماكنٍ مختلفة..

في تلك الأثناء. كانت كلارا قد وضعت صندوق النصفين على الأرض بعد أن استقرت في مكانٍ ما. أخرجت نقالها من جيبها لتتابع النظر إلى الصورة التي اقتنصتها لمحتوى البريد الإلكتروني الثاني..

كل شيء على ما يرام.

إلا أنها بعد ثوانٍ. رفعت عينيها عن النقال. وقد تصاعدت إلى رأسها حرارةٌ رعبٍ قاتلة..

في غرفته بتل أبيب. كان ناحام جالساً وقد بان ارتجافٌ يده اليسرى واضحاً..

هل سينجو إبراهيم؟

لقد جازف برجله الوحيد تواً مقحماً إياه في سباق مع عميل السويصريين نحو ما فقد منه. لم يشأ التفكير بما يمكن أن يحدث. إلا أنه لم يستطع إبعاد صورة الشر المرعبة عن رأسه..

المجمع بانتظاري!

تزاحمت الأفكار برأس العجوز بشكلٍ متشظٍ. ماذا لو تقاتل الندان وسال الدم على أرض قلعة الكرك؟ ماذا لو لم يجد كلاهما ما يبحث عنه؟

وماذا إن كانت تلك هي المحطة النهائية لهذه الليلة الدراماتيكية!

وضع ناحام رأسه بين كفيه، وراح يرتلُ بعض النصوص التوراتية بصوتٍ متعَبٍ..

وجد إبراهيم نفسه أمام جدارٍ مغلقٍ، إلا أن صوت تساقط المطر تعالى إلى يساره، نظر إلى اتجاه الصوت، وبانت بوابة مقوسة تؤدي إلى مكانٍ مفتوح إلى السماء. سار بخطى سريعة نحو الباحة، وأصبح أمام سياجٍ منخفضٍ يطل على منظرٍ مهيب، إذ بدا ينظر نحو أفقٍ مظلمٍ إلا من بعض الأنوار المشتتة هنا وهناك، اقترب من السياج أكثر، ليدرك إنه يقف على ارتفاع عشرات الأمتار عن هاويةٍ سحيقة للغاية، نظر إلى اليسار فرأى المزيد من السلالم العريضة المؤدية إلى داخل القلعة من جديد، كان صوت الرمال الناقعة تحت قدميه أشبه بصوت شد حبالٍ مهترئة، صعد الشاب إلى السلم العريض قاصداً مدخلاً آخر من مداخل القلعة، وبعد ثوانٍ وجد نفسه داخل بهوٍ هائلٍ مغلقٍ من الأعلى إلا من بعض الفتحات الدائرية الخاصة بتسريب ضوء النهار وقد تقاطرت مياه المطر منها، أخرج نقاله من جديد، وفتح المصباح ليرى تفاصيل المكان، فأدرك إنه يقفُ في قاعةٍ كبيرة ليس على أرضها سوى الرمال..

لا أثر لأي شيء قد يتركه أحدهم هنا، وليست هناك أية إشارات قد تؤدي إلى مكانٍ آخر في سلسلة الغاز الليلة، الأمر الوحيد الذي أدركه هو أنه يسير في الطابق العلوي للقلعة، أطفأ مصباح النقال واستمر بالسير..

في الطابق الأسفل، كان ديفيد ايتان يسير بين الممرات متعثراً ببعض الانخفاضات المفاجئة في أرضيتها، تشعب بالسير لوحده في القلعة حتى لم يعد يدرك مكانه، فتح مصباح نقاله لوهلة ليرى موقعه، باحثاً عن أية مخارج أو سلالم تقوده إلى

الخارج، إلا أنه وجد نفسه في قاعةٍ يحيط بها البناء من كل جانب..

رفع النور إلى الأعلى باحثاً عن مخرج، لكنه لم يجد سوى السقف العالي المحكم البناء من فوقه..

في السقف، كانت هناك فتحة صغيرة تسلسل منها نور النقال إلى الطابق العلوي..

تماماً إلى حيث كان إبراهيم يمر..

فأوقف الأخير خطواته فوراً..

الفصل 65

تتكون قلعة الكرك من مداخل ومخارج عديدة شائكة ومتشعبة، وطوابق متعددة بنيت بدقة فوق بعض. تضم أماكن اسطبلات الخيول ومنامات الجنود ومطابخ الطعام وغرف خزن الأسلحة. إلى جانب عددٍ من الزنازين وغرف الإعدام بالشنق. وفي طوابقها العليا. بُنيت غرفٌ كبيرةٌ تحتوي جدرانها على فتحاتٍ ضيقة كانت منصاتٍ لرمي السهام على العدو إبان الحروب القديمة. أما الطوابق السفلى ففيها أماكن جمع المياه المنسابة في نظام تصريف الأمطار المتغلغل في بناء القلعة. وهي على هيئة غرف كبيرة وواسعة تشكل أحواضاً لجمع تلك المياه. فيما تكتسي أرضية كامل القلعة بالرمال والتراب..

في الطابق الأعلى. كان إبراهيم قد جُمد في مكانه وهو ينظر إلى الثقب الأرضي الذي يمر منه وهج شعاعٍ من الأسفل كأنه مجرةٌ تدور الكواكب فيها على هيئة ذراتٍ من الغبار. حرك بخطواتٍ حذرة إلى موقع الثقب. ونظر إلى أسفل..
إلى مصدر الضوء..

كان قطر الثقب لا يتجاوز الثلاثين سنتيمتراً. وقد بان منه نور يشعُّ من حته. وعندما اقترب إبراهيم أكثر لينظر إلى ما دون الثقب. تفاعلاً بأن الأرض في الطابق الأسفل تبعد ما يزيد عن خمسة أمتار عن الأرضية التي يقف عليها. أدار نظره باتجاهاتٍ عديدة وهو ينظر إلى تلك الهوة. فرأى مصدر النور بأعينه..

كان ديفيد ايتان يمسك نقاله ملوحاً به يميناً ويساراً. وقد وقف إلى الأسفل منه تماماً..

اصطكت أسنان إبراهيم غضباً وهو يشاهدُ غريمه تحت قدميه. استدار عائداً إلى المدخل الذي ولج منه. وراح يبحثُ عن ممرٍ آخر يؤدي به إلى أماكنٍ أوسع. فلعل ما يبحثان عنه يقعُ في أحد الممرات أو الأماكن المحاطة بالطوب من كل جانب. ترك القاعة ودخل في دهليزٍ مجاور. كان الظلام يلفُ المكان برمته. فيما هدرت السماء

في الخارج بصوت الرعد المتوحش. مر بالعديد من الممرات الضيقة ذات السقف المنخفض. وكان دليله في البحث يديه التين تلمس بهما الجدران. وقدميه اللتين حثا بهما التراب باحثاً عن أي شيء قد يكون أحدهم تركه هنا. بما قد يحل شفرة أو يترك أثراً. أو ربما النصفين الذين يبحث عنهما سيده ناحام. كانت القلعة تبدو كمتاهة لا يعرف من يتيه فيها مبدأها من نهايتها. بدت الأروقة والممرات كأنها أمعاء حوت عملاقٍ بتعرجاتها. لكنه حين كان يستمع إلى صوت انغماس أقدامه في الرمال. وعندما تجاوزَ نهايةِ ممرٍ آخر. سمع صوت خريف مياهٍ بالقرب منه. كان يشبه صوت شلالٍ صغيرٍ يهوي من مكانٍ عالٍ إلى أرضية طينية. أخرج نقاله فوراً وفتح المصباح. فلمع من أمامه منظرٌ مياهٍ تهوي من ثقبٍ في سقف القاعة المؤدي إلى السماء الماطرة..

إلا أنه وبعد ثوانٍ رأى أمراً أجن الجنون في دمائه..

إلى الخلف من قطرات الماء الهاوية إلى الأرض..

كانت كلارا تقفُ أمامه.

في الطوابق السفلى. كان ما يزال ديفيد ايتان يضيعُ بين الممرات الضيقة والقاعات الكبيرة. لم يعد يعرف أن كان يفكر بكيفية الخروج من المكان أم كيفية البحث عما يجب أن يعثر عليه هنا من دلالةٍ أو رمزٍ أو شيفرة. أو شيء قد يجده في مكان ما ينهي هذه الليلة الطويلة من البحث والألغاز..

كان الظلام وصوت المطر وتعقيد تصميم المبنى قد رفع الغضب إلى رأسه حتى بات يشتتمُ شخصيتييه في سره. تسلسل صوت مرور المياه في أماكن تصريف الأمطار إلى أذنيه من كل جانب. وراح صوت الرعد يتردد في القاعات الهائلة التي وجد نفسه فيها. وشعر بأن قلعة الكرك ستكون محطة فشل مهمته. إن لم تساعده شخصيتييه فوراً..

أخرج نقاله ونقر على اسمها. ففشل الاتصال على الفور. حاول مرةً أخرى. ولم تنجح العملية أيضاً. نظر إلى مؤشر الشبكة في جهازه. كانت تشير إلى نقطةٍ واحدة من أصل أربع نقاط..

الشبكة ضعيفة للغاية. لكنها ما تزال تعمل..

بعد أربع محاولاتٍ فاشلة. رن الهاتف المحمول لكارين شخيتيليه في جنيف..

ديفيد يتصل بك.

”أخيراً التقينا كلارا!..“

قال إبراهيم لغريمته الواقفة أمامه بلا حراك. وقد وضعت صندوقاً فضياً صغيراً قرب قدمها اليمنى..

”عليك أن لا تتصرف بتهور أيها الشاب!“. قالت كلارا وهي تضع يديها في جيوب بنطالها..

”خنت العجوز. سيدك الذي عشيت على كرمه البالغ معك. حاولت إيدائي بسيارتك في ذلك الزقاق تحت المطر. سرقت النصف الذي معي. وقتلت عماد الحسين!..“

”عليك أن تكون حذراً وأنت تتعامل معي. اخفض نور نقالك عن عيني ودعنا نتحدث. إبراهيم. كل شيء قد انتهى..“

لوح إبراهيم بنور النقال مضيئاً الفتاة من رأسها إلى حذائها. وخطا خطوة مكتومة إلى الأمام غطى على صوت وقع حذائه فيها صوت تساقط مياه المطر من الثقب في سقف القاعة إلى الأرضية الطينية..

”قفا! لا تتحرك، قلت لك لا تتصرف بتهور“. قالت كلارا دون أن تتحرك..

لكن إبراهيم استمر بالتقدم حتى أصبح شلال المياه الصغير وراء ظهره. فاصبح يرى كلارا بوضوح أمامه..

”أمن أجل المزيد من المال كلارا؟ تخونين سيدك من أجل حقيبة من الدولارات؟ لماذا؟ لأنه جعلك قطته الوديعه في المكتب؟ أم لأنه أغمد فيك سيفه العجوز مراراً وتكراراً على مكتبه؟ أليست القضايا الشخصية بعيدة عن الأخلاص في العمل؟ ألم يعلمك العجوز ذلك؟“..

”إبراهيم. انتهى الأمر. عميل السويسريين وصل إلى هنا. لا أريد أن أراك قتيلاً بين يديه. مرمياً تحت أقدامي في هذا المبنى العتيق. ارحل ودعني أتم الصفقة بأقل الخسائر“..

قال إبراهيم متنمراً: ”أبدأ. قد يأخذ العميل النصفين منك. ويغتصبك هنا مراراً. ثم لا يدفع لك سنتاً واحداً. ثم يرحل بطائرة دافئة إلى جنيف. حيث تنتظره شمطاء مركز جمع التراث الشتات!“..

ازدرد ريقُ كلارا لما سمعت، لكنها حافظت على رباطة جأشها..

”ما زلت شاباً على الموت إبراهيم“. قالت متصنعة القوة. ”أنه علاقتك بالعجوز. قل له أنك فشلت. افعل أي شيء كي لا تموت الآن!“..

”شيفح لهستوريا!“ قال إبراهيم وهو يتحرك خطوةً أخرى نحوها. ”شيفح لهستوريا كلارا. أقسمتُ أن أقولها لسيدي ناحام وأنا على سواحل تل أبيب حاملاً ما أرسلني لاستعادته. النصفان. ولن أدعه يموتُ قبل أن يستمع لتلك الكلمات بصوتي. وفي الوضع الذي يريدني عليه. حاملاً الرقيم!“..

”وصولُ الرقيمِ إلى مركز اليهود الشتات يعني وصوله إلى القباليين إبراهيم. في الخالتين سيصل إلى وجهته ذاتها“..

”وتكونين أنت بطلّة شعب الله المختار؟“. رد إبراهيم مستهزئاً، ”ويذهب جهد العجوز وأمواله التي أنفقها لعماد الحسين هباءً. لأن فتاةً غبيةً مثلك أرادت أن تكونَ البطلّة الممهدة لعودة الماشاح؟“..

وقبل أن ترد كلارا. انقض إبراهيم باتجاهها وقد أسقط هاتفه المحمول على الأرض. وبقي نور مصباحه إلى الأعلى منيراً ما حوله في القاعة بمساعدة ذرات الغبار المتطايرة. أمسك بعنقها بشدة كادت تقتلها فوراً ودفع بها إلى الجدار الأصم من ورائها. اصطدم جسد الفتاة بالجدار بقوة أشعرتها بانسلاخ روحها من بين عظامها. وتابع إبراهيم هجومه بقوة وحيدٍ قرنٍ هائج. أمسك بها من فكها الأسفل كأنما يحاول اقتلاعه..

”كل ما قلته لك بشأن العجوز هو محض هراء. أنا أفكر بموقعي في العمل معه فقط. وأنت من كاد أن يجعل ناحام يطردني من العمل معه بمؤامراتك الغبية!“.. حاولت كلارا الرد. لكن لسانها كان عاجزاً عن الحركة بفعل قبضة إبراهيم. ”قلت.. لك.. لا.. تتهور... دعني!“، قالت وقد بان الأنين في صوتها من شدة الألم..

”ستموتين هنا. في هذه الغرفة القديمة المتهرئة جدرانها. حت سيل المياه الهابط من السماء إلى هذا الطين الذي حت قدميك. سيعث عليك سائح أجنبي ويبلغ السلطات. ثم ترفعين بكيس بلاستيكي أسود. ولن يعرف أحد كيف ماتت كلارا. مساعدة رجل الأعمال اليهودي ناحام. في أية ظروف. وبأيدي من“..

عصر إبراهيم على فك كلارا بقوة أشد. وضغط على أسنانه حتى ضرب الصداع جوانب رأسه. إلا أن صوتاً اخترق المكان مرتداً بين جدران القاعة..

”قف!“..

الفصل 66

الثانية والنصف ليلاً بتوقيت عمان، ثلاث ساعات ونصف على إبحار ستاركيت.

بهودوء تام، كان ناحام يطقطق بمسبحته القصيرة الخيط بيده، ويدندن بصوت كئيب بعض الترانيم اليهودية، شعر بأن عليه أن يجرب السكون ويدع مشيئة الرب تدبر الأمر، فقد فعل ما باستطاعته حتى الآن، رغم أنه يعلم بأن الرب الأكبر للقباليين ما زال بانتظاره على موقد من المشاعر الحارة، سيتصدع مجمع رؤساء الطوائف قريباً بفتح جدال الزوهار من جديد، الجدل الذي طال قرونًا تلو القرون، ولم يجد بصيص نور في نهاية النفق.

كانت اللوحة الموزائكية أمامه على الجدار تعكس أنوار النار المتوهجة في مدفأة الحطب في الغرفة، تأملها ناحام طويلاً، ناظراً إلى الدخان المتصاعد من أسوار أورشليم، وصعود الجنود البابليين على أسوار المدينة بشراسة للإطاحة بها وبمن فيها، فيما امتلأت الأرض الملاصقة للأسوار بجثث البابليين والإسرائيليين على السواء، وحاصر جيش نبوخذنصر المدينة من كل ناحية، بعد حصار دام لثلاثة عشر سنة جعل سكان أورشليم يقتاتون على أي شيء، ولم يكن لهم أمل إلا بالدعاء والمناجاة، بمواجهة بطش نبوخذنصر الغاضب وجيشه العارم..

لحيا الجنود الكلدان الطويلة، وسيوفهم القصيرة، وعربات خيولهم الفريدة وقسيهم المنحنية التي راحت تمطر أسوار المدينة بالسهام المدببة، بانوراما سقوط مدينة شعب صدقيا وتهاوي أسواره أمام الكلدان، كل ذلك على لوحٍ واحدة..

أغمض ناحام عينيه قصيراً، فيما بقي ذهنه متقدماً كعادته..

”اترك الفتاة!“. كان الصوت قادمً من الخلف. وارتخت قبضة إبراهيم على فكي كلارا. إلا أنه ما زال يمسك بها بيده الثانية من حزامها..

”قلتُ لك اتركها!“. استدار إبراهيم و امسك بكلارا بذراعيه..

”من؟!“. قال وهو ينظر في عتمة نهاية القاعة..

ثوان. وبرز ديفيد ايتان مقترباً من شلال المياه الصغير. حيث أنار ضياء النقال على الأرض جسمه. فبان واقفاً أمام إبراهيم ورهينته الفتاة.

”عليك أن تفهم أنني كنت أراقبك منذ البداية. منذ لحقت بي على قمة جبل نيبو. وحاولتُ التلصصَ علي وأنا عند عصا موسى. أبها العديم العقل. لن تسبقني بالخطوة الأخيرة!“. قال ديفيد وهو يرفع ساقه إلى الخلف. ويمد يده تحت بنطاله مخرجاً حربته الملتوية..

شعر إبراهيم بخطورة الموقف. ظلمة المكان ووقوعه كخصم بين عميل السويسريين المدرب وكلارا الخطيرة الأخرى. لكنه لجأ إلى جعل الأخيرة درعه البشري.

”اسمع أيها السويسري“. قال إبراهيم. ”إن اقتربت أكثر سيكون عنق الفتاة مكسوراً. وسنتصارع أنا وأنت لوحدنا“..

”اكسره!“. قال ايتان بهدوء. ”فلقد وصلتُ إلى ما جئتُ من أجله. الصندوق الذي يقربك على الأرض. بعد ذلك لا يهمني أنت ولا هي“..

أطلق إبراهيم ضحكةً عالية وهو ينظر شزراً لعيني ايتان..

”عنقك هو التالي سيد ايتان!“. قال وقد شعر بجسمٍ صلبٍ ملتصقٍ بظهر كلارا يلامسُ بطنه..

وقبل أن يمد يده نحوه ليستكشفه، انقض ديفيد ايتان عليه فوراً. فرمى إبراهيم بكلا را جانباً بسرعة واشتبك مع ديفيد وقد أمسك ذراعه مبعداً حرته عن وجهه. ركل ديفيد إبراهيم بركبته. فأطلق صرخة ارتدت كصاعقة في القاعة. ثم أمسك الأخير بيد ديفيد وضربها بركبته بقوة جعلت الحربة تسقط عن يده. ركلها إبراهيم بعيداً إلى حيث تسقط مياه الشلال الصغير. بينما كانت كلارا على الأرض تتحسس وجهها الذي آلته قبضة إبراهيم الحديدية..

أمسك كل من الشابين بملابس الآخر. وراحا يتصارعان على الأرض كثعبانين عظيمين. كان إبراهيم يحاول الإمساك بالحربة الواقعة تحت المياه على مقربة منه، إلا أن ذراع ديفيد كانت قوية إلى الحد الذي قيد بها إبراهيم تماماً. فترك الأخير التفكير بالحربة وأمسك برأس ديفيد محاولاً فقأ عينيه بإبهاميه. لم يعد ايتان يرى شيئاً وقد حجبت أصابع إبراهيم رؤيته. ضغط إبراهيم بقوة على عيني ايتان الذي صرخ بوجع. وراح يحاول إفلات قبضة إبراهيم عن عينيه. أطلقت كلارا صرخة وهي تنظر إلى الصراع أمامها..

”ديفيد! لا! لا تدعه يقتلك!“..

شد إبراهيم على عيني ديفيد أكثر فيما كان تحت وطأة جسمه. وأحس بقرب نهاية عميل السويسريين بين يديه. وراح يفكر بما سيفعله بكلارا من بعده. إلا أنه شعر فجأة بأن كل شيء قد انطفأ..

وتلاشى صوت خرير المياه بالقرب منه..

في غرفتها بمركز جمع تراث اليهود الشتات في جنيف. كانت كارين شخيتيليه تدخن السجائر الواحدة تلو الأخرى وهي بانتظار ردّ من ديفيد ايتان. يجب أن يعثر على الشفرة التالية أو المفاجأة الجديدة التي تخبأها الفتاة في قلعة الكرك. كان قد اتصل بها قبل قليل طالباً منها توضيح خارطة القلعة التي تاه في دهاليزها وسط الظلام الخالك. ورغم رداءة الاتصال. استطاعت هي أن تعطيه مسارات المكان بالاعتماد على ما لدى المركز من معلومات حول شكل القلعة الهندسي ومراتها السرية وأروقتها. إلا أن ديفيد. وبعد تلقيه تلك المعلومات. لم يعاود الاتصال حتى الآن.

نظرت إلى شاشة نقالها من جديد. لم يكن هناك إشعارات واردةً حديثاً. ولم يأت موظف الاتصالات ليخبرها بتلقيه رسالة جديدة من ايتان. أحسّت بأن مهمة عميلها الأبرز على المحك في ظل غيبته الأخيرة الطويلة. ترددت في الاتصال به. فلعل قيامها بذلك يفسد عليه قيامه بمهمته..

عاودت النظر إلى شاشة البي بي سي في غرفتها..

وشعرت بالملل من شريط الأخبار المعاد.

كعاصفةٍ رمليةٍ في صحراءٍ مجدبة. كانت حبات الغبار تتراقصُ أمام نور المصباح الصادر من نقال إبراهيم والمرمي على الرمال في القاعة الكبيرة في القلعة. غبارٌ أطاره صراع جثتين كبيرتين قبل قليل. انتهى إلى هدوء تام. لولا صوت خرير المياه من سقف القاعة..

كان إبراهيم ممدداً على الأرض بلا حراك. فيما تمدد إلى جانبه ديفيد ايتان وقد غطى عينيه براحتي يديه من الألم. وبالقرب من رأس إبراهيم. جثت كلارا على ركبتيها وقد تسارعت أنفاسها. وبرزت ماسورةٌ مسدسها الكاتم للصوت من يمينها..

”هل أنت بخير؟“ قالت كلارا محاولةً تهدئة نفسها..

مسح ديفيد ايتان عينيه ونهض جالساً. هز رأسه كعصفورٍ بلله القطر. ثم نظر إلى إبراهيم مداً إلى جانبه..

”شكراً لما قمت به!..“

”كلارا!“ قالت هي وقد ارتفع حاجباها..

”كلارا!“ سحب ايتان نفساً عميقاً. ثم مد يده متناولاً حريته من تحت المياه الهاوية. غسلها بها من الطين اللصق بها. وحشرها في حزامه..

”هل مات؟“ قال لها وهو ينظر نحو إبراهيم.

”لا أعتقد. لقد ضربته بعقب المسدس على رأسه.“

”كان الأجدربك قتله!“

”لننهي الصفقة ونهرب من هنا ديفيد. سيفيقُ بعد أن يكون كلانا بعيداً.“

”حسناً كلارا. كيف سنتفق؟“ قال ديفيد وهو يهم بالنهوض.

”ستصور الأسطر الأولى من الرقيم وتبعث بها إلى مركز جنيف. وعندما يتأكدون من أنه الرقيم المطلوب، سنذهب إلى ميناء العقبة سوية. هناك سفينة ستبحر بعد ثلاث ساعات و..“. نظرت إلى ساعتها وأكملت: ”وعشر دقائق. ستبحر بنا إلى اليونان قبل أن تتوجه إلى تل أبيب. لقد قمتُ بترتيب كل شيء. حجزت مقعدين على متنها. علينا أن نصل إلى اليونان أولاً ثم نظير من هناك إلى جنيف. على المركز أن يدفع لي ثلاثمائة ألف دولار لأقوم بتسليمه.“

أغمض ديفيد عينيه بقوة. ثم نظر نحوها وقال:

”لولا سياسة المركز بالتعاملِ بأمانةٍ مع الزبائنِ أمثالك، لقمْتُ بقتلكِ وأخذته دون دفع سنت واحد“.

ابتسمت كلارا نصف ابتسامَةٍ وأجابت: ”ولذلك أنا أتعامل معهم على هذا النحو“.

”حسناً كلارا“، قال ديفيد وقد أمسك بقدمي إبراهيمٍ ساحباً إياه نحو الجدار، ”سأقوم بالاتصال بمديرتي هناك لأخبارها بالأمر أولاً“.

”ليس معنا الوقت الكافي“، ردت كلارا على الفور، ”ستاركيت ستبحر بعد ثلاث ساعات وبضع دقائق، الطريق إلى ميناء العقبة بحاجة إلى السير بالسيارة لثلاث ساعات“.

”إن؟“، قال ايتان نافضاً يديه من غبرة حذاء إبراهيم.

”تصوره فوراً، وتبعث بصور الأسطر الأولى إلى مديرتك، عليها أن تؤكد فوراً أنه ما تبحث عنه لنبدأ الرحلة“.

”اتفقنا، أين هو؟“، قال ديفيد وقد فتح ضوء نقاله ووجه مصباحه باتجاهها.

”اقترب“، ردت كلارا وقد حشرت مسدسها في حزامها، وسارت نحو الصندوق الفضوي المتروك على الأرض.

جلس الاثنان قبالة بعضهما، وبعد أن أدارت كلارا أرقاماً سرية على الصندوق، فتحت أمام ايتان لترية ما بداخله.

كان رقيقٌ أثري من الطين قد وضع على هيئة قطعتين بداخل الصندوق، مر نور المصباح عليهما لتتضح الندوب الموشومةُ فيهما مما تركته قصبه الانسان الذي كتبه، رفعت كلارا أحدهما بيدها ووضعته أمام ايتان، ثم همست قائلة:

”تكملة الزوهار يا ديفيد!“..

الفصل 67

الثالثة صباحاً بتوقيت عمان..

ثلاث ساعات على إبحار ستاركيت.

كانت المياه ما تزال تنهمر من سقف القاعة العالي في أعلى قلعة الكرك. فيما بقي إبراهيم ممدداً بلا حراك إلى جانب الجدار. وإلى جانبه. كان هاتفه المحمول مرمياً عند رأسه وقد أثار ظلمة المكان بمصباحه الأبيض.

نظر ديفيد ايتان بترو إلى نصف الأثر الأول بين يدي كلارا. كانت مساحته بحجم نصف كف اليد وقد نقشت عليه أسطرٌ دقيقة للغاية بالكتابة السمارية. فيما بدا نصفه الأسفل مكسوراً بشكلٍ مائل. مد ايتان إصبعه ليتحسس النتوءات الغائصة في بدن الرقيم. وشعر بأنه يلامس أيدي من صنعه بإصبعه. كان شعوراً غريباً أشبه بشعور لمس طفلٍ ولد للتو. إلا أن كلارا أعادت النصف إلى مكانه في الصندوق الفضي. ثم أخرجت النصف الثاني.

كان الآخر أشبه بالأول تماماً عدا أنه يحتوي رسماً هندسياً صغيراً على هيئة خمس دوائر متحدة المركز. كما أنه مكسورٌ من الجهة العليا بشكلٍ مائلٍ يكمل كسر النصف الأول..

”هل نبدأ العمل سيد ايتان؟“. قالت كلارا وهي تقلب القطعة على الجانب الآخر الخالي من الكتابة.

”بالطبع كلارا!“. قال ديفيد وهو يفرك عينيه بعد تركيز طويل في ذلك الشيء.

أعد الأخير نقاله للتصوير. فيما وضعت كلارا النصف الأول على الأرضية الترابية وأخرجت شريطاً أحمر كان في الصندوق الفضي. غطت ثلث القطعة السفلى بالشرائط وتركت الأسطر الخمسة الأولى ظاهرة..

”التقط صورتك الأولى الآن ديفيد“. قالت وهي تنظر بتركيز إلى ما يفعله ايتان.

وجه ديفيد كاميرا نقله إلى القطعة، وأصدر جهازه صوت التقاط صورة فوتوغرافية.

”حسناً، القطعة الثانية“. قالت كلارا وهي تستبدل القطعتين، وتضع الشرط الأحمر على النصف الثاني بالطريقة نفسها.

التقط ديفيد الصورة الثانية، وتأكد من سلامة دقتها، فيما أعادت كلارا القطعتين إلى الصندوق الفضي، أفلته وأدارت أرقامه بشكل عشوائي.

”ارسلهما الآن!“

كان ديفيد ايتان يراقب عودة شبكة النقل المتقطعة إلى هاتفه ليبدأ بإرسال الصورتين، وبصعوبةٍ بالغة، وبعد محاولاتٍ عدة، ظهرت على جهازه عبارة: تم الإرسال.

في مركز جمع تراث اليهود الشتات في جنيف، رن هاتف كارين شخيتيليه معلناً وصول رسالة جديدة.

نظرت كارين إلى نقلها، كانت واجهة الهاتف تظهر اسم ديفيد ايتان كعنوان للمرسل، تناولت الجهاز وفتحت الرسالة، كانت تتوقّع طلباً من ديفيد للمساعدة، فالعله عثر على لغز جديد، لكن ما رأيته أدار دماغها لشدة الصدمة..

نهضت شخيتيليه خارجةً من غرفتها وراكضةً في ممرات المبنى باتجاه غرفة المدير، لم تكن مستوعبةً لفكرة وصول ديفيد إلى الرقيم أخيراً بعد مطاردةٍ شاقّةٍ طويلة هذه الليلة، فتحت باب غرفة المدير واتّجهت كالرصاصة نحو مكتبه، وضعت الهاتف على المكتب ونظرت إلى عيني مديرها المنذهل من مداهمتها وقالت:

”لقد عثرنا عليه!“

باريس.

كان البروفيسور ميشيل ليون جالساً على ركبتيه، متكئاً على المنضدة الموضوع عليها الرقيم الغامض. وقد غط في نوم عميق.

فجأة، قعقع مصراع باب القاعة بصوت ذي صدى أفاق ميشيل من غفوته. كان البروفيسور جاك روند قد عاد إلى الجامعة بعد تناوله لوجبة سريعة. نظر إلى ميشيل جالساً على الأرض، وضع كيساً كان يحمله على منضدة قريبة وأسرع باتجاه ميشيل..

”بروفيسور! هل أنت بخير؟“

أنَّ ليون قصيراً ومسح عينيه، فيما أمسك جاك بذراعه..

”انهض، ماذا أصابك!..“

نهض ميشيل وهو يمسح وجهه وقال: ”لا شيء جاك، غفوت دون شعور فحسب!..“

”ميشيل، أنت ترهق نفسك، دع هذا الرقيم لوقتٍ آخر، يجب أن ترتاح، اسمع، جلبت لك وجبة خفيفة، هيا كُل ولنعد إلى منازلنا، لدينا وقتٌ كافٍ لمعاودة التحليل..“

نظر ليون إلى الرقيم على المنضدة أمامه، ثم قال: ”إنه يتحدثني يا جاك..“

ابتسم الأخير وقال: ”ميشيل، يجب أن ترتاح، صدقني سنتوصل إلى حلٍ لشيفرة هذه القطعة قريباً لكن لن نتمكن من ذلك ونحن مرهقون مشوشو الذهن..“

لم يبدُ أن ليون قد اقتنع بكلام زميله، لكنه ابتسم بتكليفٍ وقال: ”ماذا جلبت لي؟“

”سندويج نفاق مع مياهٍ غازية! إنه هناك على المنضدة..“

ضحك ميشيل قصيراً، وأجّه نحو وجبته بمعدةٍ مقرقرة..

بدا صوت ديفيد ايتان منطلقاً كالسيل من سماعة هاتف كارين على مكتب المدير..

”سيدي، هذا هو الاتفاق، الفتاة معي الآن، عليكم أن تقرروا إن كانت الصور تحمل نصاً يعود إلى تكملة الزوهار فعلاً، إن كنتم مقتنعين فسأذهبُ معها على متن سفينةٍ بانتظارنا تبحر الساعة السادسة صباحاً، عندها نتوجه إلى اليونان ثم نظير من هناك نحوكم إلى جنيف، ستدفعون لها ثلاثمائة ألف دولار لتسلمكم إياه ويصبحُ بين أيديكم، لن تسمح الفتاة بأن تريكُم أكثر مما ظهر على الصور من الأسطر ما لم تتم الصفقة بالكامل“..

كان المدير يستمع لايتان واضعاً ذقنه على ظاهر يديه..

”حسناً ديفيد، تهانينا بوصولك للفتاة دون خسائر، سنعاود الاتصال بك فور تأكيدنا من النص“..

”بسرعة سيدي، فالطريق إلى العقبة طويل، وقد تفلت السفينة من أيدينا!“..

”فهمت فهمت، اهدأ، كن بانتظار اتصالٍ من كارين“..

أغلق المدير الخط، واتكأ على كرسيه ناظراً إلى صورتي النصفين على شاشة حاسوبه، فيما كانت كارين تطلقُ أصابعها بانتظار ما سيقول..

كانت الصورتان تديان الأسطر الأولى من كل من النصفين، فيما اتشحت باقي السطور بوشاح أحمر لامع، نقر المديرُ على فأرة حاسوبه فكبرت صورة النصف الأول، واتسعت الحروف المسمازية الموشومة على الرقيم..

بدأت صورة الحاسوب منعكسةً على نظارته الطبية وهو يقرأ النص كلمةً كلمةً..

”ما رأيك؟“، قالت كارين..

لم يجب المدير. لكن لسانه وشفتيه كانتا تتحركان دون صوت، فيما قطب حاجباهُ باستغراب..

أنهى قراءة الأسطر الظاهرة على النصف الأول. ثم انتقل إلى الثاني. قرأ سطره الظاهرة. ثم قال:

”سيده شخيتليه، أكاد أجزم أنه هوا!“..

الفصل 68

”كيف حصلتِ عليه؟“. قال ديفيد ايتان لكلارا وهو يجلس على تراب القاعة الكبيرة.

”حصل عليه مدبري السابق من تاجر أردني. وانتزعته منه“. أجابت كلارا وهي تدخن سيجارةً وقد أسندت ظهرها إلى الجدار.

التفت ديفيد إلى إبراهيم المسجي على التراب وابتسم: ”كاد يقتلع عيني!“.

ضحكت كلارا قصيراً. ومجت لفافتها مرةً أخرى. ”عليك أن تتمرس على القتال الأغلز أكثر يا عميل جنيف!“.

نظر ايتان نحوها وأجاب: ”من أين جئت بالمسدس الكاتم يا كلارا؟“.

”عملنا يتطلب سيد ايتان“.

”وعملي يتطلب حمل هذه!“. قال ديفيد وقد أخرج حريته الملتوية من حزامه.

”هل أرى؟“. قالت كلارا. فرمى ديفيد بالخرية عند قدميها. تفحصت الخرية ومررت على نصلها بإصبعها. وراحت ترميها في الهواء وتلقفها من قبضتها.

”كم أمضيت في هذا العمل؟“.

أجاب ديفيد: ”منذ خمس سنوات. كلفني المركز بجمع أي معلومات تفيد بوجود أي قطعةٍ أو لفافةٍ أو رقٍ يحمل أي شيءٍ باللغة العبرية. فأما أن ندفع المال للملكه ونحصل عليه. أو نسهل له إجراءات السفر من هنا إلى دولةٍ أخرى يرغب بالعيش فيها وحمل جنسيتها. لا شيءٍ صعبٌ في هذا العمل. سوى أنه بحاجةٍ إلى نفسٍ طويلٍ لجمع المعلومات بالسرية الممكنة“.

”لا شيءٍ صعب..“. قالت كلارا. وأكملت: ”سوى أنك قد تفقد عينيك أحياناً..“.

ضحك ديفيد ايتان. قبل أن تنغرس حريته أمامه في التراب كالسهم.

”يا لبراعتك!“ قال لها..

ابتسمت كلارا لوهلة. ثم أخفت ابتسامتها ناظرةً إلى ديفيد وقالت:

”ديفيد. شكراً لك!“..

قطب ايتان حاجبيه وقال: ”على؟“.

أجابت: ”مجئك في الوقت المناسب. لولاك لكنتُ قتلتُه. وربما كنتُ قتيلةً هنا

بيديه“..

”انسي الأمر. وقولي لي. كيف استطعتِ ربط هذه الشيفرات والألغاز بهذه

الطريقة؟“..

وقبل أن تجيب. رن الهاتف المحمول لديفيد..

كارين تتصل بك..

تلقف ديفيد ايتان الهاتف وفتح الاتصال..

”نعم؟... أنتم واثقون؟.. حسناً.. إلى اللقاء“..

أغلق ديفيد الخط وقال: ”إلى ستاركيت يا صديقتي!“..

شعرت كلارا بنشوة انتصارٍ غامرة. فقد اقتنع مركز جمع تراث يهود الشتات

في جنيف بأن ما بحوزتها هو التكملة الحقيقية لكتاب الزوهار. نهضت بسرعة

وحملت الصندوق الفضي معها. فيما وضع ديفيد حريته بحزامه واستعد

للمضي إلى خارج القلعة منيراً طريقه بمصباح هاتفه..

أما إبراهيم، فكان ما يزال طريح التراب وقد تُرِكَ هاتفه المحمول على التراب مضيئاً بمصباحه سواد الفراغ..

”هناك سيارة بانتظارنا في إحدى الأزقة القريبة كلارا، سائقها بانتظارنا.“

أجابت الفتاة: ”أبداً ديفيد، سيارتي عند تمثال صلاح الدين الأيوبي في الباحة المجاورة. سنذهب بها. أخبر السائق بالذهاب فوراً.“

تردد ايتان قصيراً بالرد. لكنه قال: ”كما تشائين!“..

مشى ديفيد لمسافة قريبة بداخل القاعة مولياً ظهره إلى كلارا، وراح يتصل برفيقه سائق السيارة في الأسفل..

”اذهب رفيق، كل شيء على ما يرام، سأجّه إلى ميناء العقبة برفقة أحدهم بسيارته، ليلة سعيدة“..

أغلق الخط، والتفت نحو كلارا ليخبرها بما أجراه من اتصال. وجه نور مصباحه بإجّاهها وقال: ”لقد أخبرتُ السائق بأن...“..

لكنه لم يكمل ما قال، فقد صدمه ما رأى. كان وجه كلارا كوجه روبوت خالٍ من أية مشاعر، فيما اشهرت يدها مسدسها الكاتم للصوت بوجهه، شعر ديفيد بأنها تريد مازحته، ابتسم بتصنع، وقبل أن ينطق، انهالت ثلاث رصاصاتٍ من ماسورة مسدسها لتخترق جسمه بضراوة، وعمت سحابةٌ من البارود في جو المكان..

ثوانٍ، وكان خطٌّ من الدماء يشقُّ طريقه من جثة ديفيد، على تراب قلعة الكرك.

الفصل 69

بسرعة. أخفت كلارا مسدسها في حزامها. ووضعت الصندوق الفضي على الأرض. ثم أمسكت جثة ديفيد من قدميها وبدأت بجرها بعيداً عن نهاية القاعة المقابلة المدخل. سحبت الجثة إلى عمق المكان نحو شلال المياه. تماماً إلى حيث تركت إبراهيم فاقداً للوعي. أعطت ظهرها لمكانه وراحت تدفع الأرض بقدميها كسلحفاة مسنة وقد قبضت على قدمي ديفيد بقوة. أوصلت الجثة إلى الجدار في نهاية القاعة. ونظرت إلى خط الدم الهائج الممتد وراءها كأنه نهرٌ بين الأدغال..

التفتت إلى إبراهيم الممدد بجوارها. وما إن اتضححت الرؤية. حتى شعرت كلارا بسخونة هائجة تتصاعد إلى رأسها..

فلم يكن إبراهيم هناك!..

لم تطل التفكير. بل انطلقت في ظلام المكان الذي لم ينره سوى مصباح النقال المتروك على الأرض في مكان إبراهيم. انطلقت باتجاه الصندوق الفضي الذي تركته وسط القاعة على التراب. عبرت شلال المياه الصغير باتجاهه. لكن صوتاً جاء من عمق الظلام الخانق...

”أصبح لديك ضحيتان لهذا اليوم يا عميلة العجوز!..“

تسمرت كلارا في مكانها وهي تستمع لصوت إبراهيم قادماً من الظلمة..

”لن أكون فظةً معك أنت أيضاً واستخدم مسدسي. إبراهيم دعني أذهب“..

لم يجب إبراهيم. لكن كانت أصوات خطوات أقدامه بدأت تقترب باتجاه الشلال. حيث البقعة مضاءةً ببعض ضوء النقال الملقى على الأرض. سحبت كلارا مسدسها وصوبت باتجاه الصوت. وتكشفت تدريجياً طول إبراهيم الفارع وصلعته اللامعة من وراء الشلال..

”لم لا تفعلينها وتضغطين الزناد؟ على الأقل لتتحولي إلى قاتلة متسلسلة تتصدر عناوين صحف الغد؟“.

”قلت لك إبراهيم، لا أريد قتلك، أعطني الصندوق وسيعيش كلانا“.

”لستُ مسلحاً، وفي الوقت نفسه الصندوق بحوزتي، إضافةً إلى أنك المسلحة الوحيدة هنا“.

”ولا أريدُ استخدام السلاح ضدك“، قالت وهي تصارع أنفاساً سريعة..

”إذن، سأمضي بهدوءٍ خارجاً بصحبة الصندوق، مقابل حياتينا“.

لم تجب كلارا وقد شعرت بأن عالمها انقلب رأساً على عقب. خطفت أمام عينيها صورة البريد الإلكتروني الثاني الذي تسلمته عصر الأمس. كانت سبابتها ترتعش أمام الزناد، وشعرت بوهن في كتفيها وهي تشهر المسدس. أغمضت عينيها قصيراً ثم قالت: ”من أجل حياتينا“. بلعت ريقاً وأكملت: ”لتذهب!“..

”والمسدس؟“، قال إبراهيم..

”سابقى معي“.

”بشرط“.

رفعت كلارا حاجبها بانتظار استرساله..

”أن ترمي بمخزن الرصاص خارجاً، وتبقين رصاصاً واحدةً في حجرة النار للاطمئنان فقط“.

استشعرت كلارا كل خلايا دماغها في محاولة لفهم خطة إبراهيم التي يحوكها. ودار ألف سؤال في خلدتها عما إذا كان صادقاً فيما يقول، إلا أنها استذكرت احترافها في استخدام مسدسها ضده إن نقض عهده معها.

رصاصه واحدة ستكفي.

بحركة خاطفة، ضغطت كلارا على مفتاح مخزن الرصاص في مسدسها، فانسرب من المسدس إلى الأرض، وقبل أن يلامس التراب، ركلت المخزن بخفةٍ بقدمها لترميهِ عند قدمي إبراهيم..

”رصاصتي الوحيدة في حجرة النار الآن إبراهيم، أرجو أن لا تكون أحمقاً.“

انحنى إبراهيم إلى الأرض ملتقطاً مخزن الرصاص ذا عيار التسعة مليمترات ووضعه في جيبه.

”لماذا قتلتيه؟“ قال إبراهيم وهو يشير بعينه نحو جثة ديفيد.

”ليس شأنك!“ أجابت.

”يبدو أنكما لم تتفقا على الصفقة، أو أن أهميته لديك انتهت..“

ساد صمتٌ مطبّقٌ في المكان، ولم يكن هناك صوتٌ عدا صوت الشلال الصغير..

”أخرجني الآن من القلعة.“ قال إبراهيم بهدوء..

كانت كلارا تشعر بالرعب لكل ما جرى، أحست بشفتها السفلية ترتجف من البرد والخوف، صوبت مسدسها نحو إبراهيم وسارت باتجاه الشلال، مرت بجانبه بهدوء وهي تسيرُ إلى نهاية القاعة حيث المدخل المظلم، كانت المسافة نحو المدخل تصل إلى نحو عشرين متراً، خطتها كلارا إلى الوراء وهي تصوب مسدسها نحو غريمها المرعب، وما أن أصبحت قريبةً من المدخل، حتى خفت ساقاها كجناحي عصفور مرتعب، وانطلقت بين مرات القلعة نازلةً إلى طوابقها السفلية، مرت بين دهاليزها وقاعاتها مارقةً كسهمٍ نحيف، وفي ثوانٍ، كانت خارج القلعة راکضةً باتجاه سيارتها..

بهدهوءٍ تام. خطا إبراهيم نحو نقاله المرمي على أرضية القاعة. أمسك به ووجه ضياء مصباحه نحو جثة ديفيد ايتان. كانت عينا الجثة ما تزالان مفتوحتين. فيما تعرج خط الدم من جانب جسمه. استدار إبراهيم مسكاً بالصندوق الفضي. وهم بالخروج من القلعة مردداً..

شيفح لهستوريا.

”أيها الرب. لا تدعه يضيع!“..

ردد كبير الطائفة وهو يقبض على لحيته وقد ربط شريطاً أسوداً من الجلد على ذراعه. وراح رأسه يتمايل وعيناه تدمعان. فيما طأطأ العجائز الآخرون رؤوسهم من حوله..

”هذا أمل الأرض كلها أيها الرب. لا تدع وعدك يتأخر أكثر. آه يا عمان كم قلبي يحترق. آه يا بابل كم قلبي يحترق. آه يا ناحام كم قلبي يحترق..“..

كان ينشج بهدهوءٍ ودموعه تنسرب على لحيته البيضاء. فيما راح شيمون يحاول تهدئته.

”لنضع ثقتنا بالرب أيها الكبير. ولتكن مشيئته.“

رد كبير الطائفة: ”يا شيمون. إن بي له شوقاً كشوق يعقوب ليوسف. وكشوق موسى للقاء ربه على الجبل. شيمون قلبي يذوب..“..

”لننتظر أيها الكبير. ليس بأيدينا سوى أن ننتظر وندعو الرب“..

وضع العجوز جبهته على يده المسكبة بعصاه. وراح كتفاه يهتزان لعمق بكائه..

بسرعة، أطلقت كلارا ساقها للريح تحت المطر خارجةً من قلعة الكرك، وبعد مسافة قصيرة وفي شارع ذي أرضيةٍ تزداد انخفاضاً، استدارت إلى اليمين حيث الباحة التي تركت بها سيارتها. كانت قدمها تخرقان أحشاء المياه المتصاعدة على الأرض، فيما نقع شعرها وملابسها بما هوى من مياه السماء، أخفت مسدسها بسرعة تحت سترتها القصيرة وقد انقطعت انفاسها من التعب، وعندما برقت السماء بوميضٍ آخر، لمع على يمينها تمثال صلاح الدين على حصانه وقد بدأ مُرعباً..

أخرجت كلارا مفتاح سيارتها الكهربائي وفتحت الباب، اعتلت المقعد واستقرت بداخلها..

شعرت بهدوءٍ فظيعٍ يخترقه خيط من الصفير في آذانها، كانت يداها ترجفان لما مربها، لقد قتلت ديفيد ايتان للتو، وكادت تقتل إبراهيم، وفقدت الرقيم بنصفه لصاحبه..

تنفست بعمق محاولةً تهدئة نفسها، ثم مدت يدها أسفل المقعد لتفحص حقيبة المال، أغمضت عينيها بارتياح..

ما زالت هناك..

بدأت أنفاسها تهدأ شيئاً فشيئاً، وضعت إصبعها على مفتاح تشغيل السيارة، وقبل أن تضغط، التفتت إلى اليسار للتأكد من عدم خروج إبراهيم من القلعة، فلعل أنوار سيارتها ستجذب انتباهه، لم يكن تحت بقعة الضوء الأصفر في نهاية الشارع أثر لإبراهيم، بل لم يكن في الشارع غير سيول المياه المتجمعة كأسراب النمل، ضغطت على مفتاح التشغيل، وغيرت ناقل الحركة، وانطلقت باتجاه الخروج من مدينة الكرك..

بعد دقائق. كان إبراهيم قد خرج بخطواتٍ متزنة من القلعة غير عابئ بسيل المطر الذي انصب على رأسه. توجه إلى الزقاق المجاور حيث ترك سيارته الحمراء. استقلها بهدوء وأدار محركها واضعاً الصندوق الفضي على المقعد المجاور..

نظر إلى ساعة يده: الثالثة والنصف بتوقيت عمان..

ساعتان ونصف على إبحار ستاركيت.

الفصل 70

في غرفة ناحام بتل أبيب. رن الهاتف المحمول بنغمة التطبيق الخاص.

إبراهيم يتصل بك.

أجاب العجوز فوراً: «إبراهيم؟»..

رد الشاب على الطرف الثاني: «سيدي ناحام، النصفان بحوزتي»..

شعر ناحام بأن قلبه بدأ يخفق سريعاً..

«أنت جاد؟»..

«بلى سيدي، أنا الآن في طريقي إلى ميناء العقبة، لقد تأخرت حتى الآن. أمامي ساعتان ونصف لأبلغ ستاركيت. يجب أن اقود بسرعة عالية رغم أن الأجواء سيئة للغاية»..

«إبراهيم، كيف حصل هذا!»..

«لقد قتلت كلارا عميل السويسريين سيدي ولا أعرف لماذا، أنقذها مني ثم قامت بقتله، ومنها استوليت على صندوق الرقيم وهو بحوزتي الآن، ما زالت هي طليقة»..

أطلق العجوز زفرة ارتياح، ثم قال بصوته الأجش: «استعد للهروب من الأردن إبراهيم، لا يجب أن تفوتك ستاركيت، كلما تأخرت كلما ازداد الأمر تعقيداً، الطريق إلى هناك طويل، لكنه فارغ من السيارات الآن»..

«وماذا عن كلارا سيدي؟ هل تظن أنها ستستسلم؟»..

«اعتمد عليك الآن بأبصال الرقيم إلى تل أبيب عبر ستاركيت، كلارا وما تفعل هو شأنك»..

”حسناً سيدي..“، وسحب إبراهيم نفساً ليكمل: ”قريباً ستراني أقول: شيفح لهستوريا..“

ابتسم ناحام دون أن يتكلم لوهلة، ثم قال: ”ليحفظك الرب..“

بعد دقائق، رن الهاتف المحمول لدى كبير طائفة القاباليين..

”سيدي..“، قال شيمون مسكاً الهاتف، ”إنه ناحام!..“

رفع كبير الطائفة عينيه وقد ارتجفت شفثاه، كان يبدو كمن يتشبث ببصره بالأمل المعقود على الطرف الآخر من المكالمة، وبصعوبة وبطء، قال: ”أجبه يا شيمون!..“

فتح الرابي شيمون الخط واستمع لما قاله ناحام، كان كبير الطائفة يستمع إلى لغط يصدر من الهاتف لشدة هدوء الغرفة، إلا أنه أبصر بريقاً بعيني شيمون ونظرة نحوه..

أغلق الأخير الاتصال مع ناحام، ثم نظر إلى كبير الطائفة وقال:

”تكملة الزوهار بيد عميل ناحام الآن!..“

تهلل وجه كبير الطائفة فرحاً، وانهمرت الدموع على خديه، فيما ضجت الغرفة بتهاليل ودعوات العجائز سروراً، وتصاعدت الأيادي نحو السماء، ثم نظر العجوز الكبير إلى رفاقه وقال: ”اتصلوا بكافة أعضاء مجمع رؤساء الطوائف الآن، في هذا الليل، حريديين وقاباليين، ليحضروا إلى مكان اجتماعنا قبل أن تبزغ الشمس، علينا أن نعلن انتصار القابالا على الحريديم، ونخبر العالم اليهودي، بأن كتاب الزوهار أصبح على وشك الاكتمال..“

كانت كلارا تضغط دواسة الوقود بشدة جعلت سيارتها ذات الدفع الرباعي تنطلق كالسهم تحت الأمطار على طريق خارجي خالٍ من الحركة. شعرت بأن عواطفها قد أصبحت متجمدة تماماً بعد ما حدث هذه الليلة، وأحست بأن وجهها خالٍ من المشاعر وهي تقود السيارة وسط الظلام. استذكرت ما قامت به هذه الليلة واليوم الذي سبقها. كيف التقت بناحام في بيته ودار بينهما الحديث الطويل عن سبب تعلقه بذلك الرقيم. وكيف أنها ذهبت لتسلم نصفه الثاني من عماد الحسين. فأردته قتيلاً بعد أن حصلت على المال منه. استذكرت أيضاً كيف خدعت إبراهيم بزيارتها لشقيقته. وكيف جردته من النصف الأول. لتنتقل في سلسلة مطارداتٍ معه ومع ديفيد ايتان الذي أردته قتيلاً هو الآخر قبل دقائق..

أخيراً. عاود مضمون البريد الإلكتروني الثاني الظهور أمام عينيها. واستذكرت كل ما جاء فيه..

في مكانٍ آخر. كانت البي أم دبليو الحمراء تطير تحت المطر باتجاه منطقة العقبة الواقعة على مسافة ٢٤٢ كيلومتراً من الكرك. عاود إبراهيم النظر إلى ساعته. لم يبق سوى أقل من ساعتين وربع على إبحار ستاركيت..

الفصل 71

في مكتبها بمركز الاتصالات بعمان. كان مشاعر الجوع والنعاس والخوف تطوق لبنى من كل جانب. لقد نفذت طاقتها كلها وهي تجلس خلف ذلك المكتب الرتيب. وحامت عواصف الأفكار المخيفة في ذهنها حول ما تسلمه رجال الأمن من تسجيلات وسجلات مكالمات عماد الحسين المقتول. وفي كل مرة تفكر في ما يمكن أن يحدث. وما يصنعه ذهنها من احتمالات وافتراضات. كان شعورٌ بالمغص يراودها كنبوية من العصر الشديد. أحست بأنها تقف لوحدها كبريشة بوجه عاصفة هوجاء كعاصفة الليلة التي تعصف بعمان. وفكرت بأنها قد دخلت نفقاً مظلماً لا تعرف إن كان سينتهي..

فجأة، رن هاتفها المحمول برسالة تحمل اسماً من حرف واحد...

..ن

فتحت لبنى الرسالة سريعاً. وتفاجأت بما كُتِبَ فيها:

(لبنى، شكراً لمساعدتك، يمكنك الذهاب للمنزل. أبعث أجوركما لاحقاً.)

راود لبنى شعورٌ بالارتياح والخوف في آن واحد. فقد انتهت مهمتها في هذه الليلة الطويلة لصالح العمل لناحام. وصار بإمكانها الحصول على قسطٍ من النوم في فراشها. إلا أنها تلمست مشاعر الخشية من كون ناحام لن يدافع عنها إن حدث لها أي مكروه. فيبدو أن العجوز قد حصل على كامل ما يريد...

تخطت كل تلك الأفكار بسرعة. ونهضت من منضدتها باتجاه الغرفة المجاورة حيث يجلس زميلها. أخبرته بما تسلمت من رسالة. نظر إلى الساعة المعلقة على الجدار أمامه وقال:

”لم تنته مناوبتك هنا بعد. لكن الاتصالات أصبحت أخف. بإمكانك المغادرة“..

هزت لبني رأسها. وعادت لحمل حقيبتها لتتجه إلى الباب. وبعد أن تجاوزت الزجاج الضبابي. اعتصر الرعب قلبها لما رآته من عودة رجال الأمن للانتشار في الممرات. وعلى رأسهم ضابطٌ برتبة عميد..

خلال دقائق متفارية. كانت الهواتف المنزلية والنقالة في بيوت شيوخ مجمع رؤساء الطوائف ترن جميعاً. صحا العجائز كل من سريره ليردّ على الاتصال الليلي الغريب الذي أتاه. كان أحدهم يطلب منهم الاستعداد لاجتماع هام في مقر المجمع بعد السادسة و النصف صباحاً. وأبلغهم بضرورة إبلاغ زملائهم ونشر خبر الاجتماع. كان شيمون ورفاقه يتصلون على الأعضاء واحداً بعد واحد في تلك الساعة المتأخرة لإبلاغ أعضاء المجمع بالموعد..

في نصف ساعة. كان الخبر قد وصل إلى كافة أعضاء المجمع. وأصبح عليهم الاستعداد لذلك الاجتماع الغريب..

"هل كل شيء يجري بشكله السليم؟". قال الرابي كبير الطائفة.

"بلى سيدي. أصبحوا جميعاً متيقنين من أن الدعوة قد جاءت منا. نحن القباليين .."

هز العجوز رأسه وقال بصوت مرتعش: "ليرحمنا الرب من مواجهة هذا الصباح!"..

"آمين!". رد شيمون مطأطأً..

باريس..

شعر ميشيل بأن ذهنه قد عاود امتصاص الطاقة من جديد بعد غفوته القصيرة وأكله للسندويج الذي جلبه روند. عاد ليرتدي قفازاته ويقف أمام الرقيم من جديد..

”هل عثرت على مفتاحٍ له حين كنتُ خارجاً؟“ قال جاك روند وهو يضع نظاراته.

”كلا جاك، لو فعلتُ لوجدتني أرقص فرحاً هنا“.

”لا تقلق ميشيل، سنقوم بتصويره وخليه قبل أن يعود للسيد شوفنمان“.

”لا، أريد عرضه بكتلته هذه عندما نتوصل إلى حل الشيفرة العجيبة التي يحملها. سيكون ذلك أعظم“..

”اتفق معك. لكن الكارثة هي أنه لا يريد مساعدتنا. على الأقل يجب أن نتخلى عن استعجالنا بحله“.

”تشجع جاك. ولنواصل القراءة“..

هز روند رأسه وأمسك قلمه ودفتر ملاحظاته. وانتقل الاثنان إلى الأسطر التالية:

في مكانٍ للقسي والرماح..

يتقاتل المحاربون..

للغرباء وجوهٌ كثيرة..

بعضهم يموت..

وبعضهم يسرق السفينة إلى طوفانٍ من ظلام..

لم ينبس ليون أو ميشيل بكلمة وهما يقرآن تلك الكلمات. بل شعرا باستشراء اليأس في قلبيهما كبقعةٍ من الخبز.

نظر ميشيل لروندي. سحب نفساً وأطلقه ثم قال:

«جهودنا تذهب هباءً جاك! هباءً!..»

داخل القاعة الكبيرة في قلعة الكرك. كان صوت الشلال الصغير ما زال متواصلاً بخيرير مياهه الهاوية من سقف القاعة إلى الأرضية الطينية. فيما تقاطع معه صوت نغمة نقال ديفيد ايتان المرمي إلى جوار جثته.

مضى نحو ساعةٍ مذ انتهى آخر اتصالٍ بين ديفيد وكارين. وهاهي تتصلُّ على هاتفه ولا تحصل منه على رد.

«ديفيد مدربٌ جيداً كارين. لا تقلقي. المهم أنه وصل إلى الفتاة». قال المدير وارتشف بعضاً من قهوته.

«لا أيها المدير. لا يفترض أن يتأخر هكذا. سأتصل بسائقه. يجب أن يكونا معاً الآن أو أن بينهما اتصالاً»..

هز المدير رأسه وهو غير واثق من ثقته بسلامة ديفيد هذه المرة رغم ما قاله لكارين تواءً..

رن الهاتف لدى السائق. وأجاب فوراً..

«أين أنت؟». قالت كارين.

«في طريقي إلى المنزل. لقد أخبرني ديفيد أن علي الذهاب»..

شعرت كارين بدقات قلبها تضطرب، وتضاربت السيناريوهات في رأسها..

هل سرق ديفيد الرقيم؟

”منذ متى حصل ذلك؟“.

في الساعة الثالثة والرابع تقريباً، لماذا؟ هل حصل مكروه؟“، قال السائق.

”لم يتصل ديفيد منذ آخر اتصالٍ بيني وبينه، حاولتُ الاتصال به لكنه لا يرد“.

”أؤكد لك سيدة شخصيتليه أن ايتان أخبرني بأن علي المغادرة، لقد كان صوته مرتاحاً“.

”اسمع، عليك أن تعود لقلعة الكرك فوراً، ابحث عنه، تحقق من موقعه، لقد اختفى ديفيد! أسمع؟“، قالت كارين ذلك وقد فقدت السيطرة على أعصابها..

”حسناً لا بأس، لكن ذلك بحاجةٍ إلى الوقت، نصف ساعة على الأقل من الآن للوصول إلى هناك، ما الذي تفكرين فيه سيدة شخصيتليه؟“.

”لا أعلم، اتصل به، حاول العثور عليه، ديفيد يختفي، افعل شيئاً“..

”فهمت، ساستدير عائداً إلى القلعة فوراً“..

في تلك الأثناء، كانت البي أم ديبيلو الحمراء تشق طريقها تحت وابل المطر جنوباً إلى منطقة العقبة، وبينما كانت ماسحات المطر تخفق المياه عن زجاج السيارة الأمامي، حاول إبراهيم تذكر ما جرى له في قلعة الكرك، كان آخر ما يتذكره هو أنه تصارع مع عميل السويسريين بضراوة، وكاد أن يقتلع عينيه بأصابعه، تذكر كيف كانت حربة ديفيد الملتوية قريبةً من متناوله تحت مياه الشلال الصغير، عاود

التفكير بما كان قد يفعله لو أنه تمكن من التقاطها. وتساءل في نفسه..

هل كان سيظعن بها ديفيد ايتان فعلاً؟

ورغم أنه لم يفعل، إلا أنه فكر بما قام به من ضغطٍ بشدة على عيني ديفيد، لقد كان مستعداً لقتله بين أصابعه، لولا أنه فقد الوعي فجأةً بضربة على رأسه لم يستطع التفكير بكيفية حدوثها في حينها لفقدانه الوعي فوراً. لكن السؤال الذي راوده وهو يتذكر، لماذا لم تقتله كلارا واكتفت بضربه؟

بل لماذا تركته يذهب مع الرقيم دون أن تقتله وتستولي عليه منه؟

فكر في أن الفتاة ما زالت لديها بعض الثوابت الأخلاقية في التعامل مع خصومها، أو أنها اكتفت بخيانة ناحام دون أن تفجعه بقتل عميله الأهم، هو، وبعد استنتاجاتٍ عديدة، وجد إبراهيم نفسه حائراً أمام سبب ترك كلارا له ليعيش، لكنه فكر في النتيجة النهائية، ما زالت حياً، والرقيم بحوزتي..

ولتذهب الفتاة إلى النار!

رفع صوت الموسيقى في السيارة وهو يقودُ بسرعة باتجاه الميناء، وكلما رأى لافتةً تحمل رقم المسافة المتبقية نظر إلى الصندوق الفضي على المقعد المجاور وقال في نفسه:

”ثيفح لهستوريا!..“

الفصل 72

في طريقٍ خارجيٍ خالٍ إلا من حركة بعض السيارات القليلة. كان الضياءُ لم يبزغ بعد.

شقت السيارة السوداء ذات الدفع الرباعي طريقها على التعبيد بسرعة جنونية غير عابئةٍ بكمية المطر الهاوية من السماء. كان الزجاجُ الأمامي يرتطم بقطرات المطر الكبيرة لينتشر متحولاً إلى رذاذٍ متطاير بانتظار خفقة ماسحات المطر اسندت كلارا رأسها على المقعد وما زالت تشعر بضيقٍ في صدرها..

لقد حصل إبراهيم على الرقيم. فيما لم يبقَ معها غير حقيبة الدولارات..

تفحصت المسدس الكاتم للصوت على يمينها. رفعته بيدها لتتحسس وزنه الخفيف بعد أن تركت مخزن الرصاص يهوي عند قدمي إبراهيم. لم تبق إلا رصاصة واحدة في حجرة النار. رمت المسدس جانباً وعلت شفيتها نصفً ابتسامة. حين عاودت ذكرياتها في مكتب ناحام الطفو أمام عينيها من جديد..

تذكرت كلارا تلك الأغنية الكئيبة التي كان ناحام يشغلها في كومبيوتره ليلة تعريتها في مكتبه. كانت تلك أغنية فرانك سيناترا (I did it my way). ومنذ تلك الليلة. كلما استمعت لتلك الأغنية. تخيلت أن ناحام هو من كان يغنيها بنفسه. فهو يمتلك الصوت الرخيم العميق نفسه. وإلى اليوم. لم تستمع لأغنية كلاسيكية أمريكية إلا وشعرت بالضيق. لما تركته تلك الليلة والليالي التالية معه من كراهيةٍ في نفسها..

لم يبدُ أن السماء ستهدأ مع الصباح. ورغم قلة النوم. بقيت عينا كلارا متيقظتين على الطريق والمطر. إلى وجهتها الجديدة..

في غرفة كبير طائفة القباليين. كان حواژ معممٌ يجري بينه وبين الشيوخ الأربعة. لقد بدأ العجوز يناقش معهم كيفية إخبار مجمع رؤساء الطوائف بعثور القباليين على تكملة الزوهار. هكذا سنفاجئهم، وهكذا سننتصر. بدت وجوه الشيبة الأربعة سعيدةً وقلقةً في الوقت ذاته. فيما راحت شفاه كبير الطائفة تسرد ببطء ما يجب أن يكون فجر هذا اليوم. سيحضر ناحام معنا. وسيكون يوم انتصار الطائفة لفكرها وعقيدها. يجب أن يتغير التاريخ فجر هذا اليوم. ويجب أن يدرك الحريديون أن فكرتهم بترك الماشاح للمجيء بأي وقت هي فكرة خاسرة. فملاقة الرب بمساعدة الزوهار هي أمر يجب أن يحدث..

في الزقاق ذاته قريباً من قلعة الكرك. ترك السائق سيارته وخطا مسرعاً إلى داخل القلعة. بدا له أن القلعة صماء تماماً إلا من صوت خرير المياه في زواياها المظلمة. دخل إليها باحثاً عن ديفيد ايتان وفق رغبة كارين. كان ينير الطريق في الدهاليز المعتمة بمصباح التقطه من سيارته على خطى الخارطة التي أرسلتها له شخيتيليه كنسخة من تلك التي بعثت بها لديفيد حين ضل الطريق بين مرات وأروقة القلعة. وبعد أن فتش الطوابق الأرضية من المبنى. وجد نفسه أمام السلم المؤدي للقاعة الكبيرة في الطابق الأعلى..

خطا الشاب على السلم العتيق صاعداً. وحين بلغ مدخل القاعة أنار بمصباحه ما حوله. ليكتشف نفسه واقفاً في قلب مكان كبير الحجم وذو سقف عال. فيما انهالت مياه المطر من السقف كشلال صغير إلى الطين في الأرضية. إلا أنه وبعد ثوان. ركز نظره نحو بقعة معتمة على الأرض. اقترب منها ليدرك ما كانت منه. وحين انعكس الضوء عليها. بدت وكأنها دماءً حاول التراب والرمل امتصاصها بصعوبة. تابع السائق خط الدم الهائج. ليرى في نهاية القلعة جثة ديفيد ايتان مزرجةً بدمائها..

بسرعة، أخرج السائقُ هاتفه المحمول ليتصل بكارين. ثوانٍ ورَّنه الهاتفُ في مركز جنيف..

”ماذا تقول؟“، قالت كارين وقد شعرت بقلبها يرتجف..

”هاهو أمامي كارين، لقد أصيب بالرصاص في صدره، وألقي هاتفه المحمول إلى القرب منه!“. كان السائقُ يشرح بذعرٍ ما يراه أمامه عبر الهاتف..

لم تستطع كارين تمالك أعصابها. بل فتحت السماعة الخارجية للمحمول ليستمع مدير المركزِ إلى ما يقوله السائق..

”علي أن أخرج من هنا قبل أن يبزغ الفجرُ كارين..“

”توقفا!“. ردت شخيتيليه بصوتٍ مرتجف، ”لا يجب أن يعثر الأردنيون على جثة عميلنا، علينا أن نفكر بهدوءٍ وبسرعة!..“

إلا أن المدير صاح غاضباً: ”أغبياء! ذهب كل تدريبنا هباءً!..“

”ليس وقت الجدال أيها المدير!“. صاحت كارين، ”لنجد حلاً قبل أن تتطور المشكلة..“

”قلت لكم لا يمكنني البقاء هنا أكثر من هذا، سأغادر القلعة فوراً سيده شخيتيليه، جدوا الحل بأنفسكم!“. قال السائقُ وهو يهمم بالتقاط هاتف ديفيد من الأرض قبل أن يدسه في جيبه..

كان صوتُ خرير المياه يعبئ آذان السائق، إذ لم يُفسح له المجال سماع صوت أقدام رجال الدرك الأردني وهم يصعدون السلم باتجاه القاعة وقد أشهروا مسدساتهم باتجاه مصدر النور الصادر من مدخل المكان..

رن الهاتفُ المحمول في غرفةٍ ناحام بتل أبيب.

”ناحام!“، قال صوتٌ مرتجفٌ على الطرف الآخر.

”نعم سيدي!“، أجاب وقد اعتدل في جلسسته.

”عليك أن تستعد للإشهار العظيم هذا اليوم، لقد قمنا بالاتصال بكل أعضاء مجمع رؤساء الطوائف وأبلغناهم بأن اجتماعاً هاماً يجب أن يحدث هذا الصباح.. في السادسة والنصف..“، سعل العجوز كبير الطائفة قصيراً وأكمل: ”أريدك أن تكون هناك، معنا، لتخبرهم كيف أرادت عناية الرب أن تنجي تكملة الزوهار رغم ما جرى له من مصائب مذ خرج من أرض بابل..“.

تنحج ناحام ثم قال: ”كما تشاء أيها الرابي الأكبر، سأكون هناك، وسنعلن لكل اليهود والعالم أن زوهارنا المقدس في طريقه للاكتمال!“.

”بارك الرب بك يا صديقي، إنهم الآن في عجبٍ من أمرهم، فقد أصبحناهم جميعاً بكل طوائفهم من نومهم الشتائي هذا، سيرون أنه يستحق الخبرُ هذا اللقاء العظيم..“.

”سأكون بينكم أيها الكبير، بل ومن أول الواصلين..“.

أغلق كبير الطائفة الخط، ووضع ناحام هاتفه جانباً، قبل أن يتلمس خيطَ القابالا الأحمر الملتف حول معصمه..

الفصل 73

”قفا!..“

صاح أحد رجال الأمن الأردني..

شعر السائق بصدمةٍ جمدت الدم في عروقه كلها. أغلق الحظ مع كارين بهدوء. واستدار إلى الوراء والمصباح في يده..

”الق بالمصباح فوراً!..“

رمى مصباحه وقد سطعت مصابيح رجال الأمن في عينيه. واقترب العناصر المسلحون منه بحذر. ثوانٍ وكان السائق مطروحاً على وجهه في تراب القاعة. بالقرب من جثةٍ ديفيد ايتان..

”تلك هي الجثة سيدي!“ قال رجلٌ خمسيني يرتدي الملابس المدنية. ثم أكمل: ”لقد دخلت القلعة قبل ربع ساعةٍ لاتفقدها قادماً من منزلي القريب. ذلك روتيني اليومي في تفقدها كل ليلةٍ كحارسٍ للقلعة. وأثناء ذلك. صدمتُ لرؤية ذلك المقتول.“

”حسناً..“ قال ضابط القوة. ”ستأتي معنا لتدوين الإفادة“..

وضع الضابط مسدسه في قرابه. بينما أعطى الأوامر لباقي العناصر باقتياد المعتقل إلى سيارة الشرطة في الخارج. قبل أن يقترب من جثة ديفيد منيراً وجهها بمصباحه..

نظر إلى عينيه وتمتم مع نفسه..

”إذن.. هي ليلة الاغتيالات الغامضة!“..

الخامسة والنصف فجراً..

نصف ساعة على إبحار ستاركيت..

في المرآب الخارجي لميناء العقبة، توقفت البي أم دبليو الحمراء وقد تغير لونها إلى
القهوائي الداكن بفعل الطين والوحل..

نظر إبراهيم إلى ساعته من جديد، لقد وصل في الوقت المناسب بسبب سرعته
الجنونية في القيادة من الكرك إلى هنا، فكر قصيراً بعدد الغرامات التي جرى
تسجيلها على مركبته، وأنهى تفكيره ذلك بضحكةٍ قصيرةٍ مستخفة..

التقط الصندوق الفضّي من المقعد المجاور، وترجل من السيارة..

باتجاه مدخل الميناء..

قريباً من ذلك المكان وحتّ أضواء المصابيح الصفراء الكبيرة، كانت السفينة
ستاركيت راسيةً على الرصيف البحري ككتلة من الفولاذ الهائل المتدرج بطوابقٍ
شبيهةٍ بالجنان المعلقة، إلا أنها كانت بيضاءً بالكامل. عدا خطوط علم اليونان
الزرقاء المرفرف فوقها مصارعاً مياه المطر، ومتلاوياً مع عواصف البحر العنيفة
والحادّة البرودة..

دخل الشاب إلى المبنى الخاص بانتظار المسافرين، مر بعدة محطات بين مكاتب رجال
الأمن والموظفين هناك، ولم يبدُ لهم أبداً أنه يحمل حقائب سفرٍ أو أغراض..

عدا الصندوق الفضّي الذي في يده..

تجاوز إبراهيم آخر الحواجز داخل المبنى بسلام، وجلس في قاعة الانتظار..

ستطلق ستاركيت صافرة الانطلاق قريباً..

كان زجاج الشبابيك في ذلك المبنى يبدو وكأنه يهتز لشدة العواصف والمطر في الخارج. بدا الجو كئيباً ومظلماً. فيما تعالت أصوات بعض أطفال المسافرين بالبكاء المزعج لأذان إبراهيم. وبدا أن الرحلة ستكون عاصفةً بين أمواج البحر الأحمر المتلاطمة تحت عاصفة سماوية شديدة الاحتقان..

بدأت الساعة مشيرةً إلى الخامسة وخمسين دقيقة. وبانت في وجوه المسافرين الخشية من تأجيل انطلاق الرحلة بسبب الطقس.

شعر إبراهيم ببرودة المقعد المعدني من تحته. وضع الصندوق الفضي على فخذه وأمسك به بإحكام. فيما تدلت ميدالية سيارته البي أم دبليو من جيبه كبندول ساعة عتيقة. دقائق من الانتظار، وجلست بجانبه فتاة ثلاثينية تشع ضياءً.

”يكفي ذلك. سنكمل التحقيقات غداً. يمكن لبعضكم المغادرة“. قال العميد عبد الله مصطفى لزميله الضابط برتبة نقيب وهو يفرك عينيه لشدة التعب. ترك النقيب جهاز الحاسوب وخلع السماعات عن رأسه.

”سيدي. مجموعة الاتصالات التي أجراها عماد الحسين كانت مكثفةً قبيل مقتله. ويبدو أن شبكة الأشخاص الذين اتصل بهم في يوم اغتياله تمتد إلى خارج حدود المملكة“.

”نعم أرى ذلك. يجب أن يتم تحليل ذلك بالتفصيل لكن ليس الآن. إضافة إلى أننا يجب أن نستمع لكافة تسجيلات المكالمات التي حصلنا عليها“. أجاب العميد وهو يمسح سطح بيريته.

”قسط من الراحة لهذه الليلة. وسنحل الشيفرة غداً“. قال النقيب وهو يطفىء جهاز الحاسوب.

”يجبُ أن لا يثار الموضوع إعلامياً على الأقل لما بعد الغد. ففي ذلك حرجٌ للأمن الأردني. اقتصاد البلاد متوقّفٌ على أمنها“.

سحب النقيب نفساً وهو يرفع حاجبيه. قبل أن يرن الهاتف المحمول للعميد عبد الله..

”نعم؟“.

”سيدي. تم العثور على جثة شخصٍ يدعى ديفيد ايتان..“.

وقبل أن يرد العميد. أكمل المتصل: ”داخل قلعة الكرك!..“.

اتسعت حدقتا العميد وهو ينظر إلى النقيب الذي استغرب تغير ملامحه. أكمل المتصل: ”اعتقلنا شخصاً آخر كان موجوداً في مسرح الجريمة“..

”فهمت!“. أجاب العميد..

”خذوه للتحقيق فوراً“.

الفصل 74

”متى ستبحرُ التايتنك؟“. فاجأت الفتاة إبراهيم بسؤالها وهي تقوله متأففة.

التفت إليها فوراً. كانت ترتدي معطفاً صحراوي اللون وقد انسدل شعرها البني من فوقه. فيما تركت حقائب سفرها عند قدميها.

”يبدو أن الطقس يؤخر الإبحار“. أجاب وأنظاره تصطدم بجسمها كوهج أعواد اللحم.

”ذلك ممل“. أزاحت شعرها عن رقبتها وأكملت. ”أفضل الطرق لقتل الوقت هو افتعال الحديث مع الغرباء“.

”من أين أنت؟“.

”من السلط“.

”وإلى أين تذهبين؟“.

صمتت الفتاة قليلاً ثم أجابت: ”إلى وجهة السفينة الأولى“.

”اليونان!“.

”بلى“. قالت. ثم نظرت إلى عينيه وسألت: ”ما اسمك؟“.

تردد إبراهيم قليلاً في الجواب. لكنه أفصح عن اسمه في النهاية.

”وأنا فاطمة“.

”حسناً فاطمة. يبدو أنك تسافرين لوحدك“.

”لا أحب الشتاء في الأردن. لدي كراهية للبرد. كما أن البلاد تشعر ببعض الملل“.

”وكم ستبقين هناك؟“. قال. وأردف: ”في اليونان أقصد؟“.

”أسبوعان، ثم أنتقل لإيطاليا لاحقاً لاسبوع واحد، أوريا بقعة رائعة“.

شعر إبراهيم بأن الحديث يدور في المحاور العامة فحسب. فيما قد تطلق ستاركيت صافرتها بأية لحظة تجعل من كليهما مفترقاً عن صاحبه في حجرتين منفصلتين.

”هل تمنعين اللقاء على متن السفينة؟ فالرحلة طويلة إلى هناك“.

”كم رقم غرفتك؟“.

أحس الشاب ببعض الإثارة، إلا أنه تذكر أنه في مهمة خطيرة.

”لن تمنعي أن أزورك إلى حجرتك، صحيح؟“.

رمقت فاطمة عينيه وهي تستشعر كونه شديد الحذر، ثم مدت يدها في جيب معطفها مخرجة ورقة الحجز، نظرت إليها قصيراً، ثم أشهرتها أمامه، ”٣٥٤“.

”حسنًا، يبدو أنها ستكون رحلة مثيرة!“. قال إبراهيم وهو ينظر إلى عينيها البنيتين.

”مم، حسنًا، تبدو كذلك“..

وقبل أن يجيب إبراهيم بالمزيد من الذي ما زال محشوراً في دماغه، أطلقت ستاركيت صافرتها الأولى معلنة بدء الركوب على متنها. في تمام السادسة وسبعة عشر دقيقة صباحاً..

**

في غرفته بتل أبيب، كان ناحام يقرأ ترانيلاً من كتاب التوراة الصغير بيده، وقد انثالت من شفثيه كلمات سفر حزقيال بأصحاحه الأول..

”كَانَ فِي سَنَةِ الثَّلَاثِينَ. فِي الشَّهْرِ الرَّابِعِ. فِي الْخَامِسِ مِنَ الشَّهْرِ. وَأَنَا بَيْنَ الْمَسْبِيِّينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ انْفَتَحَتْ. فَرَأَيْتُ رُؤْيَ اللَّهِ. فِي الْخَامِسِ مِنَ الشَّهْرِ. وَهِيَ السَّنَةُ الْخَامِسَةُ مِنْ سَبْيِ يُوْيَاكِينَ الْمَلِكِ. صَارَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَيَّ حَزَقِيَالَ الْكَاهِنِ ابْنِ بُوْزِي فِي أَرْضِ الْكَلْدَانِيِّينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ. وَكَانَتْ عَلَيْهِ هُنَاكَ يَدُ الرَّبِّ..

فَنظَرْتُ. وَإِذَا بَرِيحٌ عَاصِفَةٌ جَاءَتْ مِنَ الشَّمَالِ. سَحَابَةٌ عَظِيمَةٌ وَنَارٌ مُتَوَاصِلَةٌ وَحَوْلُهَا لَمَعَانٌ. وَمِنْ وَسْطِهَا كَمَنْظَرِ النَّحَاسِ اللَّامِعِ مِنْ وَسْطِ النَّارِ..“

أَغْلَقَ الْعَجُوزُ عَيْنَيْهِ. وَرَاحَ يَتَخَيَّلُ شَكْلَ الرَّبِّ كَمَا وَصَفَهُ حَزَقِيَالَ. حِينَ سَرَدَ بِسَفَرِهِ ذَلِكَ هَيْئَتَهُ حِينَ رَأَاهُ. كَانَ ذَلِكَ فِي رِحْلَةِ السَّبْيِ عَلَى يَدِ جَيْشِ نَبُوخَذَنْصَرَ الْغَازِي وَقَدْ بَلَغَ السَّابِقُونَ بِهِ وَبَشَعِبَهُ نَهْرَ الْخَابُورِ..

أَغْلَقَ الْكِتَابَ الصَّغِيرَ فِي يَدَيْهِ. وَنَظَرَ إِلَى لَوْحَةِ أُورُشَلِيمَ الْمُحْتَرِقَةِ عَلَى الْجِدَارِ. وَقَدْ رَاحَتْ أَصَابِعُهُ تَتَلَمَّسُ الشَّرِيْطَ الْأَحْمَرَ حَوْلَ مَعْصَمِهِ..

فِي قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ فِي مَكَانٍ مَا مِنْ تَلٍّ أَيْبٍ. دَخَلَ الْعَجَائِزُ الْكِبَارُ بِلِحَاهِمِ الطَّوِيلَةِ إِلَى اجْتِمَاعٍ مَجْمَعِ رُؤَسَاءِ الطَّوَائِفِ الَّذِي دَعَا لَهُ كَبِيرُ طَائِفَةِ الْقَابَالِيِّينَ. كَانَتْ وَجُوهُهُمْ مُمْتَعِضَةً بِسَبَبِ صَحْوَتِهِمُ الْمَبْكِرَةِ تِلْكَ. بَدَأَ الْمَكَانُ يَعْجُ بِأَصْوَاتِهِمُ الْمَبْحُوحَةِ وَكَلَامِهِمُ الْمَرْجُفِ. فِيمَا عَلَتْ شَاشَةٌ كَبِيرَةٌ الْجِدَارِ الْأَمَامِيِّ. وَمِنْ خَتِّهَا لَمَعَتِ الْمِينُورَا الْكَبِيرَةُ مَوْضُوعَةً عَلَى طَاوِلَةٍ خَشَبِيَّةٍ قَدِيمَةٍ. وَقَدْ عَلِقَتْ بِجَانِبِهَا لَوْحَةٌ كَتَبَ عَلَيْهَا (ادُونَايِ اصْبَاؤْتُ اَلْ شِدَايِ - اللَّهُ رَبُّ الْجَنُودِ).

جَلَسَ الْعَجَائِزُ فِي أَمَاكِنِهِمْ وَهُوَ يَرْمِقُونَ الْقَابَالِيِّينَ بِنَظَرَاتِ الْاِنْزِعَاجِ. وَقَدْ بَدَأَ التَّطَلُّعُ فِي عَيُونِهِمْ لِسَبَبِ هَذَا الْجَمْعِ الْعَاجِلِ..

”يا إخوتي!“..

قال كبير طائفة القباليين عبر الميكروفون أمام الجالسين. وهدأت الأصوات فجأة..
”دعوتكم وأنا متأسف لإفزازكم في هذه الليلة من الشتاء. لكن الحيوانات قصيرة
ويد الرب أطول. فلعلي لا أعيش لغدي الآتي. ولعل أحدكم سيسبقني إلى لقاء
الرب فلا يشهد ما دعوتكم لتعلموه“..

تبادلَ عجائز المجمع نظرات الاستغراب. وعلت دمدمةً مكتومة من بين مقاعد
الجالسين..

”إن الرب لغاضبٌ لما يراه ما يجري في هذا العالم. وإننا جميعاً نحسُّ بالألم لما يلحق
بنا - نحنُ شعب إسرائيل - من عدم قدرتنا المتواصلة على إقامة دولة الرب الأبدية
على أرضه. أمنا نحن القباليين بروياً نبينا حزقيال. وسعينا لآلاف السنين وعشرات
القرون لأن نرى الرب كما رآه هو. لكن زوهارنا المقدس لم يشأ أبداً أن يكتمل..“
سعل العجوز قصيراً. ثم أكمل:

”لكن إيماننا بأن ننتصر لماشاحنا المقدس لم يتزعزع طرفة عين. وبقينا أجيالاً بعد
أجيال ننتظر اليوم الذي تفرغ به الأرض ما بداخلها. أو توحى السماوات من أنوارها.
ما قد يكمل زوهارنا المقدس ويعجل بنزول ماشاحنا. بعد أن نرى الرب كما رآه
حزقيال النبي ونطلب منه أن يبعث به إلينا. فتقرُّ أعيننا برؤيته. وتنعم الأرض
بعده ووسطه ونعمائه. وتقام دولة الرب الأبدية على أرضه التي..“

أصدر باب القاعة صريراً وهو يفتح. نظر جميع الشبيبة العجائز نحوه بانتظار
رؤية من سيدخل. فجأة. ظهر ناحام بقامته الفارعة والبقع الداكنة على جوانب
رأسه داخلاً إلى قاعة المجمع وهو يرتدي معطفاً أسود طويلاً.
هز رأسه للعجوز كبير طائفة القباليين الواقف على المنصة. ثم انسل بهدوءٍ
جالساً بين أعضاء المجمع..

الفصل 75

أبحرت ستاركيت تاركَةً رصيف ميناء العقبة بعد نحو نصف ساعة من بدء صعود المسافرين إلى متنها. كانت أنوارُ الميناء تبتعد ليحل محلها ظلامٌ عميق شوشت صفوته قطرات مطرٍ سريعة الانهماج..

في صالةٍ واسعة تشكل صحناً شبه دائري في قمة السفينة، كان إبراهيم بانتظار قدوم فاطمة إلى ذات المكان. لقد وعداها بانتظارها هنا بعد أن يذهبان لحجرتيهما لتغيير الملابس وترك حقائب السفر. رغم أنه لم يكن بحوزته من الملابس شيء. ولا من الحقائب سوى الصندوق الفضي في غرفته. والذي تركه في خزانة صغيرة عند رأس سريره.

شعر بأنه يتنفس الصعداء أخيراً. لقد تخلص من ليلةٍ طويلةٍ كادت تدمرُ مستقبله الوظيفي مع ناحام..

بل كادت تفقده حياته..

استرجع ما مر به من مجازفاتٍ وأحداثٍ هذه الليلة. وكم من الأماكن تنقل حولها بريبةٍ وحذر وهو يطارِدُ عميل السويصريين. حتى انتهى الحال بما انتهى إليه في قلعة الكرك. والأهم من ذلك، أن كلارا استسلمت أخيراً راضيةً بالتسوية التي عرضها عليها.

ابتسم إبراهيم لما تذكر. وأحس بأن فاطمة ستكون هديته لنفسه تقديراً لها على احتمال تلك الليلة..

وبينما كان ينظر إلى خبو أنوار العقبة من أمامه. التف حول آذانه صوتٌ نسائيٌّ أملس..

"تأخرتُ عليك؟"

التفت نحو الصوت، ورأى فاطمة أمامه وهي ترتدي زياً رياضياً رمادي اللون. وقد بان من خلف قماشه القطني الناعم صدرها الأنثوي الجذاب، فيما ضاق بنطالها ليظهر مفاتن نصفها السفلي.

كانت تضع كفيها في جيوبها، فيما حبست شعرها بخيطٍ من المطاط، ليتدلى وراءها كذيل فرسٍ بُنية..

"لا أبداً" ..

"لا جامل" ..

"قلت لك لا، تبدين ذات قوامٍ رياضي" ..

"لم تغير ملابسك" ..

"هكذا أفضل، سأكون بخير" ..

"جائع؟" ..

شعر إبراهيم بأن صدره سينطبق على ظهره لشدة الجوع، إلا أنه فضل عدم البوح..

"قليلاً، لا يهم، وأنت؟" .

"تناولت بعض الطعام في مبنى الميناء، سأجوع لاحقاً" ..

"هل ستضيفيني في حجرتك؟" ..

أطلقت فاطمة ضحكةً انتهت بشهقةٍ سعيدة، "لا بأس"، وأكملت: "أنت متشوقٌ جداً لحجرتي" ..

"لدي فضولٌ للطريقة التي ترتب بها امرأةٌ مثلك حجرتها وهي بطريق السفر عبر البحر".

"فقط؟" ..

سكت إبراهيم قصيراً ثم قال: "تعلمين بما أفكر به فلتتركي الأسئلة الغربية" ..

أخرجت فاطمة يدها من جيبها وأمسكت معصم إبراهيم وقالت: "يعجبني حذرك، وتملصك من الأسئلة" ..

ابتسم الشاب، وأمسك يدها نازلاً وإياها من درجاتٍ في القاعة ..

بعد السير بأروقة ضيقة على متن ستاركيت، أغلق باب حجرة فاطمة، وأقفل من الداخل عليهما بهدوء ..

"أيها الاخوة ..". أكمل صوت العجوز أمام مجمع رؤساء الطوائف ..

"أقدم لكم رجلاً قدم منذ ليلتين خدماتٍ تاريخيةٍ جلييلة لطائفة القابالا في إسرائيل والعالم، بل خدمات لتاريخ البشرية بكاملها. دعوته لهذا الاجتماع لترونه بأنفسكم، ولتعرفوا قيمة ما جاء به وأهمية ما عثر عليه، بل وقاتل من أجله قتالاً مستميتاً ليضعه في الأيادي الآمنة التي ستصل به إلينا" ..

علت دمدمةٌ عميقة أرجاء القاعة، وحركت الوجوه لتنظر باتجاه بعضها، فيما كان ناحام جالساً كما هو ..

"أقدم لكم أيها السادة، السيد ناحام زائيفي، الشيخ الجليل الذي سيحدثكم عما عثر عليه من اكتشافٍ سيغير اتجاه صراعنا الفكري والديني بخصوص الماشاح بما يحمل انفراج أزمنا التاريخية، ويعلي شأن القاباليين بين يهود العالم،

ليصدق أخيراً بعد قرون ما كان القابليون يؤمنون به. ولتمتع وجوه مكذبيهم بالريبة والشك". قال الربِّي الأكبر ذلك ناظراً في وجوه شيوخ طائفة الحريديم. ثم أوماً لناحام ليعتلي المنصة..

بحركات ثقيلة ووقار مبهر. نهض ناحام من كرسيه باتجاه المنصة. بعد أن تركها الربِّي الأكبر عائداً إلى مقعده بمساعدة شابٍ من خَدَمَةِ المكان. وقف بمعطفه الأسود أمام المكيروفون وقد لمعت من خلفه المينورا..

" باسم يهوه رب الجنود..". قال ناحام بصوتٍ متزن. "أيها السادة. يا شيوخنا الأجلاء. أنا ناحام زائيفي. رجل أعمالٍ يهودي. أتنقل حيثما شاء الربُّ أن يضع رزقي في هذا العالم. اتكلت على نفسي طيلة حياتي لأكون الرجل الذي أمامكم. لكنني كنت دائماً مؤمناً بأن الرب لم يخلقني لأعيش وأكسب قوتي ككل الرجال. بل لأنه أعدني لأكون سببا في إتمام رسالةٍ تاريخية تخص شعب إسرائيل عبر التاريخ..

إن من ضمن ما أقوم به من أعمالٍ إلى جانب العمل بالمقاولات. هو أنني أهتم بجمع الآثار من حول العالم بما أستطيع اقتنائه والاحتفاظ به. كهواية تشبع فضول رجل مثلي شارف عمره على الانقضاء. لكنني كلما وقع في يدي أثر. تفحصته وقلبته بيدي لأرى إن كان يحملُ فيما يحمل ما يعين شعب إسرائيل على ابتلائه. وما يحقق له انتقامه من ظلموه من بابليين ورومان ونازيين وغيرهم. ولأنني كنت أفعل ذلك بمنتهى الإيمان بخلص شعبنا. فإن الرب لم يخذلني أبداً. حتى وقع بيدي ما نحن هنا للحديث عنه..

إننا اليوم نضع نقطة النهاية لصراعٍ تاريخي دام قروناً من الزمن. صراعٍ أطلقته رؤيا إلهية عظيمة وجلٍ مبهر. حين رأى نبينا حزقيال ما رآه. وهو يسير على قدمين مدمتين بين أورشليم وبابل. مطوقاً بخيول وعربات الظالمين الذين دمروا أورشليم وأحرقوا معابدها. عندما كانت جيوش الكلدان تجر أسلافنا دون رحمة كل هذه المسافة. تحت أشفار السيوف ورؤوس الرماح. صراعٌ أطلقه نور الرب الذي تبدى أمام

عيني حزقيال. ليعلن لشعبنا المسيبي. أن رؤية يهودي للرب تارة. وتحدث آخر له تارة أخرى. كما حدث مع موسى. ما هو إلا تأكيد من الرب بأننا شعبه المختار.

وطيلة قرون. بقي بنو إسرائيل بين أن يحاولوا الإحساس بوجود الرب في قلوبهم المؤمنة. وبين أن يحاولوا أن يروه بأعينهم كما رآه نبيهم حزقيال. وبين هذا وذاك. كان وما زال الرب يملأ قلوب الإسرائيليين إيمانا لا يتزحزح. ويمدهم برعايته العظيمة طيلة تأريخهم. وفي كل ظلم يروونه على أيدي أعدائهم. تقف يدي الرب رادعة وحامية ومناصرة. ليصد عن شعبه المختار رماح أعدائهم. ويمنحهم الرفعة والدولة على أرض أجدادهم. حتى قيام دولتهم الأبدية. بظهور ماشاحنا المقدس..

لقد مر شعبنا طويلا بصراعات لم تكن رحيمة أبدا. ومرت أرض الميعاد بشتى أنواع الحروب والقتل والتنكيل. تؤخذ وتسترد. تارة بعد تارة. حتى أدرك اليهود أن أمنهم الأبدي الخالد لن يكون إلا على يد ماشاحهم المقدس. العظيم الذي سيكون يد الرب الحامية. وبأسه الفتاك. حتى يعيد أرض الميعاد كلها إلى حكمه. ويجلس على عرشه الأبدي جاعلا منا شعب إسرائيل حكاما على الأرض ومن عليها.

ولأننا جميعا ترف قلوبنا لرؤيته. وتنفض شراييننا شوقا لمجيئه. تصارعنا طويلا لغاية واحدة. غاية ظهوره وجلي كيانه. فشققنا صفنا الواحد إلى صفيين. وافترقنا من رأي إلى رأيين. فصرنا قباليين نسعى لامتلاك زوهارنا المقدس لأجل الطلب بطلاسمه من الرب أن يرينا تجليه العظيم. فنسأله التعجيل بإظهار الماشاح. عينا بعين نطلب منه ونرجوه. حتى يظهره لنا حاكما معززا لمملكة إسرائيل الأبدية.

وفي الوقت نفسه. صرنا حريديين نملك في قلوبنا إيمانا مطلقا بأن الرب سيظهر ماشاحه في الوقت الذي يريده ويراه مناسباً. فتركنا أمر الزوهار وجليات الرب. وانتصرنا لإيماننا الداخلي بأن الرب لن يدع شعب إسرائيل دون ماشاحه. لكن أيها الخاخامات الكبار. يا كل رباني يهودي يسمع صوتي هنا. إن ظهور الماشاح المقدس أصبح ضرورة حتمية. وإن على شعب إسرائيل أن لا ينتظر مجيئه فحسب. بل

العمل من أجله. وقد أهدى التاريخ لنا ما يكمل كتابنا الذي يعجل ظهوره. نافضاً غبار الآف السنين عنه. ومرسلاً إياه بقدرة عجيبة إلى أيدينا. بعد أن طمرته أرض بابل لقرون. في صدفة لا يمكن تفسيرها إلا أنها إرادة القدير لكي ينقذ شعب إسرائيل ويعجل بظهور قائدها.

لقد حصلنا بعد جهد طويل على ما لم يودع في الزوهار المقدس. ليكون الحجر الأخير الذي يكمل كتابنا هذا. فنمضي بما كتب عليه إلى الله بقلوب خاشعة مؤمنة. معجلين إظهار ماشاحنا الكبير..

تعالّت أصوات المخامات بين استنكار أصدرته شفاه الحريديم وتبريكات أطلقها القباليين. إلا أن ناحام لم يمنحها المجال لتتعالى أكثر..

"إنني إذ أقف أمامكم الآن. بخيط أحمر على معصمي هذا. أدعو الحريديين إلى الإيمان برؤى القباليين. فلا يمكن تصور أن كل هذه الصدفة من سقوط للحكم في العراق ونبش لآثار بابل و تهريب للأثر من هناك وسقوطه بأيدينا والحرب التي دارت عليه في الأردن وجماعنا الآن في شحنه إلينا هنا. لا يمكن أن نتصور أن كل ذلك قد حدث بمحض صدفة. لكنها إرادة الله التي أرادت أن يكون رأي القبالا أقرب للحق. من إيمان بأن تعجيل ظهور الماشاح قد أصبح ضرورة لن نتحمل أن تؤخرها مسيرة التاريخ التي قد تطيل انتظارنا له. لذا. أدعوكم للسمع بهدوء لما سأقوله. راجياً أن ننظر جميعنا لمصير شعبنا بعيداً عن مهاتراتنا الدينية والفكرية. وأدعو الحريديين على وجه الخصوص. للاستماع لما سأقوله بهدوء. فقد عثرتُ على ما سيغير معادلتنا كلها بشكل عام. وتفصيلاً الماشاح بين رؤية الحريديم والقباليين بشكل خاص.."

كانت العيون لا تبحر النظر إلى شفاه ناحام وهو يفجر مفاجأته المدوية بتفاصيلها..

"أيها السادة، لقد جلب لي أحدهم قطعةً بابليةً من آثار العراق المنهوبة. كتبها جدٌ عظيمٌ باللغة البابلية. وخبأها في أرض بابل خوفاً من سطوة الكلدان وظلمهم وقسوتهم. وذلك الرجل الذي أرسلها لي من بغداد. لم يكن ليعرف معناها العظيم وما نقش عليها من نصٍّ تاريخي هام لنا كشعب إسرائيل. وربما هي - بل مؤكد-. مكتوبةٌ بيد رجلٍ كان قريباً من جدِّ رأى الله بأمر عينه. فشكى للرب ظلم الكلدان حين رآه. ودوّن عن ذلك الجد ما قاله له. وكانت تلك القطعة التي أعلن لكم. أنها تبحر الآن في طريقها إلى هنا. إلى أرض الميعاد..

أيها المخاضات الكبار لبني إسرائيل. أعلن لكم أنا ناحام زائفي. القبالي المؤمن. بأن الأثر القادم إلى هنا. يحمل تكملة زوهارنا المقدس...!"

انفجرت القاعة بصراخ مشايخ الحريديم. وعلت صرخاتهم المكذبة لناحام وما يقول. صرخ أحدهم: "لن تنتصر القبالا أبداً. لا تزعجوا ماشاحنا بترهاتكم!". فيما صاح الآخر: "عليكم أن تحترموا إرادة الرب أيها القباليون. دعوا الماشاح يأتي حين يشاء". فيما صاح عجوزٌ آخر لم يقوَ على النهوض: "ليرحمنا الرب إن اكتمل الزوهار.."

في الوقت نفسه. كانت دموع مشايخ القبالا تنهمر على اللحي البيضاء والخدود النكمشة فرحاً. سيكتمل زوهار القبالا أخيراً. وستصبح رؤية الله قريبة لطلب نزول الماشاح..

"شكراً للرب. رب إسرائيل المؤمنة بعظمتها". صاح أحد شيوخ القبالا. فيما رفع آخر يديه وهو يقول: "فلتكن مشيئتك أيها العظيم.."

رفع ناحام صوته متغلباً على الأصوات في القاعة وقال: "فيا أيها الحريديم. حان وقت اقتراب الرقيم المقدس. الرقيم الذي كتبه أسلافنا وهم سبايا على أرض بابل تحت ظل جنود نبوخذنصر الكلداني. كتبوه بإيمان عظيم أن أيادٍ ستخرجه لنا على طبق من ذهب يوماً ما. لنعيد رؤيا حزقيال التي رآها بعينيه. لكي تكون بأعيننا.."

ترك ناحام المنصة بعد إتمام كلماته، ونزل عن المنصة سائراً بين الحاخامات. قبضات الحريديم تلوح له بغضب، فيما أحاط به مشائخ القابالا من كل جانب ليجلسوه بينهم. لقد شغ الفرخ من وجوه القاباليين بعد ضمان السيطرة على التكملة التاريخية لكتاب الزوهار من على نصفي الرقيم، تهللت وجوههم وتبادلوا التهاني وذرفت الدموع على اللحي البيضاء، فيما تجهمت وجوه الحريديم وتبادلوا مشاعر الحزن. لا يمكن أن يجبر المشايخ على الظهور، يجب أن ينتظره شعب إسرائيل بإيمان بأنه سيكون هناك في اللحظة التي سيحتاجه بها، فهو سيظهر عندما يبدأ العالم بالاقتراب من الزوال، ووسط كل ذلك الهدير من أصوات العجائز، كانت حروب كلامية تندلع هنا وهناك بين طرفي مجمع رؤساء الطوائف، فحاخامات القابالا علا صوتهم أمام الحريديم مؤكدين لهم بان الرعاية الآلهية قد أظهرت أخيراً بأنهم كانوا على حق، وأن خصومهم على غيره.

وسط تلك الفوضى الكبيرة ذات الرفعة الدينية، كان ناحام يبادل القاباليين التهاني بالحصول على النصفين واقتراب إتمام كتاب الزوهار، ويستمع إلى دعواتهم القلبية له بأن يمد الله في عمره وعمر شعب إسرائيل، مؤكدين له بأن الرب قد اختاره لهذه المهمة العظيمة، مهمة إتمام كتاب الزوهار التي نجح بها، كان العجوز يحني رأسه لهم خجلاً، فأولئك العجائز أغدقوا عليه بدعواتهم وتضرعهم للرب بأن يمنحه ما يتمنى، صوت واحد صدئ من بين هذه الأصوات سحب ناحام من بينهم إليه فوراً..

كان ذلك صوت الرابي القابالي العجوز، أمسك بيد ناحام وأجلسه على يساره..

"يا يهوشاع الجديد..". قال له، "يا من أرادته الله ليصل بنا إلى الضفة الأمان، لقد اختارك ماشاحنا العظيم، لأن تتم تعويذة رؤية الرب، أيما فخر أكبر، أيما فرح غامر أن يختار ماشاحنا من يتم خارطة الوصول إليه عندما اختارك، سترى رؤى الله كما رآها حزقيال، بالزوهار، والزوهار وحده مع إيمان راسخ، سيكون الله هناك، متجلياً أمام مؤمني شعب إسرائيل، ليطلبوا منه إنزال ماشاحهم العظيم على أرضهم المقدسة..".

كانت دموع الرابي تترقق فيما كان ناحام يستمع حاسر الراس. "ناحام..". أكمل العجوز. "لو أنني سجدت بين يديك لما أوفيت بدين شعب إسرائيل كله لك. وامتنانه لفضلك..".

وبينما كان ناحام يستمعُ لمدائح الرابي الأكبر للقابالا. رن هاتفه المحمول في جيبه بنغمة خاصة. نغمة تطبيق الاتصال الفيديوي المباشر (سكايب)..

أخرج العجوز المحمول وأخفضه ناظراً إلى شاشته بينما كان الجدال في القاعة يستعر. بلع ريقه وقد اندفع الدم إلى عروقه. لقد كان الاتصال قادماً من شخص أثار اتصاله كل خلية في جسمه. خفق قلبه بشدة وعنف. وأصبح لا يستمع إلى الصوت المتعالي في القاعة. ولا إلى صوت الرابي العجوز. بل إلى نغمة سكايب فقط. فتح الخط. وظهرت أمامه الصورة الفيديوية المباشرة..

كانت تلك كلارا. من على متن ستاركيت.

الفصل 76

على متن ستاركيت. كانت الرياح تعلو بنسيم البحر الأحمر من اتجاه إلى آخر. وقفت كلارا أمام السياج الخلفي في مؤخرة الباخرة وظهرها للبحر. بدت السفينة لامعة بفعل الأنوار على ارتفاعاتها المتفاوتة. وبدا وجه كلارا واضحاً أمام ناحام وهو يطل من شاشة هاتفه المحمول.

"ناحام..". صاحت كلارا بصوت عالٍ يخترق صوت الريح المعولة. "أنت الآن في اجتماع مجمع رؤساء الطوائف صحيح؟"

أجاب بصوت خفيض مرعجف: "بلى كلارا!. أين إبراهيم؟!!"

لكن الأخيرة أجابت السؤال بالسؤال: "هل لديك طريقة لربط نقالك بشاشة كبيرة أمام المجمع؟". وأكملت: "أريد منك أن تربط صورتي إلى شاشة يراها كل المخامات. سأحدث عن أمر مهم.."

كان ناحام يشعر بالخدر في ساقه. استأذن من الرابي الأكبر ونهض ماشياً باتجاه المنصة. تلفت حوله باحثاً عن من يساعده في هذه المشكلة التقنية. كان يقف على مقربة منه واحدٌ من رجال الدين الصغار. نادى عليه وقد أخفى شاشة نقاله أسفل المنصة. أخبره بأن عليه جلب سلك يربط النقال بشاشة العرض التي تتوسط القاعة. وبالفعل، حرك الشاب لجلب التوصيلة السلكية. بينما عاد ناحام إلى كلارا: "كلارا!. أين إبراهيم؟ أخيريني؟". لكن صوت البحر كان عالياً. فلم تسمع كلارا كلمات العجوز وهو يتحدث بصوت خفيض عبر محموله. كانت تلتفت يمينا ويساراً. وقد بان انعكاس البدر من خلفها أبيضاً على مياه البحر الأحمر. لحظات ووصل الشاب وبيده توصيلة العرض.

سار ناحام وتوجه برفقة الشاب إلى ما خلف منصة التحدث. أمسك بالوصلة التي تم ربطها بشاشة العرض من الطرف الآخر واستعد لحشرها في محموله. ما إن يفعل. سيرى كل من في القاعة وجه كلارا وهي تحدّثهم من على ستاركيت. السفينة التي حمل الرقيم بنصفيه. والتي عقد القاباليين الأمل عليها لإيصالهما إلى تل أبيب.

التفت ناحام إلى ورائه. ثم عاود النظر إلى كلارا المرتبكة على الشاشة. قال لها: "عند إشارتي. ستكونين على الملأ". ترك المحمول بيد الشاب. وعاد نحو منصة التحدث. ضرب على الميكروفون بإصبعه مرتين. فاستدارت الرؤوس والأعين نحوه على المنصة..

"أيها السادة.. لقد حدث أمر طارئ!". قال ناحام ذلك بصوت مرخّف. "هناك فتاةٌ تحاول سرقة الرقيم. وهي ما تزال حية.. إنها على متن ستار كيت الآن.. متحدثةٌ إليكم!".

تبادل المحامات النظرات فيما بينهم. وصعق القاباليون لما سمعوا. فذلك يعني أن تكلمة الزوهار قد عادت لدائرة الخطر من جديد. التفت ناحام إلى الشاب وأعطاه الإشارة بربط السلك بالمحمول. وتوجه نحوه بخطواتٍ متثاقلة.

فجأة. وأمام مجمع رؤساء الطوائف. أعلى مجتمع ديني ليهود العالم. وفي قلب تل أبيب. أطل على شاشة القاعة وجه كلارا مكبرا عشرات المرات عن حجمه الطبيعي. وصدم كل من كان في المكان..

أمسك ناحام بالمحمول. وتحدّث به إلى الفتاة مخبراً إياها أن المجمع يشاهدها الآن..

"أيها السادة..". رج الصوت الأنثوي القاعة وسط ذهول الشيبة واللحى البيض. "أنا كلارا. كلارا التي خانت أمامكم جميعاً سيدها ناحام. وسرقت من بين يديه أعلى ما تريدون. تكلمة زوهار القابالا. واتصلت بجمعية يهود الشتات في سويسرا

من أجل أن تباع نصفى الرقيم لهم. نعم. يبدو أن جميعنا قاباليين. أنا التي أردت أن أوصل الرقيم إلى سويسرا. حيث كاد القاباليون هناك أن ينفجروا فرحا عندما سمعوا بتكملة الزوهار وأملوا أن يصل الرقيم إلى أيديهم أخيرا بعد قرون من البحث اليائس. إبراهيم أيضاً. كان يسعى لأن يحصل عليه من أجل أن يوصله لناحام. والذي بدوره سيوصل الرقيم لكم. للقبالا. وبذلك. يكون خطأ الصراع يؤديان كلاهما إلى إيصال الرقيم إلى اليد التي تحتاجه. فسواءً سقط بيد ناحام أو بيد عملاء مركز اليهود الشتات في سويسرا فهو سيعود للقباليين..

كان ناحام جالسا على كرسي تحت الشاشة وأصابعه على فمه وهو يشاهد العرض الكبير. فيما شخصت الأبصار جميعا في المكان إلى ذلك الوجه الملائكي مطلا بحديثه الغريب وصوته الذي يخالط صوت الريح والبحر..

”لقد كان كل شيء يجري كي يتأكد القاباليون من أن النصفين يحتويان التكملة الحقيقية للزوهار. كل شيء حدث من أجل أن يكون القاباليون واثقون من أن الرقيم بنصفيه يحتوي التكملة التاريخية للزوهار. لذا. كان علي أن أتصل بمركز جمع تراث يهود الشتات ليرسلوا لي أحد عملائهم في عمان. ويتأكد ويؤكد لهم. بأن ما في يدي هو التكملة الحقيقية لكتاب الزوهار. وبعد أن يتأكدوا من ذلك بأنفسهم. كان يجب التخلص من ذلك العميل فورا. كل شيء جرى لتقتنعوا بأن الزوهار لا يكتمل بلاهاتين القطعتين. واللتين إذا فقدتا. فسينتهي الزوهار إلى الأبد. وتنتهي الكابالا إلى قعر اليأس. حيث يبقى الحريديون وحدهم على صواب. بعد ذلك الصراع الذي دام أكثر من ألفي عام. ويبدو أنكم تأكدتم بأنفسكم. بعملائكم وخبرائكم. أنه هو التكملة الأخيرة. الأمل الأخير..“. ابتسمت كلارا ابتسامة غريبة. وأكملت: ”والذي ستفقدونه إلى الأبد!“

ضجت القاعة بصوت القاباليين الغاضبين. فيما راح الحريديون يفيضون فرحا جامحا..

”لقد تسللت إلى هذه السفينة قبل أن يضع إبراهيم، عميل ناحام الآخر. قدمه عليها. وصلت إليها قبله بعد إن كنتم قد اعتقدتم بأني أصبحت خارج اللعبة. نعم، تسللت إلى مكانه، إلى غرفته، وبينما هو الآن لا يدري بما يجري هنا. أود أن أريكم ما أملك. أيها القاباليون الذين سيفقدون كل شيء، وأيها الحريديون الذين سينتصرون في نهاية المطاف..“

أخفضت كلارا جسمها دون أن تشيح بنظرها عن كاميرا المحمول، وعندما نهضت، كانت ترفع نصفي الرقيم بكف يدها، وقد غطت أصابعها الكثير بما نقش عليه..

”أليس هذا هو رقيمكم بنصفيه؟ أجبوا أيها القاباليون، هنا كتبت تكملة فصول الزوهار، ودون هذين الأثرين، ستفقدون رؤى الله إلى الأبد. لا زوهار ولا ماشاح يستدعى من أعالي النور إلى قعر الظلمة في الأرض بالقوة، لن يتجاوز أحد على رفعة الله وإرادته، لن يغير أحد منكم مجرى التاريخ ويضغط على الأيام لتسرع حدوث أمر ما لا يريده الله أن يحدث إلا في وقته المحدد. أليس هذا زوهاركم؟ أليس هذان هما النصفان الذين تصارعنا من أجلهما طويلا!“

ضجت القاعة بأصوات العجائز في فوضى لم تحدث من قبل أبدا في مبنى مجمع رؤساء الطوائف، القاباليون يفيضون غيظا، والحريديون يهللون بانتصار. وناحام ما زال على حاله، ناظرا بكل هدوء إلى ما تفعل كلارا، متسائلا في خله:

أين هو إبراهيم الآن!

”إنني أيتها السادة، لست بالقدر الكافي من الذكاء لأخوض كل هذه المطاردة. لست وحيدي قادرة على إيجاد عناوين سرية كي أتصل بمركز جمع التراث اليهودي في سويسرا عبر بريد إلكتروني خاص وأراسلهم. لست قادرة على الإفلات من يد إبراهيم لوحدي. لست خارقة الذكاء لأخطط لمطاردة من رموز وألغاز معقدة أشارك فيها طرفين آخرين. العميل القبالي وإبراهيم. وأنتصر في النهاية. لا أقتل من أجل المال. وما فعلته مع عماد الحسين لم يكن خيارياً. وقتلي للعميل ديفيد إيتان لم يكن خيارياً أيضاً. لقد قدت إبراهيم والقبالي ديفيد إيتان إلى مطاردة تجعلكم توفنون بأن الصراع يحدث من أجل شيء مخطط له بدقة. صراع لأجل شيء يستحق. كي تكونوا واثقين من أن ما يتم الصراع من أجله هو تكملة الزوهار الحقيقية. وهذا ما أكده لكم إيتان قبل مقتله. وبالفعل. وثقتم من الرقيم وما عليه. الرقيم الذي أحمل نصفه بيدي الآن. رقيم زوهاركم..“

عمت الدمدمة من جديد في القاعة: من الذي ساعد كلارا على كل هذه اللعبة! قالت الفتاة: ”سيدي ناحام، أتمنى أن أكون قد طبقت كل ما أرسلته لي في البريد الإلكتروني الثاني بحذافيره.. يحيا الحريديم!“

نهض ناحام وكانت دموعه تترقق في عينيه. صاح بأعلى صوته: ”يحيا الحريديم“.. وكانت صدمة الجمع بأكمله..

ناحام لم يكن قباليا!

الفصل 77

داخل غرفتها. كان إبراهيم قد أنهى ارتداء ملابسه بعد انتهائه من مضاجعة ساخنة قضاها مع فاطمة. نظر لها وهو يتكئ على الحائط لينتعل حذاءه. كانت مددّةً على سريرها بجسم تغطيه ملاءة بيضاء. بدت له تفوح إثارة رغم أنه قد انتهى معها لتوه. عيناها ما تزالان ناعستين بكحل خفيف، وخالها الرائع على خدها الأيسر ما يزال يشع جمالا. وساقها الممتدة خارج الغطاء تنتهي بأظافر قدمها الدموية اللون. كان إبراهيم ينظر لها بعطش لم يرو بعد. أطلق قبلةً في الهواء نحوها. ووعداها بأن يعود ما أن يقوم بمهمة قصيرة في غرفته. فالليلة ستكون موعد سهرة صباحية معها.

خرج إبراهيم من الغرفة ومثى في رواق ضيق مطلي بالأبيض. كان يحث الخطى باتجاه غرفته في نهاية الرواق على اليمين. لا يدري لماذا شعر بأن عليه التأكد من سلامة النصفين. وصل إلى باب الغرفة وأخرج المفاتيح، وضعه في مكانه وأداره..

لكن لسان القفل.. كان مفتوحا أساسا.

دفع الباب بجنون قاتل. وخطا سريعاً باتجاه الدولاب الصغير عند رأسه. لكن الدولاب كان مفتوحاً هو الآخر. تصاعدت الحرارة القاتلة إلى رأسه..

من عساه الفاعل!

مد يده بداخل الدولاب. وشعر بمغص شديد..

لقد اختفى النصفان.

في مجمع رؤساء الطوائف، كانت كلارا ما تزال ظاهرة على الشاشة، فيما عمت الفوضى المكان. رفع ناحام يده أمام الجميع. وبن الخيط الأحمر الذي يلبسه على معصمه، خيط القباليين، هتف في ميكروفون القاعة قائلاً: "أيها القباليون.. اسمعوني..". هدأت القاعة بعض الشيء، وأكمل العجوز: "إن الرسالة عندما حُمل فإنها حُمل بكل الجوارح، وتبدو للعدو والصديق أحياناً بأنها تشع وضوحاً. أو أنها تحدد الجهة التي يقف صاحبها معها، أو التي يقف بالضد منها. حتى يكاد الطرفان يثقان بحاملها سواءً أكانا يظنانه عدواً أم صديقاً. آمنت طويلاً بأن المشاح يجب أن يظهر. لكنني لم أؤمن لوهلة بأن علينا نحن شعب إسرائيل أن نطارده من نوره إلى ظلمات أرضنا ليظهر عليها، محمليته ضعفاً وحاجتنا لظهوره. لقد كنت بينكم أيها القباليون طويلاً، حليفاً وابناً باراً، عاملاً على رسالة القبالا لسنين طوال، ولبست شريط القبالا سنينا من حياتي، وها أنا أصارحكم اليوم، بعد زمن طويل، بأنني كنت وما زلتُ حريدياً للنخاع. لأوفق دون غيري في القضاء على زوهاركم إلى الأبد..".

فلَّ ناحام الشريط الأحمر من يده ورفعهُ أمام المجمع، والتفت إلى شاشة نقله على مقربة وأوماً لكلارا بأن تنفذ ما عليها تنفيذه، وصدم المجمع عندما رفعت الفتاة يدها وهي تمسك بالنصفين، مخرجة إياهما من نطاق السفينة، حيث لا شيء ختتهما سوى مياه البحر الأحمر، وهي تندفع من تحت بدن ستاركيت بفعل محرركاتها..

كان المشهد مربعاً للقباليين، بل وحتى للحريديم الفرحين، ناحام يرفع شريط القبالا متخلياً عنه إلى الأبد، وكلارا ترفع نصفي الزوهاار فوق مياه البحر متهيئةً لإسقاطهما فيه، مشهدٌ هز المجمع بأكمله، حيث اهتزت الجدران لعويل وتراتيل الحاخامات القباليين وأصواتهم ومناشداتهم بعدم إلقاء نصفي الرقيم في البحر. في الوقت الذي تصاعدت فيه أصوات الحريديم بالفرح، والخشية في الآن ذاته، فما يحدث الآن هو نهاية رحلة تاريخية طويلة عمرها أكثر من ألفي عام وخمسمائة..

في غرفتها. كانت كارين تدخن السيجارة الثالثة مذ انقطع الاتصال بالسائق في عمان. وأغلق الخط تماماً ليصبح خارج الخدمة..

ما الذي حدث؟

الإ أن الهاتف رن في الغرفة قاطعاً سلسلة تحقيقاتها..

”تعال لي فوراً“، قال المدير..

بسرعة، انطلقت شخصيتيه إلى غرفته. فتحت الباب لتراه يراقب شاشة حاسوبه وقد شعت عيناه صدمة..

تحركت كارين لتنظر إلى الشاشة، وصدمت لما تراه. صورٌ تعرض بيث حي من قاعة في تل أبيب.

”لننهي هذا الصراع أيها السادة..“ قالت كلارا وهي ترفع النصفين فوق المياه. ”لننهي وننشد بانتظار ظهور ماشاحنا لوحده، حين نسجد لمجيئه فرحاً وترحيباً. أيها القباليون، أيها الحريم، مرحبا بنا في عهدٍ جديد. عهد وحدتنا بانتظار المخلص الأبدي..“

في تلك اللحظات، اندفع إبراهيم خارجاً من غرفته باتجاه غرفة أمن الباخرة لإخبار عناصر الأمن هناك بفقدانه نصفي قطعة أنتيكة يعتز بها من غرفته. إلا أنه عندما بدأ المرور بالرواق الضيق خارجاً نحو تلك الغرفة تواجه مع سيدة كانت تحدث جارتها في الغرفة المقابلة لها وقد ارتدت جلباب نوم طويل. حاول تجاوزهما بخطى شاسعة. لكن ما كان استوقفه هو محاولة سؤالهما عما يمكن أن تكونا قد شاهدتاه في الرواق، فيبدو أن وقوفهما هنا قريبا من غرفته دام طويلاً لحديثهما

المواصل. تنبهدت المرأتان إلى وجه إبراهيم الشاحب واستعجاله المفرط. كان يبدو كأنرب بري هارب. ولفت انتباههما توقفه المفاجئ. حاول إبراهيم تمالك أعصابه رغم أن الدم كان يقرقر في رأسه من شدة الغضب. كانت المرأتان تتحدثان الانكليزية عندما سمعهما هو أثناء مروره باتجاههما في الرواق. استقر واقفا وسحب نفسا ليلقي سؤالاً بلغتهما: "عفا سيدتي. هل رأيت أحدا يخرج من غرفتي أثناء وقوفك هنا؟" حدثت إلى المرأة على يساره وأشار إلى باب غرفته إلى الورا منه. تبادلت المرأتان النظرات. هزت تلك رأسها بالنفي وكان شعرها طويلا. فيما تمتت الأخرى محاولةً التحدث. التفت إبراهيم نحو الثانية وكانت أصغر عمرا من الأولى وأكثر جمالا. قالت له بعبارات مترددة: "م. حسنا. يبدو أن أحدهم سبقك إلى غرفتك. إنها فتاة شقراء ترتدي بنطال جينز أزرق. و.. سترة جلدية قصيرة. كما أنها.. كانت تنتعل بوتلا لا أتذكر لونه!..".

شعر إبراهيم بالجنون يحوم فوق رأسه. إنها مواصفات.. كلارا!

بعد جزء من الثانية. طفا على ذهنه أهم أسئلته: "لكن كيف صعدت على متن ستاركيت؟!"

وقبل أن يرد السؤال بأخر. تابعت المرأة: "لقد خرجت سريعا من الغرفة وكادت تتعثر بالسلالم في نهاية الرواق. يبدو أنها أجهت إلى مؤخرة السفينة. بعد ذلك. لا أعرف أين أجهت!.."

غارت عينا إبراهيم بسخونة. ولم يجب أيا من المرأتين. أطلق ساقيه راكضا واتجه نحو باب حديدي يقع في نهاية الرواق وقد علفت على يساره مظفاة حريق حمراء. فتح الباب بعنف وصعد بضعة درجات في سلم قصير متجها لظهر الباخرة. فيما هزت المرأتان كتفيهما مستغربتين اندفاع الشاب بهذه الطريقة..

لفح وجه إبراهيم نسيم البحر البارد وهو يتجه راكضا نحو مؤخرة السفينة. كانت الأنوار خافتة على ظهر ستار كيت. ركض إبراهيم سريعا باتجاه آخر أمتار السفينة إلى الخلف باحثا عن غريمته. ومن مسافة عشرين مترا. لمح وجهها ينعكس عليه نور شاشة نقال. كان صاحب ذلك الوجه متكئا على السياج الخلفي للسفينة. وهو يرفع ذراعه خارجا.

داخل مجمع رؤساء الطوائف. كانت طبول القلوب تُقرع لدى جميع رؤساء الطوائف فيه. القاباليون يقتربون من فقدان زوهارهم إلى الأبد. والحريديم يوشكون على نصرهم الأبدي. فيما الآخرون يتابعون ما يجري بخليطٍ من المشاعر المتقدة. ما زال وجه كلارا مطلقا على الشاشة. وما زالت يدها خارج السفينة. وما زال النصفان بانتظار المصير. وما زال ناحام رافعا خيط القابالا أمام الجميع..

”ليبدأ الآن تاريخ جديد“. صاحت كلارا. ”تاريخ شعب الله المختار الواحد“..

بلغت القلوب الحناجر. واقتربت كاميرا نقال كلارا نحو يدها التي تمسك النصفين. أصابع يد واحدة. بيدها مصير صراع ألفين وخمسمائة عام. أصابع بأظافر أنثوية مطلية بلون أحمر غامق. يشابه لون الشريط الذي يرفعه ناحام بوجه حلفائه وخصومه..

”ليظهر الماشاخ حين يشاء!“..

بهذه الكلمات. صرخت كلارا أمام شاشة نقالها. ليسمعها كل من كان داخل المجمع. ويسمعها إبراهيم بصوت مباشر من على ظهر ستاركيت. وما إن تأكد من كونها كلارا. انطلق باتجاهها راكضا لينقذ ما بيدها من نصفي رقيم قاتل من أجله لساعاتٍ طويلةٍ مضت. عدا نحوها بخطىً مجنونة. كانت أصابعها ترتخي وهي تمسك بهما. صورت ذلك كاميرا نقالها أمام عجائز المجمع. ارتخت أصابعها أكثر وبدأ أحد النصفين ينزلق عن توأمه. خفقت قلوب أعضاء المجمع

بشدة. لم تنتبه كلارا إلى من كان يقترب منها بعنف بسبب نور النقال بعينها وعمته سطح السفينة. كان إبراهيم قريبا للغاية. خطوات قصيرة فقط. ضغط على أسنانه منطلقاً باجهاها. لكن ما كان يشاهده المجمع كان اللحظات الأخيرة من عمر الزوهار..

أمام عيون رؤساء طوائف بني إسرائيل في تل أبيب. في تلك الليلة التاريخية الطويلة. وبشكل صادم للغاية. فتحت كلارا أصابعها عن آخرها. وهوى من بينها نصفاً رقيم كادا يكملان كتاب الزوهار التاريخي. هوى النصفان إلى الأسفل. ببطء شق أنفاس القابالين. في ذات اللحظة التي هوى فيها شريط القابالا من بين أصابع ناحم إلى الأرض. افترق نصفا الرقيم أمام أعين المجمع في الهواء. كما افترق الخيط الأحمر عن يد العجوز. وشقا طريقهما نحو مياه البحر الأحمر أسفلهما. ليخرجا من إطار الصورة الكبيرة داخل قاعة المجمع..

في اللحظة التي اصطدم فيها نصفا الرقيم بمياه البحر. استلقى الخيط الأحمر على أرض القاعة..

ثوانٍ وانقطع البث..

واختفت كلارا.

الفصل 78

هبطت كارين جالسةً على كرسي بمقابل مكتب رئيس المركز.

كيف حدث ذلك!

لقد خسر القباليون الزوهار إلى الأبد بعد كل ما حصل..

كانت تشعر بألم في معدتها وسخونة في رأسها. فيما كان مدير المركز واضعا أصابعه أمام فمه وعلى عينيه ذهول صادم. لقد تبددت كل مساعي المركز للحصول على نصفي الرقيم. التفتت كارين إلى المدير وقالت: "أل هذه المسرحية فقدنا ديفيد ايتان؟!".

ضغط المدير على زر في جهاز الحاسب المحمول على منضدته وأغلق البث المرتبط بالشاشة. وتحول ببصره إلى كارين:

"لقد حدث. وانتهى. خسرنا الزوهار إلى الأبد كارين!".

لم تستوعب الأخيرة أن الرقيم قد فقد في مياه البحر الأحمر. وأنه سيتحلل في غضون دقائق إلى ذرات تراب تخالط المياه فيه بسبب طبيعته الطينية. هناك. في ذلك البون الهائل من المياه. تلاشت أحرف تنمة الزوهار. وقضى عليها ذات البحر الذي أنقذ موسى وقومه الإسرائيليين يوماً ما. عندما هربوا من بطش فرعون.

"كيف حصلت على هذه اللقطات؟". قالت للمدير وعيناها تترقرقان دمعاً.

"أحد رجال الدين من القباليين الشباب في داخل المجمع كان يصور ما يحدث. وقد نقله لنا عبر الإنترنت".

شعرت كارين بسخونة دموعها وهي تخط طريقها على خديها. نهضت تاركةً المكتب. وتوجهت إلى الباب. فيما استدار مدير المركز بكرسيه إلى الخلف. وبدأ ينشج بألم.

على متن ستاركيت. كان إبراهيم يقف وجها لوجه أمام كلارا بعد أن خطف جهازها المحمول من يدها وكسره بسياج السفينة الذي تستند عليه. ثم ألقى به في البحر. أمسك بعنق كلارا بقبضة من فولاذ: "عرفتكِ عاهرة ناحام. لكن لم أدرك أنك عاهرة من يدفع أكثر!". قال وعيناه تتوهجان نارا.

جاهدت الفتاة لتتحدث. لكن قبضته كان تضيق أكثر فأكثر.

"طاردتك اليوم طويلا. وها أنت تطيحين بي بما ألقيت في البحر. سافلة ووضيعة. ارتضيت لنفسك أن تكوني على سرير العجوز من أجل فتات ماله. وعندما دفع لك عملاء الكابالا في الخارج أكثر بعثهم كل شيء. والآن. يبدو أن الحريدين قد دفعوا لك المزيد لتلقي بالرقيم في البحر. ستلحقين بما ألقيت الآن يا كلارا.."

كانت كلارا تمسك بقبضته وهي تحاول تخفيف وطأتها على قصبته الهوائية. حركت لسانها لتتطق فيما احمرت عينها من شدة الاختناق. أرخى إبراهيم قبضته قليلا وبدأت الفتاة تلتقط أنفاسها..

في مجمع رؤساء الطوائف. خرج ناحام تاركا القاعة في هرج شديد متجاهلا شتائم القباليين ومحتميا بالحريدين الذين حاولوا كف السنة القباليين عنه برد الشتائم بثلها. خرج مسرعا ليحاول إجراء اتصال هام ينهي هذه الليلة الطويلة. استدار في أحد الأروقة المؤدية إلى غرفة استراحة ملحقة بالمبنى. خطا سريعا بقلب يملؤه الشك. التقط نقاله من جيبه. وبدا ينقر على شاشته بأصابعه المجدعة.

"اسمعي أرجوك". قالت كلارا وهي تلهث. "إبراهيم. كل ما تم هو لعبة أرادها ناحام أن تكون بهذه الطريقة. وقد تمت كما أراد. انتهى كل شيء. عليك أن تفهم!".

لكن الشاب ضغط على رقبتها من جديد. "أهي لعبة أخرى من ألعابك كلارا؟ هل تظنين أنني سأصدقك بعد أن قتلت عماد الحسين وسرقت النصفين منا؟ بعد أن استنجدت بالسويسريين للقضاء علي ثم قمت بقتل ديفيد؟ بعد أن حاولت بيعهم نصفي الرقيم؟ كيف لي أن أصدقك!". قال عبارته الأخيرة صارخا. فيما كانت الفتاة تعاني الاختناق بين يديه..

"إبرا.. هيم..". خفف قبضته عليها من جديد. والتقطت نفسا بعد آخر. "صدقني. لقد جرى الأمر كله بخطة محكمة من ناحام. أرسل لي بريدين إلكترونيين احتوى الأول منهما على العنوان الخاص لمركز جمع تراث يهود الشتات في سويسرا. فيما كان الآخر يحتوي الخطة الكاملة لما يجب أن يحدث وفق ما أراد. لكنه...".

"وماذا عني أنا؟". رد إبراهيم وقد شد على رقبتها. "لقد اقترت من الموت وأنا أطارد للحصول على النصفين. هل تظنين أن ناحام سيفرط بي من أجل لعبة قدرة كما تدعين؟. أما كفاك كذبا!. كم دفع لك الحريديون؟ تكلمي!".

نطقت كلارا بصعوبة: "إبراهيم. ناحام حريدي بالأساس!". ضحك إبراهيم باستخفاف. "خدعة سخيفة. ماذا؟. هل استنفدت كل دهائك لتقنعيني بهذا؟.."

قال ذلك وهو يشعر باهتزاز اتصال على هاتفه المحمول في جيبه. لكنه تجاهله تماما..

"لقد مارس ناحام الجنس معك مرارا ومرارا. يكفي أنك ستنتقمين منه بهذا الرقيم. كيف يمكن لفتاة اخترقها ناب عجوز أن لا تنتقم منه! وأن تفعل ما فعلت من أجله من جديد. وتفرض بالآف الدولارات وبقطعتين من الآثار الهامة. كذبك لا ينطلي علي أيتها الرخيصة..."

رن الهاتف في جيبه من جديد.. وتجاهله مرة أخرى.

«إبراهيم..»، أرخى قبضته وعيناه تقدحان شرارا..

«مهما فعل ناحام معي. سأبقى وفية له. لم يرد ناحام أن تعرف بما يجري كي يبدو الأمر أكثر حقيقة أمام القاباليين..». سحبت نفسا وأكملت: «ليشعروا بأهمية ما نتحارب من أجله. ويكونون واثقين من أنها التكملة الحقيقية للزوهار. وقد حدث ذلك. لو أنك علمت لما تصرفت كما تصرفت طيلة هذه الليلة. ولبان الاتفاق بيننا أمامهم..».

«جدي كلاما آخر لتقنعيني. ما تقولينه لن ينطلي علي الآن. حقا! كنتِ تحدينه بنبرة خد كلما اتصل بك. لقد أخبرني العجوز بذلك. ماذا؟ هل كان ثمة من حاولين التمثيل أمامه بأنك تعملين بالضد من ناحام وأنت تجرين مكالمتك معه على انفراد؟ هاه؟ إن افترضنا انكما قمتما بكل شيء باتفاق مسبق؟».

«بلى..». قالت كلارا. «خشينا أن يتم التنصت على مكالماتنا. فكانت اتصالاتنا حقيقية لمن يستمع..».

وفيما شد إبراهيم بقبضته على رقبتها بشكل أعنف. كان أحد ضباط الأمن على ظهر السفينة يراقب ما يجري. وقد شد على قبضة مسدسه متواريا في الظلام.

«إبراهيم. ألا تتساءل لماذا منعك ناحام من اقتحام شقة توفيق وقد كنتِ فيها فعلاً؟ ألا تتساءل لماذا لم أرد قتلك داخل قلعة الكرك وتركتك تذهب؟ فكر بالأمر إبراهيم. ناحام أبقاك بعيداً عني للحفاظ على الخطة الكاملة. لقد أخبرني بالبريد الإلكتروني الثاني إن لبنى ستتنصت على اتصالاتي. ليتعرف إلى خطوات السويسريين بخصوص اهتمامهم بشأن الرقيم. إبراهيم عليك أن تصدق بأن حتى الفتاة التي قضيت ساعتك الأخيرة معها جاءت بخطةٍ من ناحام..!».

صدم إبراهيم لما سمع. فاطمة!

لكن وجهه ازداد قسوةً..

”بل حتى انه اتفق مع احد الأشخاص قرب مبنى الميناء ليأخذ مسدسي قبل ان ادخل للمبنى واصعد الى السفينة. كل شيء من تدبير ناحام يا ابراهيم.. كل شيء..“

”كلارا..“ قال ابراهيم متجاهلا الاتصال الثالث ومحدقا بها بعينين تقدحان شرراً..
”وداعاً!“..

ترك ابراهيم عنق كلارا فجأة. وأمسك بها من حزام بنطالها سريعاً بقبضته العنيفة. رفعها إلى الأعلى بساعدٍ من حديد ودفع بها من فوق سياج السفينة.. إلى خارجها..

هوت كلارا نحو مياه البحر. ومرت تلك الرؤيا بعينيها بتصوير بطيء. كان الهواء بارداً وهو يستقبلها هابطةً إلى الأسفل. وبدت الأمطار التي تهويها كآخر ثانيةٍ من حياتها بانتظار النهاية..

تلاشى صوت ابراهيم بذاكرتها. وفكرت بآخر ما يمكن أن تفكر به في آخر لحظاتها. ولاؤها الذي لم تفرط به لناحام رغم ما فعله معها في مكتبه مراراً. مرت عيناها على آخر عبارة تقرأها في لحظاتها الأخيرة، (Star Gate)، مكتوبةً على مؤخرة السفينة باللون الأبيض..

ثوانٍ وتلاشى عالمها في مياه البحر..

إلى الأبد.

الفصل 79

كان ناحام يشعر بقلق عظيم وهو يتصل على نقال إبراهيم عبر التطبيق الخاص المرتبط بالإنترنت. لقد اتصل عليه لثلاث مرات متتالية بغية إعلامه بأن كل شيء كان مخططاً له وأن عليه إيقاف المطاردة بأكملها والحفاظ على حياة كلارا. لكن إبراهيم لم يجب. تمنى ناحام أن يكون الشاب قد ألقى القبض عليه في السفينة في حال رصدت له محاولة لإيذاء الفتاة. فانقطاع البث المفاجئ من نقال كلارا أثار مخاوفه من احتمال اصطدامه بها. لم تكن إمكانية أن يكون أمن السفينة قد ألقى القبض عليه قد أثارت مخاوف العجوز بشكل كبير. فهو من الممكن أن يطلق سراحه لاحقاً بفضل علاقاته حول العالم. كان يشعر بأنه قد ارتكب خطأ عندما حجز مقعد كلارا على ستاركيت وتأكد من ركوبها على متنها ولم يعلم إبراهيم بذلك. لقد انشغل بما جرى في مجمع رؤساء الطوائف وغفل عن جهل إبراهيم بما يجري. بل غفل عن نقطة ضعف الشاب التي يعلمها: اندفاعه الذي يصل إلى حد التهور.

قرر أن يتصل من جديد على نقال عميله. للمرة الرابعة.

على متن ستاركيت. كان إبراهيم يولي ظهره للسفينة واقفاً على آخر متر منها. وناظراً إلى البحر الذي احتضن كلارا بمياهه. شعر بأن ما فعله كان انتقاماً شخصياً من الفتاة فحسب. فأغراقه لها لن يعيد نصفي الرقيم من البحر ليسلمه إلى العجوز. لم يتنبه إلى ما كان يجري إلى الخلف منه وعلى مسافة قصيرة. ففي ظلمة سطح السفينة. كان ضابط الأمن الذي شاهد ما جرى قد استدعى رفاقاً له عبر جهاز لاسلكي يحمله. أخبرهم عن طريقه بأن جريمة قتل قد حدثت على سطح السفينة للتو. وأن القاتل يبدو خطيراً..

ثوانٍ. ويصل الدعم.

أَزَّ الْهَاتِفِ الْمَحْمُولِ فِي جِيبِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ جَدِيدٍ قَاطِعاً شَرِيْطاً تَأْمَلُهُ نَحْوَ أَفْقِ الْمِيَاهِ. أَخْرَجَ نِقَالَه مِنْ جِيبِهِ وَنَظَرَ إِلَى الْمُتَصَلِّ.

نَاحَامُ يَتَصَلِّ بِكَ.

عِنْدَمَا قَرَأَ اسْمَهُ، تَذَكَّرَ أَنَّ هَاتِفَهُ قَدْ رَنَّ ثَلَاثَ مَرَاتٍ سَابِقَةً وَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ، لِأَنَّ أَنْ يَكُونَ الْعَجُوزُ قَدْ اتَّصَلَ فِي الْمَرَاتِ الثَّلَاثِ الْمَاضِيَةِ، لَكِنْ غَضِبَهُ الْعَارِمُ كَمَا قَدْ مَنَعَهُ مِنَ الرَّدِّ..

"بلى سيدي!"، أجاب إبراهيم على المحمول.

"أين أنت؟ ماذا جرى لكلارا؟ هل التقيت بها؟". قال ناحام وقد قاطعته نوبة سعالٍ قصيرة.

"حسنًا سيدي، لا اعرف ماذا عساي أن اقول، لكن.."

"كلارا ألقت بالرقيم في البحر! أعرف ذلك، أين هي الآن؟". قال العجوز متلهفا للرد.

"لقد سقطت في البحر سيدي!"..

لم يجب العجوز، لكنه كان يشعر بأن رأسه بدأ يتوهج حرارة. سعل مرة أخرى لنوبة أطول، وسأل إبراهيم مجدداً:

"أنت أسقطتها؟". أجاب الشاب: "انتقاماً لك سيدي!"..

لم يعرف ناحام بم يرد، لقد داست عبرات حزنه على لسانه لتلجمه عن أي كلام. شعر بأن لغات الدنيا لم تكن كافية لتشرح لإبراهيم ما كان يحدث، كان ينصت بنقاله لصوت الهدير البعيد للبحر ما تخلفه السفينة خلفها من مياه هوجاء كمشرطٍ يمر على جلد ميتٍ بهدوء، شعر بعينيه تغورقان بشكل لا إرادي، تنفس شاهقاً بحزنٍ عميق، وسمع كلمات أخرى من إبراهيم..

"كنتُ أتمنى أن أصل بالرقيم إلى يدك سيدي. لأقول لك: شيفح لهستوريا!"..

رد ناحام وقد خدرت الدموع لتسيل على خديه المتجعدين: "كل ما جرى كان مخططاً له إبراهيم! إنه ذنبي أنا!"..

شعر إبراهيم بأن البحر كله قد دخل في فمه لهول صدمته ما سمع. لقد كانت كلارا محقة!

وقبل أن يرد. سمع صوتاً يزجره من الخلف:

"ارفع يديك لأراهما!". وخفق قلبه سريعاً..

التفت إبراهيم بهدوء. وكان أول ما وقعت عيناه عليه. ماسورات أربع مسدسات أشهرت بيد أربعة من رجال أمن السفينة. لامعة وسط ظلام السماء الذي أخذ منه المكان ظلمته. بهدوء تام. أغلق الخط ورفع يديه عالياً..

ثوانٍ. وكانت يدها مصفدتين ووجهه على أرضية ستاركيت.

في غرفته داخل مجمع رؤساء الطوائف. حاول العجوز استجماع قواه بعد سماعه خبر موت كلارا من قاتلها نفسه. الذي انقطع الاتصال به بشكل مفاجئ هو الآخر.

نهض ناحام بصعوبة من كرسيه. وبدأ يجرجر ساقيه ونوبات السعال تطحن صدره المتخلخل. توجه إلى باب الغرفة نحو مخرج المبنى. كان الرواق هادئاً. فيما كان صدى الضجة يتعالى قادماً من قاعة المجمع. سار وحزنه على موت كلارا بتلك الطريقة يزيد من حملة على اكتافه المتعبة. تلاشت فرحة الانتصار الحريدي أمام خسارته الموجهة لعميلته الأهم. بل حبيبته الأهم. خطأ نحو الباب أمامه وهو يتذكر حواراه الأخير معها. عندما كان يشرح لها ما يمكن لخط الزمن أن يقوم به. وكيف أن التاريخ يعيد نفسه من جديد في كل مرة. كيف أن التوراة سردت

ما حدث لبغداد قبل أحد عشر عاماً قبل حدوثه بالآف السنين. كان يسير ببطء وهو يشعر بالغصة لكل ما حدث. بل إنه شعر بأن ما قام به هو ما سيعجل بظهور الماشاح. فما حدث اليوم أصبح يحتم على الماشاح الظهور. موتُ كلارا وحده يحتم عليه الظهور!

قبل أن يصل إلى الباب. رن الهاتف المحمول في جيبه. خشى العجوز الرد عليه. لكن الرغبة بمعرفة ما جاء عليه أزاحت يده نحو جيب بنطاله. أخرج هاتفه وبدأ ينظر إليه..

كانت تلك رسالة قصيرة وصلت عن طريق تطبيقٍ مرتبط بالإنترنت..

"سيد ناحام، لقد كشفوا كل شيء. سيتم اعتقالك بعد قليل.. ساعدني.. لبنى".

أحس العجوز بأنه ما من حزن تبقى بعد موت كلارا ليدفعه للتأثر على مصير لبنى. يبدو أن أمرها قد تم كشفه. وتم إيقافها من الشرطة الأردنية لاحقاً بتهمة التجسس. عقوبة لن تكون رحيمة أبداً..

جَاهل تلك الرسالة. وأكمل مسيرته نحو باب مقر مجمع رؤساء الطوائف. انزلق الباب مفتوحاً. وخرج نحو فناء المكان. سار بخطاه المتثاقلة ذاتها قاصداً الباب الخارجي للخروج إلى الشارع. مشى في ذلك الفناء الرحب الذي كانت برودة الجو تجمد الهواء فيه. خطوة بعد أخرى. والذاكرة برأسه تستعيد شريط أحداث ما جرى بالكامل. تلك الليلة التي اتصل فيها بكلارا طالبا منها المجيء إلى مقره. حين شرح لها ما عثر عليه لدى عماد الحسين. ثم اتفق معها على شراء ذلك الرقيم منه. ليخبرها في نهاية اللقاء بأنه سيرسل لها بريدين إلكترونيين. أحدهما يحمل عناوين إلكترونية. سترسل عن طريق إحداها رسالة إلى البريد الخاص بمركز جمع تراث يهود الشتات في سويسرا تخبرهم فيها بامتلاكها نصفي رقيم بابلي

يحملان تنمة الزوهار، فيما ستحتوي الرسالة الثانية الخطة الكاملة لالافات نظر القابالا في العالم إلى مطاردة واسعة، تبدأ باستدراج عملائهم إلى عمان والخصوف في مطاردة طويلة معهم، توقع الرقيم في أيديهم في النهاية بشكل مقصود، ليؤكدوا للمركز صحة كون الرقيم وما عليه حقيقياً، ثم يتم القضاء على أولئك الأفراد..

تذكر أيضاً كيف أن رسالته لها تضمنت لغزاً مطولاً صنعه هو بإحكام لإدامة المطاردة التي ستشعر القابالا بأهمية ما يطاردون، لينهي تلك الخريطة من المطاردة بركوب كلارا وإبراهيم على متن ستاركيت، حيث كان قد أخبرها بتلك الرسالة بأنه حجز لهما مكاناً مسبقاً، وأكد عليها أن لا تشعر إبراهيم بأن كل شيء يسير وفق خطة، كي لا يتصرف بما قد يفسد تلك الليلة، والتي يجب أن تنتهي بإلقاء الرقيم كله في البحر..

لكن ما حدث كان قد حدث، رحلت كلارا، واختفى إبراهيم، وانكشفت لبنى!

كأن الرقيم قد قضى على كل من وضع يده عليه بلعنة غريبة!

كمجرة كونية واسعة، كانت كل تلك الأفكار تدور برأس العجوز وهو يقترب من باب مبنى المجمع، تاركاً نار الجدال الديني اللامنتهي خلفه مستعرة، شعر بضيق في أنفاسه رغم عذوبة الهواء البارد في تلك الليلة، تراحمت صورة كلارا أمامه مجدداً، مع صوتها وعذوبتها، ضاقت أنفاسه أكثر، وتلعثمت خطواته بشكل واضح، لاحظ ذلك رجلاً شرطة في فناء المبنى، حاول أحدهم الاقتراب منه والتأكد من أنه بخير..

لكن ناحام هوى على وجهه فجأة..

اندفع الشرطي باتجاهه فيما تبعه الآخر. صاح على أحد رفاقه البعيدين بأن يستدعوا سيارة الإسعاف. قلب الشرطي الأول جسم ناحام على ظهره. كانت عينا العجوز تضيقان ألماً. فيما برزت أوردته من جانبي رقبته. حاول الشرطي رفع رأسه ومساعدته على التنفس. بدا وجه ناحام محتقنا للغاية. لكنه فتح عينه بما استطاع ونطق بعبارة واحدة للشرطي..

"هللوياء.. ل مشايا" ..

صرخ الشرطي من جديد طالباً من زملائه الاتصال بالإسعاف. لكن جسم ناحام كان يرتجف بشدة. فيما كانت عيناه تغوران أكثر. لم يعرف الشرطي طريقة لمساعدته. لقد بدا العجوز غارقاً في أنفاسه المتحشجة عميقاً. ارتجف أكثر وجبينه يزداد تعرقاً. والتصقت مقدمة شعره الأشيب بمقدمة رأسه من غزارة العرق. اصفرت شفتاه. وفتح فمه وقد ازداد اختناقاً..

لم تمر سوى ثوان. حتى غاب العجوز عن الوعي تماماً. وفي طريق سيارة الإسعاف إلى المستشفى حاملةً أياه. وقبل ان تصل إليها. فارق ناحام الحياة بنوبةٍ قلبية.

الفصل 80

باريس.

كان البروفيسوران ميشيل ليون وجاك روند ما يزالان يقرآن آخر أسطر الرقيم الغامض..

تتحرك الصواري بما اقتلع..

ويضحك المنكسرون في النهاية..

في الظلام حكاية أحكيها..

وأنا، سأنتهي كما انتهت بابل إلى الأبد..

تحت سماءٍ متهاوية..

”بروفيسور!“ قال ميشيل. ”أشعرُ بما أشعر؟“

رد روند وهو يرفع نظارته لتستقر على رأسه: ”بالغرابة طبعاً!“

”لا، أوكدُ لك أنني بحاجةٍ فقط إلى راحةٍ قصيرة، ثم سأفكك هذا النص ليكون أعظم ما حصلتُ عليه، إنني أشعر بقدرتي على ذلك. قوةٌ غريبةٌ أشعر بها تخبرني بأني الشخص الذي سيفك شيفرته.“

”لماذا تعتقد ذلك ميشيل؟“

”لا أعلم، كل ما أعرفه هو أنني سأفك شفرته، وفي أقرب وقت، جاك يا صديقي، كن واثقاً بأننا سنحصل على التكريم والتشريف الذي طالما حلمنا به..“

راح ميشيل يتجول في القاعة كأنه يقف على خشبة مسرحٍ جاد، يلوح بيديه ويدور حول نفسه ويصيح..

”جاك. ستتلاقفنا الصحف كأبطال رومانيين نضع أكاليل الغار على رؤوسنا. وستلتقي بنا القنوات التلفزيونية في نشرات أخبارها الهامة. سأكون جالساً على الكرسي أمام المذيعه وأنا أعدل ربطه عنقي القرمزية. وسأبدا الكلام بالقول. في الحقيقة يا سيدتي لقد ساعدني في فك شيفرة هذا الرقيم صديقي البروفيسور جاك روند. وستسألني عنك. سأقول لها لقد جلب لي سندويجاً عندما ضمرت معدتي من الجوع وأنا أحاول تفكيكه. لقد جاء ليراني نائماً عند أقدام رقيم الملك نبوخدنصر. كأنني غفوتُ عند عرشه العظيم آمناً. نبوخدنصر يحبني. وحمورابي يحبني أيضاً. كل ملوك بابل يحبونني. فكتبوا إلي هذا الرقيم. وأكد أجزم سيدتي المذيعه أن كاتب الرقيم دفنه في مكان ما من بابل. وعندما عاد لفراشه لينام بجوار زوجته. سألته وقالت: أين تأخرت؟ فقال لها: كنت أكتب رقيماً إلى البروفيسور ميشيل ليون. ليصل إليه بعد ألفين وخمسمائة عام. سيقراً ما كتبه يا زوجتي. وسيحل شيفرته. وسينشره في الصحافة. وسيجلب له صاحبه البروفيسور جاك روند ذلك السندويج ليساعده على حل الأحجية التي وضعتها فيه. صديقي يا زوجتي. ليون سيفك شيفرته..“

كان البروفيسور جاك روند كاتباً ذراعياً وهو ينظر باستغراب إلى صديقه الذي يبدو أنه فقد عقله..

”روند يا صديقي. سيرسل رئيس الجمهورية الفرنسية بطلبنا أنا وأنت ليمنحنا التكرم أمام شعب فرنسا والعالم. نجلسُ أمامه كالمحررين. وسيعلق وسام جوقه الشرف على صدورنا أمام كاميرات الدنيا كلها. وسيقول للصحافة. هذان البروفيسوران حلا أحجيةً تاريخيةً كان العالمُ بانتظارها. ليلتها عندما أعود إلى فراشي. سأحلّمُ بنبوخذنصر ونببولاصر وحمورابي ونبوناصر وانليل ناديل ونبوشومليبور وهم يطوفون حولي محتفلين بي كاحتفال عيد ميلادي. سنوقدُ الشموعَ ونقطع الكعكة التي نقشت عليها صورة الرقيم هذا. سيقولُ لي حمورابي إنني أذكى وأشجع عالمٍ آثارٍ على وجه العالم القديم والجديد. وسيربت

نبوخذنصر على كتفي مبتسماً. روند. سأكون سعيداً، سعيداً جداً بإجازي.."

ثم خطا ميشيل سريعاً باتجاه روند وأمسك به من وجهه بكلتا يديه..

"جاك، ثق بي، فقط عليك أن تساعدني. هذا الذي على الطاولة ليس رقيماً عادياً. هناك سرٌّ عليه. نكتشفه سوياً، ونعيش حياتنا مشاهيرَ في العالم كله، كباراً في السوربون وباريس. بل في فرنسا كلها، عليك أن تساعدني!"..

أمسك جاك بكتفي ميشيل وقال له: "ميشيل، عليك أن تذهب إلى المنزل لترتاح. أنت مشوشٌ للغاية، لم يفعل بك رقيمٌ من قبل ما فعله بك هذا! اهدأ ميشيل أرجوك!"..

هدأت ملامح ليون تدريجياً وزالت ابتسامته، ترك جاك واجهه إلى الرقيم ملقياً عليه نظرةً فاحصةً أخيرة، واجهت عيناه إلى سطره النهائية التي قرأها قبل قليل..

وأنا، سأنتهي كما انتهت بابل إلى الأبد..

تحت سماءٍ متهاوية..

الفصل 81

كان الغروب قد حل على باريس.

قاد البروفيسور ميشيل ليون سيارته الرينو ذات الدفع الرباعي مشوشاً للغاية إلى أحد المحال القريبة لشراء بعض الطعام إضافة إلى زجاجة براندي. وضع ما اشتراه في سيارته وقاد عائداً إلى بيته.

كان ينظرُ إلى حركة الناس من حول سيارته وهي تقفُ أمام إشارة حمراء قاطعت مسيرته. نظر إلى الوجوه والحركات. الخطوات والأقدام. وشعر بأن لا أحد يعلم بما يخفيه قلبه من حيرة وتوجس بما يحمله الرقيم الغامض الذي تركه على المنضدة في غرفة التحليل بجامعة السوربون..

لا أحد يشعر بما أشعر به. ربما كل هؤلاء الناس يعانون من قضايا تشغل تفكيرهم كما يشغل ذلك الرقيم تفكيري. لكن شعور الوحدة أمام الفكرة المؤرقة موحش. وله طعم الجوع مع مرض يمنع الأكل. مسح ميشيل رأسه وهو يعيد التفكير بكل كلمة ذكرت على الرقيم. أخرج هاتفه النقال لينظر إلى صورته التي التقطها له قبل أن يغادر الجامعة. وقبل أن يفتح شاشة النقال انطلقت مزمار سيارة كانت تقف خلفه. رفع رأسه ليرى أن الإشارة الخضراء قد توهجت. حرك ناقل السيارة وانطلق..

ورن هاتفه المحمول على الفور..

فرونسوا يتصل بك.

”بلى فرونسوا!“. أجاب ميشيل بصوتٍ متعبٍ للغاية.

”بروفيسور ليون...“ قال فرونسوا بصوتٍ مرحٍ. ”كيف أنت؟“

”حسناً فرونسوا. متعبٌ للغاية. عملتُ طويلاً على الرقيم هذا اليوم دون جدوى“..

صمت فرونسوا فانسو قصيراً ثم قال: «أنت تعلم بأن أي تكريم ستحصل عليه ستصلني الأخبار من داخل السوربون فوراً، أليس كذلك؟»..

”بلى فانسو، نحن متفقون على أن أي تكريم..“

لكن فرونسوا قاطعه فوراً: «لا تحاول أن تكذب علي بروفيسور، لا أريد أن أكتشف بأنك حصلت على ما تريد دون أن تدفع لي حصتي التي اتفقنا عليها»..

”تعاملنا سابقاً وتعرف كم أنا موضع ثقة يا فرونسوا، لا أحب سماع هذا الكلام“..

”ذلك جيد، الثالث، لا تنس ذلك“..

”حسناً“..

أغلق فرونسوا الخط تاركاً ميشيل بغضب أكبر..

من الحماسة تصور أن فك شيفرة رقيم بهذه الصعوبة ستتم بهذه البساطة..

الثانية عشرة والنصف ليلاً بتوقيت باريس.

كان ليون قد طبع صورة الرقيم أمامه على ورقة علقها في غرفة جلوسه، ارتدى روب نومه وأعد لنفسه كوباً من القهوة، وراح يتأمل نص الرقيم المعلق أمامه..

قرأ من جديد..

من باب بابل.. ملكة ذي الجهات الأربع..

نحو مغيب الشمس..

يكون الرحيل..

كسعةٍ تقتلعها الريح بعيدا..

من بابل المنكوبة..

إيحارٌ في الرمال..

صامتاً في الطريق..

عام من القتل..

بمر بالدينة..

ويقتل الأطفال ويغسلهم بالدماء..

أيتها الآلهة..

كوني رفيقة بها..

يموج الموج بما اقتلع..

ليعيث به تشريدا..

الريح لا تهدأ..

والسماء لا تكف..

يغضب النهران غضبا مريعا..

ويغضب الذين يلوثونهما بأيديهم..
خصومة كبيرة.. ودم يراق سريعاً..
يجتمع السادة فيما بينهم..
ويبدأ الصراع بلا أياد..
قال أحدهم ما كان قد اقتلع عليه أن يعود لمكانه..
بابان يتحطمان..
تخرقهما أيادٍ لا تريد لهما خيراً..
وتتصارع على مداخلهما..
غرب بابل يغرق..
وتشرقها يقتله الظمأ..
من الأرض البعيدة..
يأتي النداء..
امشوا وراء قلوبكم..
النجاة في السفينة المحطمة..
من الشرق إلى الغرب..
إلى الغرب إلى الغرب..
يسير القارب بصارتيه..
في بحرٍ من الشر..

كسعفة تفتلعهما الريح بعيداً..
 الطوفان العظيم تفلقه سفينة..
 هناك عند الصارية..
 يقف باب إخماده..
 وإن له مصراعين..
 تصعد الأرواح عالياً..
 ويقف الإله وسط الصراع..
 شراع السفينة ما زال واقفاً..
 والمتصارعون حوله..
 في مكانٍ أخفت فيه الأرض الأسرار..
 ينكشف السر..
 ويسعى الناجون إلى هناك..
 الحملان الثمانية تحمل صاعين من الحجارة..
 في مكانٍ للقسى والرماح..
 يتقاتل المحاربون..
 للغرباء وجوهٌ كثيرة..
 بعضهم يموت..

وبعضهم يسرقُ السفينة إلى طوفانٍ من ظلام..

تتحرك الصواري بما اقتلع..

ويضحك المنكسرون في النهاية..

في الظلام حكايةٌ أحكيها..

وأنا، سأنتهي كما انتهت بابل إلى الأبد..

تحت سماءٍ متهاوية..

كان ميشيل واضعاً يده تحت خده وهو ينظر إلى الرقيم أمامه على ورق. وشعر بأن لا أمل له بحل ما عليه من نص إلا التعلق بالأمل. بدا المكان كئيباً بما حوله وهو ينظر بجماداته نحو ميشيل الخائب. ميلُ الساعة على الجدار يبدو كرمح محاربٍ يدور بوجه محاصريه. وفاترينة القصاصات يزيد الزمن قصاصاتها اصفراراً. فيما بدت المدفأة المنغرسه في الجدار مستسلمةً أمام نظراته اليائسة هي الأخرى..

فجأة. اهتز العالمُ بعنفٍ حول ميشيل. وتهاتت الأشياءُ من على رفوفها دفعةً واحدة. انفجر صوتٌ عنيفٌ مستمر. نهض ميشيل بسرعة وقد هوى كوب القهوة من يده. وقفز لا إرادياً باتجاه صورة الرقيم على الجدار وانتزعها بقوة. ثم أجه إلى باب الخروج من الشقة وفتحها بعنفٍ وأطلق ساقه للنزول بسرعة من سلم المبنى. كان كل شيء ما يزال يهتز بشراسة ودوي. فيما تساقط الغبارُ من سقوف البناية بكثافة. ثوانٍ أخرى. واطلم كل شيء أمامه فجأة..

ولم يعد يشعرُ بشيء أبداً.

الفصل 82

”أثار الزلزال بدت شديدةً للغاية على باريس. فالهزة التي حدثت قبل أيام لم تكن مدمرة بقدر ما بدا عليه هذا الزلزال العنيف. سيارات الإسعاف ما تزال تنقل القتلى والمصابين. فيما هرعت أجهزة الدفاع المدني وعجلاته إلى الأماكن المتضررة محاولَةً انتشارال الجثث والبحث عن المفقودين. الشرطة تنتشر في كل مكان وانباءً عن انهيار أجزاء كبيرة من قوس النصر وسط العاصمة. ودمار كبير في مبنى متحف اللوفر. السلطات أكدت أن برج إيفيل تضرر جزئياً بشكل يساعدهُ على إعادة إصلاحه. ومعى الآن من موقع الحدث عمدة باريس السيد...“

كان العالمُ يشاهد مراسلة إحدى محطات فرانس تيليفيزيون الفرنسية متابعاً أخبار الزلزال الذي أطاح بالعديد من المباني وطمر الآلاف تحت الأنقاض..

وجد البروفيسور ميشيل ليون فجأة نفسه جالساً على الرصيف بجانب ما تبقى من المبنى الذي كان يقطنه. لقد فقد الوعي بسبب إصابة رأسه بالجدار بفعل اشتداد الزلزال وعند وصول سيارات الإسعاف تمكن المسعفون من إعادته إلى الوعي موقعياً. فبعد استعادته لوعيه رفض نقله إلى المستشفى..

نظر ليون إلى نفسه. كان مغطىً ببطانيةٍ غطت كتفيه. فيما لمعت بالقرب منه الأنوار الزرقاء والحمراء لسيارات الشرطة والإسعاف والدفاع المدني..

”سيدي. عليك أن تغادر المكان فوراً، فقد حدثت هزاتٌ ارتدادية تتسبب بانهيار المبنى بالكامل..“ قالت إحدى المسعفات له وهي تمسك بكتفيه. إلا أن ليون بدا شارد الذهن. نظر إليها وهز رأسه بالرفض..

”سيدي. هذه إجراءاتٌ مهمة لسلامتك. هناك أولويات علينا أن نطبقها. سلامتك جزءٌ من واجبنا..“

لكن صيحاتُ رجال الدفاع المدني من الطابق الثاني في المبنى المحطم جزئياً كانت

تعصفُ بآذان ميشيل. فيما تساقطت أشياءٌ بدأ رجال الأطفاء برميها من الطوابق إلى الأرض لإخلاء المبنى من الموجودات بما يفسح المجال لعمليات البحث وانتشال المصابين..

هوت كتلةٌ أشياءً بالقرب من ميشيل رمى بها أحد الرجال من أعلى المبنى. واشتد إلحاح المسعفة على ميشيل بالمغادرة..

”سيدي. هل تسمعني؟ هل تعاني من ألمٍ في مكان ما؟. عليك أن تغادر المكان. فوراً“..

لكن ميشيل لم يعرها انتباهاً. بقيت عيناه ثابتتين على ما يجري رميهِ من أعلى. سقطت بالقرب منه حقيبة حاسوبه. ثم كتبه التي يعتز بها. ثم كرسيه الخشبي المفضل الذي ارتطم بالأرض وتشظى إلى قطعٍ صغيرة. ثم رمى الرجل من أعلى بفاترينة ميشيل مع محتوياتها..

سقطت الفاترينة بجوار ميشيل ليون وقد تطايرت أوراقها. لم تكن آذان البروفيسور لتستمع إلى نداءات المسعفة التي ما زالت تطالبه بالمغادرة. نهض ميشيل إلى أوراق الفاترينة وراح يجمعها بيديه فيما سقط الغطاء عن كتفيه إلى الأرض. نادى المسعفة على رجل الدفاع المدني في الأعلى محذرةً إياه من رمي الأغراض باتجاه ليون المصاب. فطلب منها إبعاده فوراً عن المكان..

سحبت المسعفة ميشيل بعيداً. إلا أنه كان ما يزال يمد يديه إلى الأوراق لجمعها. تزاومت العناوين أمام ناظره مما استطاع التقاطه من الأرض الرطبة. وجذبت الفتاة البروفيسور بقوة لتأخذه إلى نهاية الشارع..

جلس البروفيسور ميشيل ليون على رصيفٍ آخر تحت نور شارعٍ كان منحرفاً بفعل الزلزال. وراح يراجع ما كُتِبَ على تلك القصصات الصفراء..

نسف جامع النبي يونس بواسطة (الدولة الإسلامية) يظهر قصر الملك أسرحدون من تحت الأرض..

دار كريستي تباع جدارية آشورية للملك آشور ناصربال الثاني بمبلغ 35مليون دولار في مزاد بنيويورك..

انحسار مياه سد الموصل العراقي يكشف عن قصر امبراطورية ميتاني الغامضة.. لُ فيغارو: (الأثر العقيم). رقيم يسرق من العراق يثير زوبعة مطارداتٍ مثيرة..

أثار خبر صحيفة لُ فيغارو اهتمام ميشيل من جديد. وراح يقضي وقت بؤسه بقراءة الخبر للمرة المائة منذ كان يقرأه من خلف زجاج الفاترينة كلما مر من أمامها في شقته. مرت عيناه على الخبر تحت نور الشارع المنحرف..

”أسموه بالأثر العقيم. لكون الأفراد الذين حاولوا الحصول عليه قضوا جميعاً. الأثر العراقي الذي نُهبَ من مدينة بابل الأثرية بعيد حرب العراق عام 2003 بثلاثة أشهر وصل إلى عمان بطريقةٍ غير مشروعة حينها. ليكشف عنه الستار في أواسط العام 2014. ويثير كشفه عاصفةً من المطاردات كشفت عنها الشرطة الأردنية بعد شهرين من حدوثها. إذ وقع الأثر بيد تاجر يهودي إسرائيلي الجنسية يدير شركات للمقاولات في العاصمة الأردنية يدعى ناحام زائيفي. فقدم زائيفي معلومةً لمجمع رؤساء الطوائف في تل أبيب معلناً فيها بأن الرقيم المكسور من منتصفه إلى قطعتين منفصلتين يحمل تكملة كتاب الزوهار التاريخي. والهام جداً بالنسبة لطائفة القاباليين اليهودية.

التفاصيل المثيرة للحدث رواها العميد عبد الله مصطفى من قوات الدرك الأردني قائلاً:

”لقد حدثت جريمة قتل لرجل أعمال أردني يدعى عماد الحسين قادتنا إلى البحث عن خيوط الجريمة، حيث اكتشفنا وجود شبكة واسعة من الأشخاص المتورطين بمطاردة ليلية وقعت في العاصمة عمان أدت إلى مقتل الحسين إضافة إلى أحد عملاء مركز جمع تراث اليهود الشتات في جنيف والذي يدعى ديفيد ايتان. فيما تمكنا من القبض على شخص آخر ادعى أنه يعمل سائقاً لديفيد و يتقاضى راتبه من المركز السويسري أيضاً..“

ويكمل العميد مصطفى: لقد أرسلت فتاة تدعى كلارا بشيفرة أدت إلى انطلاق مطاردة مثيرة في رموز ومواقع تاريخية في الأردن. منها المدرج الروماني الذي كشفت التحقيقات مع حراسه أن ديفيد ايتان كان قد زاره في ساعة مبكرة من تلك الليلة. لتمتد المطاردة إلى جبل نيبو في مادبا كما ذكر أحد رجال الشرطة هناك مؤكداً تحذره مع رجل تنطبق عليه مواصفات ايتان. ثم اثبتت كاميرات المراقبة في كنيسة الروم في مادبا أيضاً تسلل ايتان إلى باحة الكنيسة. قبل أن يعثر عليه مقتولاً في قلعة الكرك.

ويضيف العميد عبد الله: تسجيلات المكالمات أثبتت تورط شاب أردني يدعى إبراهيم بسلسلة المطاردات والجرائم في تلك الليلة. إضافة إلى تورط عميلة التاجر اليهودي ناحام زائيفي المدعوة كلارا بنيامين فيها. والتي أظهرت الأخبار أنها قد قُتلت غرقاً في البحر الأحمر على يد إبراهيم من على متن سفينة يونانية أبحرت من ميناء العقبة في السادسة والنصف صباحاً تحمل اسم ستاركيت“.

هذا، ويذكر أن مجمع رؤساء الطوائف اليهودي قد شهد جدلاً واسعاً في ليلة المطاردة يعتقد أن له علاقة وثيقة بما حدث من وقائع على الأراضي الأردنية تلك الليلة. فيما تؤكد مصادر وثيقة لـ(ل فيغارو) بأن الأثر العراقي قد استقر في قعر البحر الأحمر في نهاية المطاف، بعد أن قضى على ديفيد ايتان وكلارا. وأدى إلى إلقاء القبض على إبراهيم والسائق التابع للسويسريين أيضاً. إضافة إلى وفاة ناحام زائيفي في ظروف غامضة في العاصمة تل أبيب التي كان قد انتقل إليها قبل ليلة من المطاردة.

إلى ذلك، أكد العميد عبد الله مصطفى أيضاً، أن قواته قد تمكنت من اكتشاف حالة تجسس على المكالمات قام بها اثنان من موظفي إحدى شركات الاتصالات في الأردن. وهما فتاة عشرينية إضافة إلى شاب في منتصف الثلاثينات لم يكشف العميد عن اسميهما، لكنه أكد أنهما قد عوقبا وفق القانون بالسجن الشديد لعدة سنوات بتهمة التنصت غير المشروع. وبتهمة التجسس أيضاً. فهل كان الأثر العقيم حالة لعنة فراعنةٍ أخرى، لكنها بابلية هذه المرة؟..

أنهى ميشيل قراءة الخبر من على الصحيفة، ثم قام بطيها ودفنها في جيب روبه. لتلمس أصابعه الورقة المطواة فيه، أخرج الورقة الأخرى وفتحها. كانت صورة الرقيم التي التقطها له في السوريون تظهر ملونة على الورقة، عاود قراءتها من جديد، فيما ما زالت تتناهى إلى أسماعه أصوات صافرات سيارات الطوارئ..

الفصل 83

الخامسة فجراً بتوقيت باريس.

كان ميشيل يشعر بالبرد الشديد وهو يقرأ النص المسماري المكتوب على الرقيم في الورقة بين يديه..

فجأة، شعر بأن قلبه قد اضطرب بضرباته على أضلاع صدره، مد يده بسرعة في جيب روبه ليخرج قavanaugh (ال فيغارو). راح ينظر كالمجنون بين الورقتين. فيما اكتست وجهه مسحة من الذعر الشديد..

قرأ ليون بصوت عال ما كُتِبَ على الرقيم..

من باب بابل.. ملكة ذي الجهات الأربع..

نحو مغيب الشمس..

يكون الرحيل..

كسعة تقتلعها الريح بعيدا..

من بابل المنكوبة..

إبحار في الرمال..

صامتاً في الطريق..

عام من القتل..

بحر بالدينة..

ويقتل الأطفال ويغسلهم بالدماء..

أيتها الآلهة..

كوني رفيقة بها..

ثم عاود النظر إلى ما على قصاصة ل فيغارو..

”.. الأثر العراقي الذي سُرِقَ من مدينة بابل الأثرية وصل إلى عمان بطريقة غير مشروعة في أواسط العام 2014 ، ليثير عاصفةً من المطاردات كشفت عنها الشرطة الأردنية بعد شهرين من حدوثها..“

صاح ليون: ”بلى.. بلى.. من باب بابل نحو مغيب الشمس. إلى الغرب. إلى الأردن. كسعفة تقتلعها الريح بعيداً. الرقيم المسروق في 2003 توجه إلى الغرب. إلى الأردن. إبحاراً في الرمال. في صحراء العراق الغربية. صامتاً في الطريق. وما عساه يقول وقد انتزع عنوة. عامٌ من القتل يمر بالمدينة. يقتل الأطفال ويغسلهم بالدماء.. إنه العام 2003 .. عام حرب العراق.. المدينة هي بابل.. أيتها الآلهة كوني رفيقة بها. ببابل..“

عاود النظر إلى ورقة الرقيم..

يموج الموح بما اقتلع..

ليعيث به تشريدا..

الريح لا تهدأ..

والسماء لا تكف..

يغضب النهاران غضبا مريعا..

ويغضب الذين يلوثنهما بأيديهم..

خصومة كبيرة.. ودم يراق سريعا..

عاود ليون النظر إلى خبر الصحيفة وبدأ بالصراخ من جديد..

”الموج هو المطاردة الكبيرة.. الريح لا تكف والسماء لا تهدأ. لقد كانت عمان تحت عاصفة مطرية شديدة في تلك الليلة. يغضب النهران ويغضب الذين يلوثونه بأيديهم.. بدأ الرقيم بالغضب من قاموا بسرقة. وغضبوا هم لما بينهم من اختلاف.. خصومة كبيرة. ودمٌ يراق سريعاً.. إنه دم عماد الحسين المقتول..“

وقرأ من جديد..

يجتمع السادة فيما بينهم..

ويبدأ الصراع بلا أياد..

قال أحدهم ما كان قد اقتلع عليه أن يعود لمكانه..

بابان يتحطمان

تخرقهما أياد لا تريد لهما خيراً

وتتصارع على مداخلهما

غرب بابل يغرق

وشرقها يقتله الظمأ

من الأرض البعيدة..

يأتي النداء..

امشوا وراء قلوبكم..

النجاة في السفينة المحطمة..

صاح من جديد..

"يجتمع السادة فيما بينهم. شيوخ مجمع الطوائف. وبيد الصراع بلا أياد.. الصراع حول معتقدي الحريديم والقباليين.. قال أحدهم إن ما اقتلع عليه أن يعود لمكانه.. الحريديون يريدون التخلص منه.. بابان يتحطمان تخرقهما أياد لا تريد لهما الخير. وتتصارع على مدخلهما.. الرقيم مكسور ومنفصل عن بعضه والصراع عليهما محتدم.. غرب بابل يغرق.. تلك هي عمان تحت مطر تلك الليلة.. وشرقه يقتله الظمأ.. إنه الجفاف في العراق في ذلك العام.. من الأرض البعيدة يأتي النداء.. من جنيف ومركز جمع التراث اليهودي.. النجاة في السفينة المحطمة.. في تكملة الزوهار بالنسبة للقباليين" ..

من الشرق إلى الغرب..

إلى الغرب إلى الغرب..

يسير القارب بصارتيه..

في بحر من الشر..

كسعة تقتلها الريح بعيداً..

الطوفان العظيم تفلقه سفينة..

هناك عند الصارية..

يقف باب إخماده..

وأن له مصراعين..

تصعد الأرواح عالياً..

ويقف الآله وسط الصراع..

شراع السفينة لا زال واقفاً..

والمتصارعون حوله..

”من العراق إلى الأردن. إلى إسرائيل إلى جنيف. إلى الغرب إلى الغرب.. يسري القاربُ بصاريتيه في بحرٍ من الشر.. خبره يذيع من مكان إلى آخر إلى الغرب.. كسعفةٍ تقتلعها الريحُ بعيداً.. الطوفان العظيم تفلقه سفينة.. هناك عند الصارية يقف باب إخماده.. ذلك بحر موسى الذي فلقه.. ولذا ذهب ديفيد ايتان إلى جبل نيبو.. إلى عصا موسى التي فلقته.. السفينة.. الصارية هي العصا على الجبل.. وأن له مصرعين.. الشاربان الكبيران أعلى العصا.. تصعد الأرواح عالياً.. إلى أعلى الجبل.. ويقف الإله وسط الصراع.. ذلك الإله نيبو.. شراع السفينة ما زال واقفاً.. عصا موسى. والمتصارعون حوله. المتخاصمون الذين تحدث عنهم العميد..“

في مكانٍ أخفت فيه الأرض الأسرار..

ينكتشف السر..

ويسعى الناجون إلى هناك..

الحمالان الثمانية تحمل صاعين من الحجارة..

في مكانٍ للقسى والرماح..

يتقاتل المحاربون..

للغرباء وجوهٌ كثيرة..

بعضهم يموت..

وبعضهم يسرق السفينة إلى طوفانٍ من ظلام..

” في مكانٍ أخفت فيه الأرض الأسرار.. كنيسة الروم التي أخفت خارطتها لسنين طويلة، ينكشف السر الخريطة ظهرت بعد إعمار الكنيسة المنهارة بسبب زلزال، ويسعى الناجون إلى هناك.. إلى الشيفرة التالية.. الحملان الثمانية حَمَل صاعين من الحجارة، ثمانية زائد اثنين هو العدد عشرة.. يبدو أن ايتان فهم ذلك من دخوله إلى الكنيسة ليرسل بطريقةٍ ما إلى النقطة التالية.. في مكانٍ للقسي والرماح.. قلعة الكرك، حيث كانت تحوي أماكن للسلاح في القرون الوسطى.. يتقاتل المحاربون.. بعضهم يموت، ذلك هو مقتل ديفيد ايتان، وبعضهم يسرق السفينة إلى طوفانٍ من ظلام.. إنه البحر الأحمر ليلاً.. حيث انتهى المطاف بالرقيم في قعر البحر كما يقول العميد.. ”

تتحرك الصواري بما اقتلع..

ويضحك المنكسرون في النهاية..

في الظلام حكاية أحكيها..

وأنا، سأنتهي كما انتهت بابل إلى الأبد..

تحت سماءٍ متهاوية..

” تلك هي ستاركيت مبحرةً بالرقيم في البحر.. يضحك المنكسرون في النهاية، أي يضحك الرقيم المكسور، في الظلام حكايةً أحكيها.. ”

صمت ميشيل فجأةً وعيونه تكادان تقفزان من محجريهما..

رقيم السوربون يتحدث عن نفسه!

قرأ بصوتٍ منخفض: ” وأنا.. سأنتهي كما انتهت بابل إلى الأبد.. تحت سماءٍ متهاوية! ”

سكت ليون لوهلة وعيناه تمتلآن رعباً. ثم دس الورقتين في جيب روبه سريعاً، ونهض راکضاً في شوارع باريس كالمجنون وهو يتمتم: "كل خليلاتي أنا وروند كانت خاطئة.. رقيم السوريون يتحدث عن نصفي رقيم القباليين الذي غرق عام 2014 في البحر!.."

أوقف سيارة تكسي كانت تمر وسط اضطرابات العاصمة الفرنسية تلك الليلة. وبعد المرور بعد شوارع بين سيارات الإطفاء والإسعاف والشرطة. توقفت السيارة أمام جامعة السوربون. ترجل ليون بسرعة. أخرج ورقة الرقيم وقراها من جديد..
وأنا. سأنتهي كما انتهت بابل إلى الأبد..

تحت سماءٍ متهاوية..

رفع ميشيل عيناه نحو مبنى السوربون العتيق. كانت سيارات الطوارئ تملأ المكان..
وقد انهار مبنى الجامعة برمته..

اغرورقت عيناه وتمتم بصوتٍ خفيض: "لقد تنبأ الرقيم لنهايته هو الآخر. وخطم تحت سقف السوربون!.."